نماذج بشرية

بقلم

الدكتور

محمد مندور

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤

نماذج بشرية

بقلم

الدكتور

محمد مندور

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤

اهداء

اعتدت أن أملى على زوجتى ما أكتب أو أقرأه عليها بعد الفراغ منه ، وهى أديبة تجيد النثر والشعر ، وأنا شديد الثقة بذوقها الأدبى الذى أدركته فيها وهى لا تزال طالبة بكلية الآداب ، ولقد كان هذا الذوق دائما خير عون لى على الرجوع عما قد تسوقنى إليه حرارة القلم عند ما يتملكنى الموضوع فأندفع فى أعقابه . ولقد تناولت هذه النماذج بالمراجعة قبل جمعها فى الكتاب الحالى ، فإذا بى أرجع إلى ما كانت قد رأته عند الكتابة الأولى فى عدد من المواضع . وإن يكن هناك إنسان قد أحس بكل ما وضعت فى هذا الكتاب من تفكيرى وإحساسى ، فهو لا ريب هذه الزوجة العزيزة .

ولقد حَرِصَتْ على أن تظهر القراء على ما فى هذه النماذج من جهد مستور وصنعة خفية فقدمتها إليهم وتلك ولا ريب سنة قد تبدو جديدة ، ولكنها سنة خيرة .

وهأنا أهدى إليها هذا الكتاب رمزاً لما أحمل لها من محبة ووفاء .

محمد مندور

فهرست الموضوعات

مقـــدمة

بقلم السيدة ملك عبد العزيز

« للكاتب الإيطالى المعروف پيرندللو رواية مسرحية هى (ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود) . وهذا معنى الخلْق فى الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تجتاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفناء ، لأنها أعمق فى الحياة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع » (ص ١) .

ذلك ما يبدأ به المؤلف كتابه ، وذلك ما سأستعيره لأبدأ به مقدمتى عن ذلك الكتاب . فإذا كان أولئك الكتاب الكبار خالقو تلك النماذج قد وجدوا شخصياتهم مبعثرة غامضة حائرة فى الحياة ، فجمعوا أشتاتها ووضحوا معالمها ودعموا حياتها ، فكذلك قد وجد المؤلف تلك الشخصيات مبعثرة حائرة ، ولكن فى كتبهم ، التى صارت أعمق فى الحياة من كل حى وأصدق دلالة من كل واقع ، فجمع أشتاتها ووضح معالمها ، فكان من ذلك خلْق جديد .

وها هو جيته يتحدث عن فوست قائلا : « تسألوننى أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لى أن أعرفها ؟ ثم أنَّى لى بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء ! هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن فى فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما ينير الكثير من وقائع حياته . ولكن هذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ولا فى أى جزء من أجزائها على انفراد . . . » (ص ١٩) . ولقد يكون جيته حقاً لم يقصد إلى فكرة واحدة ، فكرة بذاتها ، ولكن هذا لا يمنع أنه قد تكون هناك بالفعل فكرة فى قلب القصيدة . وما له يعى تلك الفكرة ، والأدب لا يصدر عن وعى كله ؟ بل ما له يحددها فيمليها على قرائه ويزجهم فى طريق واحد مرسوم ؟ ولكنه تركها حائرة مبعثرة ليأتى سواه يبحث عنها ويبرزها للضياء ، فيقول عن فاوست : « إنه عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه » (ص ٣٢) . ويقول عن حياته : « إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته

خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحا أم إخفاقا فالجهاد نبل فى ذاته » (ص ٣٥) . وسواء أوافق جيته على ذلك الفهم أم لم يوافق ، فليس له — وما أراد — أن يملى شيئاً على قرائه ، فلكل منهم حرية الفهم كيفما يريد .

وهكذا جاء مؤلف « النماذج البشرية » فدرس جملة من عيون الأدب الغربى ثم رسم لنا أوضح شخصياتها كما رسبت بنفسه ، وحدثنا عن أسرارها كما أوحت بها إليه .

« النماذج البشرية » دراسة وخلق .

هى دراسة . فالمؤلف يحيط بتاريخ الكتّاب وبملابسات ما كتبوا وبالآراء المختلفة فى فهم شخصياتهم والحكم عليها . يبرز ذلك حيث لا يثقُل ، ويطويه حيث يفضُل الطى . هى « كالنور الداخلى » يضىء دون أن يعشى . فلئن كان المؤلف يحرص على إيراد الحقائق التاريخية حول الشخصية وخالقها ، فإنه لا يدعها تطغى على الخلْق الفنى فتجفف ماءه . بل هو لا يوردها جملة واحدة ، بل يحتال لينثرها هنا وهناك حيث توحى المناسبات . ففى هملت نراه ينطقه فيحدثنا عن نفسه ، مشيراً فيما يسوق من حديث إلى المصدر الذى استقى منه شكسبير قصته . كل ذلك دون أن نحس أن المؤلف قد قصد إلى شىء « ولو أننى بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمت لوالدى فى غير تردد ، ولكان بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثراً إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكوس يسوق اسمى بين من يسوق من ملوك الدانيمركة . ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقام لأبى » (ص ٣٦) . ويضيف هملت ، وقد أراد المؤلف أن يظهرنا على أن قيمة تلك المسرحية الخالدة ليست فى موضوعها بل فى علاج هذا الموضوع : « وكم فى ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن وهوى الكثير ، والناس بعد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ، ولكن شكسبير قد خلقنى خلقاً جديداً وأودع روحى من النفاذ ما لا أزال أشقى به . . . » (ص ٢٦) . وفى موضع آخر من هملت أيضاً نرى المؤلف يشير إلى الحالة النفسية التى كتب فيها شكسبير قصته « ونحن لا بد متسائلون عن مبلغ ما حمّله خالقه العبقرى من مرارة نفسه وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى اليوم حائرين فى فهم سرها ومداها وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شعره الغنائى Sonnets الذى يدور حول ذلك العام ، عام ١٦٠٤ » (ص ٣٩) . وفى ألسست نراه يُنطق موليير بقوله : « وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهد كيانى ، فها هى

زوجتى تحتمى وراء المجاملات الاجتماعية فتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنارها كيًا » (ص ٤٨) فيستعين بتلك الملابسة التاريخية على تأييد رأيه فى أن شعور موليير كان مع بطله ألسست ، إذ لم يجعله موضعاً للضحك فى بعض الأحيان إلا ليتقى غضب هيأة اجتماعية تؤمن بالمجاملات وما بها من نفاق . وفى « أوليس » يصف معارك طروادة ثم يقول : « وكانت معارك تبيض لهولها النواصى إذا كانت كلها فى قسوة ملاحم السنة العاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها » (ص ١٠٣) ، ليخبرنا أن هوميروس لم يصف فى ملحمته من تلك الحرب سوى جزء من السنة الأخيرة .

ومن وسائله الجميلة فى إيراده الحقائق التاريخية أن تراه يمزج بين النموذج ومؤلفه حين يرى أن المؤلف إنما كان يصور جانباً من نفسه فى أنموذجه ، وفى هذا ما يجسم الشخصية الروائية حتى لتحسبها ولدت وعاشت واضطربت فى الحياة بالفعل . استمع إليه يقول فى سذاجة تضفى على الكلام خفة وسحراً : « نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفانتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا » (ص ١٤) . ويتابع المؤلف تجسيمه لنماذجه ليضيف إلى حياتها حياة فيقول : « فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية » (ص ٧) . فلو قرأ تلك العبارة من لم يسمع باسم ذلك البطل لما داخله شك فى أنه قد عاش ومهد للثورة بالفعل . وفى تلك السنة كتبت الرواية ، وفى تلك السنة خلق بومارشيه بطله فيجارو . وبمثل تلك السذاجة حدثنا عن دخول كلمة فيجارو فى اللغة الفرنسية اسماً لكل حلاق بعد أن ذاع صيت تلك الشخصية الفريدة . « وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم » (ص ٨) . وحدثنا عن الروايات التى ظهر فيها ذلك البطل : « ولقيه المؤلف بومارشيه وقد سئم مهنته ، ومن ذلك اليوم أحبه ، فصاحب خطاه فى الحياة ، وقص علينا نبأه فى مسرحيات ثلاث : حلاق أشبيلية ، وزواج فيجارو ، والأم الجانية » (ص ٨) .

ورغم أن المؤلف إنما قصد إلى إحياء « النماذج البشرية » إلا أنه لم يغفل أن يسوق شيئاً من النقد لفن الكاتب أو لطبيعة العمل الفنى ، ولكنه يسوق ذلك كعادته سوقا محكما فى السياق بحيث لا تحس له نفرة أو إقحاما . ففى « إبراهيم الكاتب » يقول : « وأنا بعد لا أستطيع أن أتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا لأننى لا أعرف قصته ، وإنما أعرف منها مرحلة قصيرة تذكرنى بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقاً

لطبائعها . ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة » (ص ٧٧) . ويصف أدب الكاتب بقوله : « إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج جميل من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد لهما بحق چورچ ديهامل سر نبوغ الكتاب » (ص ٧٧) . وكذلك نراه يحكم على قصة يتلان بأن « أجزاءها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة . . . » (ص ٩٢) ، ثم يفسر ذلك ويوضحه . ولكم من مرة نقف أمام أدب الكاتب من أولئك الكتاب الكبار نعجب به ونتمنى لو يظهرنا المؤلف على ما فيه من أصالة وجمال ، ولكن موضوع « النماذج » يضيق عن ذلك ؛ فلعلى إذ أقول اليوم هذا ، أنتزع من المؤلف وعداً بأن يعود إلى فن أولئك الكتاب يتحدث عنه .

والنماذج خلق ينفث فيها المؤلف الحياة بما يصطنع من سذاجة ، وبما يحملها على التحدث به عن نفسها كما حملت ، وبما يترجمه من أقوالها الأصلية ينطقها به بعد أن يكون قد مهد الجو وأحكم الملابسات . هو مخلص لنماذجه يتابعها جزءاً وجزئين كفاوست ، وقصة واثنتين كفيجارو ، بل ينتقل معها قروناً كأوليس : يعاصر هوميروس فى القرن التاسع ق . م . ثم سوفوكل فى الخامس ق . م . ثم تنيسون وجويس فى العصور الحديثة ، فهو عالم بها ملم بأطوارها . استمع إليه يتحدث عن أوليس « ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأودسا ثم ينتهى بخبث فيلوكتيت وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة وإنما هو محك الزمن الذى أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله ، يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » (ص ١٠٤) وفى الحق أن الرجل ما عاش إلا فى القرن الثانى عشر ق . م : فى عصر البداوة الأولى ولكن خالقيه من الكتاب هم الذين نقلوه معهم إلى أزمانهم حين صوروه بالصورة الخاصة التى أرادوا . ولولا نفاذ نظر المؤلف لما استطاع أن يرى تطور صورته فى رءوس كتابه المختلفين ، ولما استطاع أن يجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التى تليها رغم اختلاف أولئك الكتاب ، ثم أن يحكم من ذلك ، لا أنموذجا لشخص واحد فى الحياة فحسب ، بل أنموذجا للشعب اليونانى كله فى عصوره المتعاقبة ، وأنموذجا لكافة الحضارات « حين تسير من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » .

والمؤلف يتسلل إلى نفوس نماذجه من خلال أنفسها ومن خلال خالقيها ، ويعرض مختلف

الآراء فيها لينفـذ إلى ما يراه الحق وليصورها فى الصورة التى أوحت بها إليه . استمع إليه يتحدث عن دون كيشوت « فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بآثام البشر يحاول لها إصلاحا فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب فى غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد لايزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب ، الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها . ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟! » (ص١٣ ، ١٤) أو إلى قوله عن هملت : « هذه مأساة هملت ، ولـكم كثرت من حوله الأقاويل فمن قائل إنها مأساة جنون ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقام ، ولـكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفى الحق إنهم لمخطئون . ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا وإنما هى مأساة رجال الفـكر أولئك الذين اتسعت عقولهم لـكل شىء فنفـذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأى فتحطمت بين أيديهم حياتهم التى اتخذوها موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لايرون من الأشياء إلا جانباً واحداً فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الـكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب فما تزال أحيانا حائرة مترددة حتى تقف فى مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم » (ص ٤٧) ولا شك فى أن ذلك رأى أصيل أيده ودعمه بما بسط من وقائع الرواية وأحاديثها .

ثم هى خلق بما فيها من تأمل شخصى وملاحظات إنسانية وتفكير عميق غذتها ثقافة واسـعة واضطراب مباشر فى مناحى الحياة . استمع إليه يقول فى چفروش : « فأشد انفعالات النفس وأعمقها غوراً وأصدقها رنينا هو ما يعقد اللسان » (ص١) أو إلى قوله عن دون كيشوت « فاستحالت آلامه سخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولـكنها سخرية لاتزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهى أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ونرفق بها كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا » (ص ٣) من منا يقرأ ذلك ثم لا يحس بصدقه وإنسانيته ؟ ومن منا يقرأ قوله « هذا هو چفروش كما تعرفه باريس فى أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ولـكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس وحرارة فى القلب وإمعان فى الحياة تنشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود » (ص ٥) من يقرأ هذا ثم لا يحس أنه قد فسر لنا حياة أولئك الصعاليك الذين نحبهم

ونعجب بهم وإن كنا قد نتردد فى انتهاج سبلهم فى الحياة — من منا لا يحس أنه قد جعل جفروش نموذجا حقا لهم بحيث لا نملك أنفسنا حين نقرأه ، وهو الطفل الباريسى ، من أن نذكر الشاعر العربى عروة بن الورد ، عروة الصعاليك الذى كان يجمعهم ويؤيهم ويطعمهم مما يستلب فى غاراته ، ثم لا يذكر قوله الجميل النبيل :

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم انظر كيف صور الدور الذى تلعبه السخرية فى الحياة بقوله فى فيجارو « ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلا إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك . وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ؟ وهل يجد من حياتنا غير الهموم التى لا نعرف كيف نسخر منها ؟ » (ص ٧) واستمع إلى تلك الحقيقة الاجتماعية الصادقة فى العبيط « فنحن فى الحق أكثر استعباداً للعرف منا للخلق وذلك لأمر بين هو أننا جميعا — إلا من عصم ربى — أشد حرصا على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا » (ص ٢٢) ثم احكم هل عدا الحق فى قوله ! ثم أى تفكير أصيل دقيق فى وصفه للمكر فى « الأستاذ بتلان » : « المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة . والمكر إحساس باطنى بالنسب ، إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها حتى يقودها إلى ما يريده وكأنه لا يعى ما يفعل . والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير وتذليل تلك النفوس . وإذن فالمكر ليس شراً فى ذاته وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود » (ص ٨٧)

ولكم من مرة تراه يلخص فلسفة بأسرها فى جملة تأتى فى موضعها من السياق ، دون أن تحس فيها جفاف العلم وإن ظلت محتفظة بجلال الفكرة ، مما يجعل لتلك النماذج دسامة تغذى العقول وتفتح أمامها أبوابا من التفكير ، كما رأيناها من قبل ترهف من أحاسيس النفوس . فها هو يجمع فلسفة الضحك عند برجسون فى قوله : « إن فى تصرفات السست ما يحرج وما يضحك ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ؛ وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء نقوّم به ما يخرج فى حياتنا عما يجب أن تطرد عليه فى عرف المجتمع ؟ » (ص ٥٤)

وأخيراً هى خلق لما فيها من صياغة محكمة أصيلة وأسلوب حار يضمنان لها الخلود كعمل فنى . وفى الحق إننا لنستطيع أن نرى فى ذلك مرحلة أخيرة من مراحل الأسلوب العربى فى العصر الحديث ؛ فلقد كان فى البدء سجعا وتكلفا وزخرفة لفظية ثم مال — كرد فعل — إلى البسط والتبسيط بحيث تكشف لك الكتابة عن كل ما تحمل للقراءة الأولى دون أن تترك لك ما تفكر فيه وتتأمله . ولكن أسلوب هذا الكتاب قد خلا من سوءات الصنعة المتكلفة ونأى عن البسط المسرف ، فجاء أسلوبا مركزاً موحيا غنيا بما يرقد تحته من إيحاءات ، فلا تملك إلا أن تقف بين الحين والحين لدى الجملة تمضغها وتجترها لتستخرج كل ما يكمن فى قلبها من معنى . وهو إلى هذا قد خلا من ثقل المحاجة المنطقية وجفاف الأسلوب التعليمى بل نراه يلقى ما يريد فى خفة تشبه خفة الإغريق الذين كانوا « يفكرون بخيالهم » ويحلون مشكلات الوجود بالأساطير .

فى چوليان سوريل تجده يقول بعد أن صور ما قد يلاقيه بعض الممتازين من اضطهاد فى المجتمع يدفعهم إلى ارتكاب الآثام . « وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من سوريل طيوراً جارحة » (ص ٦٩) انظر كيف اهتدى المؤلف إلى الوصف الدقيق الناقل للاحساس يلقيه فى خفة عابرة فيصيب موقعه من النفس ، فهو لم يقل « وحوشاً ضوارى » مثلا لأنه يريد أن يحتفظ فى نفسك ببعض العطف على أولئك الذين « جعلتهم الجماعة » بظلمها لهم يصلون إلى تلك الحال . وكذلك وصفه للتشابه بين فتاتين صغيرتين بقوله « شبه قطرات الندى بعضها لبعض » (ص ٣) فهو لم يشبههما بزهرتين مثلا بل اختار أدق ما يحمل ما فى النفس من إحساس ، إحساس بالصفاء والطهر والرقة ؛ وهل أدق من قطرات الندى فى نقل ذلك الإحساس .

وإنك لتلمح مثل هذا التوفيق فى التعبير فى قوله « فلئن كان ألسست ضميرا ينطق بمكنونه صادقا صريحا فسليمين أكذوبة اجتماعية تتحرك ؛ ومن عجب أن يحبها ألسست حبا صادقا عميقا » (ص ٥٠) وانظر أى وصف كان يكون أكثر انطباقاً على امرأة كسليمين « فى حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجهها وأصباغ شعرها . » (ص ٥٠) . وأى وصف كان يكون أبلغ عن رجل كألسست ، لا يكتفى « بألا يقول إلا ما يؤمن به بل وأن يقول كل ما يؤمن به ولو كان فى ذلك شقاؤه ، ولو أصبح به موضع سخرية الناس أجمعين» (ص ٤٨) ثم انظر كيف ثبّت الكاتب العَجَب فى نفوسنا من حبه لسليمين حين جمع فى دقة بين « الضمير » و « الأكذوبة »

واقرأ معى تلك الجملة يفسر بهـا كيف أن رأس المحكوم عليه بالإعدام فى اللحظات السابقة للتنفيذ ، تحظى بحياة غنية تتدافع فيها الأفكار غزيرة متتابعة « أوما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها .لا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحمى اليأس أشبه » ثم خبرنى ألم يرقك هذا التفسير الإنسانى الصادق بما فيه من دقة وتركيز يدعوان إلى التأمل ؟

واستمع إلى قوله : « وهكذا تتضور النفوس الممتازة وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقا حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » (ص ٦٨) . ثم انظر إلى قوة الصورة ودلالتها وأصالتها فى قوله : « تحنى أصلابها وتتصبب عرقا » . إننى لأتصور أمامى الآن رجلا رث الثياب يخرج من فوهة منجم مظلم ، وقد حمل فوق ظهره حملا ثقيلا انحنى عوده تحت وقره ، ونفرت عروقه وتصبب منه العرق . وانظر إلى تلك الجمل الاعتراضية التى قطعت الأسلوب ، عقبات تقف فى طريقك كلما حاولت الانطلاق مما يشعرك بالجهد ، جهد أولئك الممتازين الذين وضع المجتمع فى سبيلهم العقبات ، « حتى تستطيع — وقد لاتستطيع — بعد جهد عشرين عاما — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » ، ولـكن الجملة الأخيرة تطول قليلا ، إذ فيها راحة الوصول . فأى مطابقة فى الأسلوب بين الفكرة وما يساوقها من عاطفة ، وبين الموسيقى اللفظية ! وما دمنا بصدد الموسيقى فلتقرأ معى تلك الفقرة : « ولـكم قعقعت أسلحة رولان فى مفاوز الجبال ، ولـكم نشرت قلاع برباروس الرعب على صفحات المياه ؛ فما له لا يغامر كما غامروا ؟ وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما ألتمســه من قبل أبطال ؟ » (ص ١٢) . واستمع كيف « قعقعت » الأسلحة فى « مفاوز » الجبال ، وكيف « نشرت » ، لا بعث ، « قلاع » برباروس « الرعب » على « صفحات » المياه ، لا سفن برباروس ، الخوف على صفحة المـاء . ثم احكم أى توفيق قد صاحب الـكاتب فى اختياره للألفاظ المعبرة بمعناها وموسيقاها ، ورولان هو ذلك البطل الشهير الذى زعموا أنه حاول رد العرب عن إسبانيا ، فأوحى بأول ملحمة فى الشعر الفرنسى ، وبرباروس هو ذلك القرصان الرومانى المرعب الذى دوخ رواد البحر .

« تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة ، تحســبه بالداخل بينما هو فى الخارج ؛ أليس هو فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو ؟ . . . » (ص ٩) .

نعم إنه فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ، إذن فليتابع المؤلف خفته فى حركة الأسلوب ، فى تلك الجمل المنفصلة المتلاحقة ، وفى ذلك التساؤل المتكرر الذى يتبعها .

وبعد فليس الحديث عن السيل الموسيقى فى الأسلوب والدقة فى اختيار الأصوات المعبرة بالأمر الهين . ذلك لأنها ليست من البساطة والوضوح بحيث تمسك بها وتدرجها فى رقم أو أرقام كذلك الذى كانوا يعلموننا فى المدارس عن أدب هذا الكاتب أو ذاك « سجع قصير الفقرات ، ومقابلة أو طباق ، وبدء بالتحميدات الخ الخ . . . » . إنها ليست موسيقى رقص ، محددة مقسمة متقابلة ، ولكنها فيض نفس ، نفس حارة غنية ، موسيقى سيالة تعلو وتهبط وتتكسر وتتراخى وتتدافع حسب نبضات الإحساس أو وثبات الفكر ، فإذا أردت أن تدرك خصائصها ، فعليك أن تقف إزاء كل جملة ، وإزاء كل فقرة ، تتأمل السر فى إحكام ما بها من نغم .

وإذا كان المؤلف قد استعان بتجسيم شخصياته على إيراد الحقائق التاريخية ، فإنه قد استعان بذلك أيضاً على استحضارها أمام القراء ، حتى تكون أبلغ تأثيراً فى نفوسهم ، « ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظلام الليل ، وها هو فيجارو وحيداً مجهداً يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة ، بعد أن نفد صبره وأصابت السهام شغاف قلبه . ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التى يحب . . . » (ص ١٠) . ثم إذا به يعقب بعد أن انتهى فيجارو من إلقاء مونولوجه بقوله : « وحزن الحاضرون لحزن فيجارو » . وفى الحق لم يكن ثمة حاضرين سوى النظارة فى المسرح ، ولكنه أحالهم « حاضرين » معه حتى يوهمنا بالواقع فيكون أفعل تأثيراً فى نفوسنا .

وبعد فإذا كان المؤلف يملك تركيز الفكر ودقة اللفظ وقوة إيحائه ، ثم دلالة الصور وموسيقى الأسلوب ؛ وإذا كان يعرف اصطناع السذاجة وإحياء الشخصيات ، فإنه يملك هبة لا تقل خطراً عن كل هؤلاء ، يملك حرارة القلب ، يملك قوة الشعر ، ومثالية التصوف ، استمع إلى قوله « دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعل فى النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التى يقوم عليها صبانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها عن أن يخمد ، ولقد تتقطع أوتار القيثارة فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رماداً مقدساً ، ولا بد للألحان من رجع فى النفس تحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنايا الماضى الجميل » . إننى لأشفق أن أمس تلك الفقرة الرائعة بالتحليل فألقى ظلا على ما بها من شعر وتصوف ،

ولـكن عليك أن تعيدها على سمعك لتحس بكل ما فيها من جمال وجلال .

ثم هو إذا كان يملك الشعر فإنه ليعرف السخرية . استمع إلى قوله فى «العبيط» : « ولـكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب ، فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ، وهو أخيرا لا يعرف أن ما كل حق يقآل ، وإذا قيل فما ينبغى أن يقال لـكل إنسان وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة . قد تقول هذا وخيراً من كل هذا ، وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة ، وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا نفاقاً متصلا ، واتخذت من هذا النفاق قانوناً صارماً يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى » (ص ٣٦،٣٧) فأى سخرية أبلغ منها فى قوله « عبيط عبيط ما فى ذلك ريب » ووصفه لتلك الحجج بأنها « حكمنا الثمينة » ثم استخفافه بها فى قوله « قد تقول هذا ، وخيراً من كل هذا » . ثم إننى أرجو أن تقف عندما فى هذه الفقرة من سخط على التواء حياتنا الاجتماعية ونفاقها وما بها من دعوة لتحطيم تلك القسوة التى خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . ولـكنها دعوة لا تأتى من الخارج ، لا تأتى من أنه « ينبغى » لنا أن نحث على الفضيلة وأن نجعل الأدب منابر وعظ ، لا تأتى عن قصد وتعمل — فذلك ما يميت الأدب ولا يحيى الأخلاق — وما يؤمن الـكاتب بشىء من هذا بل إنه ليؤمن بأن الفن غاية نبيلة فى ذاتها ، ولـكن تلك الدعوة وأمثالها إنما تصدر لديه عن فيض نفسى ، عن شعور شخصى وإيمان عميق ، ولذلك تحتفظ بقوتها على التأثير ، فتسلم لهـا النفوس ، بدل أن تنفر من وعظ مفتعل مرسوم .

ولـكى يستجيب إلى ذلك الشعور الذى يعتلج فى نفسه من حبه للمثل العليا تراه يقف فى تصويره لبعض الشخصيات عند مرحلة بعينها حين يراها تفقد دلالتها الأولى كمثل ممتاز « ولهذا نقف فى تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه فى ذهن القارىء مثلا حيا لمبلغ مايستطيع أن يصل إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة . » (ص ١١)

وفى الحق إن فى النماذج لخير غذاء للجيل الجديد . تراه يدعو إلى المثل وإن كان ينصح بملابسة الحياة « وهكذا نحن فى الحياة لابد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحا وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلابس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم فمثلهم لنكد الطالع كمثل أنتيه وقد رُفع إلى الفضاء ماتلبث السيوف أن تذهب برءوسهم » (ص ١٢) ففى هذه الفقرة تراه يصور ضرورة ملابسة الواقع

فلا يهيم الشباب فى واد سحيق مُن الأحلام لايفضى إلى شىء ، وإن كان لا زال يحتفظ بحبه المثل فى قوله « أن يظفر بما يسميه جمهرة الناس نجاحا وقوة » وفى قوله « لنكد الطالع » .

وهو يدعو إلى الجهاد ، الجهاد الذى لايعرف اليأس مهما لاقى من إخفاق « وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى .. » ثم هو يرفع من قوى النفس الخلقية « ولكنه أبىّ النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم أو رفعهم حمق البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم »

ولقد نجد تفاوتا فى الحرارة بين النماذج المختلفة ، فما ننتظر أن يتحمس للمحتال «بتلان» وإن كان قد يتحمس ضد أوليس بعد أن ينحدر . إنه يفهم محنة هاملت ويعطف على فيليسيتيه ويرثى لجوليان سوريل ويخشى على رستنياك ويحب جفروش ، ولكن حماسته تبلغ أقصاها حين يتصل النموذج بمعنى عام شديد المساس بحياتنا قريب من آلامنا وآمالنا . استمع إلى قوله عن فيجارو « فيجارو أنموذج بشرى خالد لأبناء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح فإن لم يكن العنف فلتكن السخرية . . . فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التى لا تدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذى لا يريد أن يستجدى أحداً وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذى يشكو من نظام فاسد لا بد من أن يقيم على أنقاضه نظاماً أصلح » . (ص ١١) وفى هذا الكلام من حرارة القلب وقوة الإيمان ما يشحذ القوى ويحيى النفوس .

وبعد ، فلعلى أطلت عليك أيها القارىء الكريم ، ولعلك تتساءل وما بالها تكتب كل هذا الكلام عن صاحب الكتاب ؟ ولكنه لو لم يكن زوجى لكان لى الحق فى أن أكتبه كمحبة للأدب ، فكل ما طرأ هو أنه قد أفسح لى الكتاب لأقول ما أريد .

جفـــــروش

Gavroche

للكاتب الإيطالى المعروف پيرانّدللو Pirandello رواية مسرحية هى « ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود » ، وهذا هو معنى الخلق فى الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هى أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تجتاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفناء ، لأنها أعمق فى الحياة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع .

ولقد يبدو غريباً أن نترك النماذج المشهورة كدون كيشوت وهاملت وفوست مثلا ، لنبدأ بجفروش . وجفروش طفل فى الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفى بعد أن تبدأ رواية « البؤساء » لهيجو وقبل أن تنتهى ؛ فلا هو بطل الرواية ولا هو مدارها ، ولكنى رغم ذلك أحب هذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقد أقعدنى المرض أياما فلم أجد جليساً تستريح إليه النفس خيراً منه . ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثى لذلك الفيلسوف الجليل[1] الذى غذى شبابى بما فى الخير والحق من جمال . وما أدرى أضل رجلنا عندما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع الناس أنفسهم ويخادعون الغير عندما يتحدثون عن الخير والحق ؟ ومن يدرينا ؟ قد لا يكون هذا ولا ذاك ، وإنما هو عبث بالألفاظ وإخراج للغة عما خلقت له من حمل معانى النفوس ونفثات القلوب . ولكم من مرة حدثتنى النفس أن اختراع اللغة هو أقسى ما نزل بالبشر من كوارث .

فأشد انفعالات النفس وأعمقها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان ، وأكمل الرجال شهامة أقلهم حديثاً عن الخير والشر ؛ وتلك ألفاظ ما كان جفروش يعرف لها معنى ، ولو أنه علم أن للأخلاق قواعد تواضع عليها الناس لفسدت حياته ، لأنه نشأ على السخرية من مواضعاتهم والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لها ألماً ، وما كان قوام حياته إلا معنى عميقا للشهامة وفطنة إلى مواضع التهلكة أكسبته إياها تجارب عاجلته بها الحياة صغيراً . نعم لقد كانت تجاربه محدودة ، ولكنها كانت غنية لشدة ما قاسى من آلام

(١) أفلاطون .

حتى ما كان يدهشه شيء وهو بعدُ فى العاشرة من عمره .

« وكان جفروش يرتدى بنطلوناً لم يأخذه من أبيه وقميصاً لم يأخذه من أمه ، وإنما كساه بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقد كان له أب وقد كانت له أم ، ولكنه لم يكن موضع تفكير أبيه ولا محبة أمه . لقد كان من أولئك الأطفال الذين لهم أم وأب ومع ذلك فهم أيتام .

« وكان شعوره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجد نفسه فى الشارع ، إذ أن حجارته كانت عليه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقد ألقوه إلى الحياة برفسة قدم ، فطار إليها راضى النفس . لقد كان طفلا صاخباً شاحباً خفيفاً يقظاً ساخراً حىّ الملامح مريضها ؛ فكنت تراه رائحاً غادياً مغنياً لاعباً يحفر القنوات ، ويسرق أحياناً ولكن فى مرح كما تسرق القطط أو العصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتاً ، ويغضب ممن يسميه لصاً . لقد حرم المأوى والخبز والنار والحب ، ولكنه كان مرحا لأنه حر » .

هذا هو طفل باريس ، وهو منها بمنزلة العصفور من الغابة .

« وبباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قد يذهبون إلى المسرح كل مساء . لا قميص على جسدهم ، ولا حذاء بأرجلهم ، ولا سقف فوق رءوسهم ؛ فهم كذباب السماء لا يملكون من كل ذلك شيئاً . يعيشون أسرابا . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء ، ويرتدون بنطلوناً قديماً يخلعه عليهم أبوهم فينزل إلى ما دون أكعابهم ، وبرنيطة لأب آخر تغطى آذانهم ، وحمالة ذات فرع واحد يعلقونها بأكتافهم . يعدون ويتربصون ، ويضيعون وقتهم ، ويدخنون ، ويقسمون أغلظ الأيمان ، ويغشون الحانات ، ويعرفون اللصوص ؛ وما فى قلوبهم من الشر أثر لأن بها لؤلؤة هى الطهر واللآلئ لا تذوب فى الأوحال .

« وهم يصيحون ويسخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال كالفلاسفة . يصيدون فى المجارى ، ويطاردون فى القمامة ، ويستخرجون المرح من الأوحال . يصرون بأضراسهم ، ويعضون بالأنياب . يصفرون ويغنون ، يحيون ويسبون . يجدون بغير بحث ، ويعرفون ما يجهلون . هم إسبرطيون إلى حد اللصوصية ، ومجانين إلى حد العقل ، وشعراء إلى حد الإسفاف . يرقدون فوق الأولمب ، ويندسون فى الروث ، ويخرجون منه مرصعين بالنجوم » .

ولنتتبع جفروش قليلا فى أزقة باريس وهو يبحث عن عشائه : ها هى حديقة يتدلى منها التفاح (ولقد أودت بآدم تفاحة فلم لا تنجى أخرى جفروش من الموت جوعا ؟!) ، ودون

التفاح سياج يعبره جفروش ، فإذا به على مقربة من زارع الحديقة ، وزارعها شيخ فان . يسترق جفروش السمع إلى حواره مع زوجه العجوز ، فإذا بهما فى ضيق شديد ، وإذا بالمالك ينذرهما بالطرد ، وإذا بهذا الحديث يذهب بما يحس جفروش من ألم الجوع فيتفقد إلى جوار السياج مضجعاً يأوى إليه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلنا شبحين يتبع أحدهما الآخر : أولهما شبح شيخ وقور ومن خلفه شبح فتى خليع يتربص به ، وما هى إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ؛ وهمّ جفروش ليرى ماحدث ، فإذا بالشيخ قد أرغم أنف الفتى ؛ وانتظر جفروش ليرى بقية المغامرة ، فإذا بالشيخ يُنهض الفتى آخذا بتلابيبه كما يفعل قط بفأر ، وإذا به يعظه وعظا طويلا يفهم منه جفروش أنه لا تستقيم الحياة بغير جد وإلا انتهت بغياهب السجون أو دماء المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة نقوده إلى اللص ويخلى سبيله .

لم يرق جفروش ما رأى ، وإذا به يتسلل فى الظلام خلف اللص حتى يأتيه واللص لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يده فى الجيب الذى به المحفظة ويعود بها حتى يقترب من موضع مضيفه الشيخ خلف السياج ، فيرمى بالمحفظة إلى الحديقة ويعدو ملء أرجله ، وقد نسى جوعه ونسى مخدعه ، ولكنه فرح مغتبط بتلك البطولة الساذجة ، لأن مزاجه مزاج فنان ، وما يعنيه من بعد ذلك شىء ، وما يريد أن يعرف عما ارتكب شيئاً من أحكام البشر . هل ما أتاه يعتبر خيراً أم شراً ؟ هذا ما لا يعنيه ، وما أظنه قد ساءل نفسه يوما سؤالا كهذا ، لأنه كما قلنا لا يعرف للشر أو الخير معنى ، ولا يأتى أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنما هى طبيعته تسوقه إلى ما يفعل وفى فعله هذا جمال لا شك فيه .

لقد يلتى فى الطرقات طفلين مشردين أصغر منه سناً وأضعف قوى ، فيبسط عليهما حمايته ، ويقودهما إلى حيث يجد لهما قليلا من الخبز ، أو يمهد لهما مضجعاً إلى ساق تمثال نابليون ، مستعيناً بما يسرق من أخشاب سياج حديقة النباتات ؛ حتى إذا أويا إلى مضجعيهما خف فى ظلام الليل ليساعد مجرماً على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ، ولكنه لا يعلم عن ذلك شيئاً ، ولو أنه علم لما تغير موقفه ، لأنه يأتى ما يأتى لجمال ما يفعل فى ذاته ، وما للخير أو الشر فى نفسه أى اعتبار .

ويعود طفلنا عند الصباح ليوقظ طفليه اللذين يعتبر نفسه قواماً عليهما ، ويعتزم أن يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تنشئتهما ، فيقتادهما معه وسط الطرقات ، ولكنه يفقدهما فى ازدحام يلقاه ، فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد

مقاطعها خلال الأزقة المظلمة .

كل تلك المغامرات قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى ؛ وأما اليوم الذى تجلت فيه ثروته الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

فى ذلك اليوم كان جفروش عائداً من إحدى ضواحى باريس وبيده غصن مكلل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب ، وإذا به من رجالها فيلقى الطفل غصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعداً بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ، ولكنه يلاحظ أن الطبنجة بغير زناد ؛ فليكن ، وليعد طفلنا وسط الجموع صاخباً مهللا ، وليتغن بالمرسييز مع المتغنين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم ! إن رجلى اليسرى ألماً شديداً ، ولقد قسا بى الروماتزم ، ولكننى مسرور أيها المواطنون ؛ وما على الأعيان إلا أن يستوثقوا من مواضع أقدامهم . من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ؛ ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ! ليت هنا زناداً . لقد أتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تغلى . آه ! لقد حان الحين لنقطف زبد القدر » .

وفيما هو سائر لا يلقى رجلا إلا حثه على السير إلى القتال ، وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عند ما نظر إلى سلاحه قائلا : « سأنطلق إلى المعركة وإن لم تنطلق منك رصاصة » .

وفيما هو كذلك إذا بجموع الطلبة الثائرين يمرون وعلى رأسهم زعيمهم « إنجولرا » Enjolras ، فينضم إليهم ، لأنه يعرف أنهم يعلمون إلى أين يسيرون . خف فى مقدمتهم ، وسلاحه الخرب بيده ، والأغانى لا تغادر شفتيه ، حتى وصلوا إلى حانة قرروا أن يتخذوا منها مقرهم ، وأن يقيموا أمامها حواجزهم ؛ ويأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز .

« ها هو يغدو ويروح خفيفاً مرحا . ها هو يصعد وينزل ، ويصيح ، ويزغى ويزبد ، حتى لكأنه خلق ليبث الشجاعة فى نفوس الجميع . عجباً ! أى باعث كان يحفزه ؟ وأى أجنحة كانت تطير به ؟ لقد كان باعثه ما عانى من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض به قلبه من فرح . لقد كنت تراه بغير انقطاع ، وكنت تسمع صوته فى كل لحظة . لقد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه فى كل مكان . كنت تراه بأعلى الحواجز يدفع المتسكعين ، ويحث المتكاسلين ، ويبعث النشاط فى المتعبين ، ويقلق المتأملين . يثير فى البعض النشوة ، وفى البعض الغضب ، وفى الآخرين الجهاد ، كما يدعو الجميع إلى النشاط . يخز طالباً ، ويعض عاملا . يقف ويسير ، ويستأنف السير متنقلا بين هؤلاء وأولئك ، يتمتم حيناً ، ويطن

أخرى » . ثم لا يقف جهده عند ذلك الحد ، بل يحاول أن يشترك فى المعركة ، فيرمى بسلاحه الحرب إلى الأرض ، ويأخذ ببندقية أثقل منه وزناً ، ويقدح الزناد ، فإذا بالبندقية فارغة ، وإذا بوجهه يتقطب امتعاضاً . ولعل هيجو لم يشأ أن يجعل منه سفاكا للدماء . ويرسله أحد الثوار بخطاب إلى فتاة ، فيطيع ، وينتهزها فرصة سانحة ليحطم بالحجارة ما يلقى من مصابيح ، وهو فى أثناء ذلك يغنى بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويعثر فى أثناء سيره بعربة يد يدفعها حمال ثمل ، فيأخذها منه ، ويسوقها أمامه فوق الحجارة فى ضجة تسترعى انتباه رجال البوليس ، فيسرعون إليه فيدفعها فى أرجلهم ، ويولى الأدبار كدخان تبدد ، ويعود إلى الحواجز ليحضر المعركة الحاسمة ، فإذا بالإخوان الثوار قد نفدت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخذ لساعته سلة يعبر بها الحواجز إلى حيث تتمدد جثث الموتى من الجند يفرغ جعبهم ، وما يزال ينسل من جثة إلى جثة ، والجند يصوبون إليه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مختفياً وراء جثة ، محتمياً بمصراع باب ، وكلما رفت رصاصة بجوار أذنه غايظ من أطلقها بحك إصبعه على أنفه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن الغناء ، حتى حم القضاء وأصابته رصاصة أقعدته والدم يسيل فوق وجهه ، فرفع ذراعيه إلى السماء ، وأدار وجهه إلى الجهة التى أتته منها الرصاصة وهو يغنى : « لقد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة ڤولتير . لقد سقطت بالقناة وتلك غلطة . . . » .

ولم يتم أغنيته ، إذ أتته رصاصة أخرى خر منها صريعاً وجهه على الأرض ولا حراك به .

وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحياة .

هذا هو جفروش كما تعرفه باريس فى أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ، ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء فى النفس ، وحرارة فى القلب ، وإمعان فى الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هذا هو جفروش كما يعرفه كل الفرنسيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خلدت اللغة هذه الشخصية الأصيلة الجذابة ، بأن أدخلتها بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة ، وهم يدعون الرجل « جفروش C'est un gavroche » ، كما يصفونه بتلك الروح التى صورنا « il a l'esprit gavroche » . وليس بعد ذلك دليل على خلود هذا الأنموذج البشرى بين ما خلق الأدب من نماذج .

ولكم يذكرنى جفروش هـذا بهيجو خالقه وقد ظل طفلا حتى آخر عهده بالحياة ، ولكم يذكرنى برينان الذى قال عنه أحد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ، ويحس كامرأة ، ويتصرف كطفل » . وهكذا شأن كل من تميز بين البشر ، فما يجوز أن نخضعهم لأحكامنا الوضيعة المتواضعة . ولحياتهم منطق لا يفهمه إلا من يضارعهم . وأما نحن فلنخضع لما تملى علينا الجماعات التى ننتمى إليها ؛ وإن كان لنا أن نحذر أحداً فليكن ذلك الحذر ممن يتشدقون بكلمات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحتوى معانى تلك الألفاظ الجميلة .

فيجــارو

Figaro

لست أدرى إلى أى حد يصح ذلك الرأى السائد عند المفكرين ، من اعتبار السخرية قفزات من الذكاء لا تمتّ إلى القلب بصلة ، ومنها ما يقطر دما ؛ ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك ! ولكم من مرة اهتزت النفس انفعالاً من حركة لـ « تشبلن » أو قهقهة منه ! ومن عجب أن يُضحك المرء ويُحزن ! ومن عجب أن يفترّ الفم وينقبض القلب ! وفيجارو كتشبلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضاً من الأسى يكاد يلهب منا القلوب .

فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، وقد خلقه مؤلفه فى زمن كان الفلاسفة قد أيقظوا فى الشعب ذلك الإحساس بالبؤس الذى حرمهم من كل ظلم ، وأخذت الثورة تضطرم فى قلوب الرجال ، وكان لا بد لها من متنفس . وكيف السبيل والبستيل لهم بالمرصاد ، والفرنسى رجل حامى الطبع لا يطيق صبراً على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يمسك لسانه عن الحكم على ما يرى من فساد ، ويرجو من خير ؛ وإذا فلتكن السخرية سبيله ينفث فيها مكنون نفسه ، فينال ما يريد دون أن يتعرض لهلاك محقق .

سخرية فيجارو إذاً ليست دليل جفاف فى نفسه ، وإنما هى انتقام مر من نظام بلغ من فساده أن كان الشعب يسعى إلى هدمه دون أن يفكر فيما يريد أن يقيم على أنقاضه من نظام ؛ وعندما يلجم الظلم ألسنة الرجال لا يجد ذوو الإباء منهم سبيلاً غير تلك السخرية التى لا نعرف سلاحاً أمضى منها بين أيدى الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال فى إبائها . ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول المخبول .

فيجارو — سيدى ! دعنا نحصى الفضائل التى تُطلَب من خادم ولننظر بعد ذلك . ألا يعرف سيدى أسياداً كثيرين جديرين بأن يكونوا خدما .

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسياد . وما ولد فيجارو خادماً ، ولقد تقلبت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه جل بلاس

« Gil Blas »[1] من قبل ، ولـكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفعهم حمق البشر فوق ما كان يجب أن يبقيهم اتضاع نفوسهم .

ولد فيجارو ابناً طبيعياً لطبيب وخادمته ، وتخلى عنه آباؤه وسط أمواج الحياة ، فزاول الطفل كل المهن احتيالا على الحياة الغشوم ، وبخاصة مهنة « الحلاقة » ؛ وبلغ من نجاحه فى تلك المهنة أن أصبح كل حلاقى الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم . ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) ، وقد سئم مهنته ، ومنذ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه فى الحياة وقص علينا نبأه فى روايات مسرحية ثلاث : « حلاق أشبيلية » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » . وقد مثلت الروايات الثلاث تباعاً فى سنى ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ . ومرت السنون وفيجارو يجالد الحياة وهو هو ذلك المرح الصاخب الذى يلتمس فى كل ألم جانبه المضحك . وانصرمت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف فى نفسه غير ابتسامة هازئة . وأما الغد فما كان يعنى بأمره ، وما له من سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهاماً لمن يمسه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحاً ظاهرة .

ها هو « حلاق أشبيلية » يقفز إلى المسرح وكأنما يعلو منبراً ؛ وها نحن نراه أول ما يبدو فى أحد شوارع أشبيلية ، وقد علق فى ظهره قيثارته بشريط عريض من الحرير ؛ وها هو يغنى فى مرح وبيده قلم وورقة ، وها هو يوهم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخمر والـكسل اللذين يقتسمان قلبه ؛ وها هو يعثر مصادفة بالـكونت الماڤيڤا أحد زبائنه القدماء فيقص عليه ما كان له من أحداث كصبى بصيدلية ، وكممثل مسرحى ، فيسأله الـكونت : لماذا ترك مدريد ؟

فيجارو : هو طالعى السعيد — يا مولاى — قادنى إلى حيث ألقاك . لقد رأيت فى مدريد جمهورية الأدباء ، وقد أصبح بعضهم لبعض ذئباً ضارياً فسئمت الـكتابة ، ومللت نفسى وضقت ذرعاً بالآخرين ، وقد ثقلت ديونى وخف جيبى ، فاستقر رأيى على أن دخل « الموسى » أجدى على من مجد باطل أصيبه بقلمى . وتركت مدريد لأجوب متأملاً قشتالة والمانش والأندلس ، يرحب بى قوم ويزج بى فى السجن آخرون ، ونفسى أينما حللت تحلق فوق أحداث الحياة ، يلومنى قوم ويمتدحنى قوم ، أنعم بما أصيب من خير ، وأصبر على ما ينزل بى من محن ، ساخراً من الحمقى مناهضاً الأشرار ، أضحك من بؤسى وأقص ذقن كل

---

(١) بطل رواية من تاليف Le Sage لساج وصل إلى السلطة بمرونته بل وضعته بادئا من العدم .

من ألق ، حتى استقر رأيى على المسير إلى أشبيلية ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاى فيما يسره أن يأمرنى به .

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاى . ترانى أسارع إلى الضحك من كل شيء خشية أن تساقط منى الدموع .

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج « بروزين » ؛ وكانت روزين بنتاً جميلة تبناها شيخ فان ؛ وكان الشيخ يغار عليها كما يغار من ملابسه ؛ وفيجارو «حلاق صحة» أشبيلية ، فالسبيل أمامه ممهدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت ، وفيجارو واسع الحيلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المأذون ويعقد الزواج ؛ وقد أصبح الكل ألعوبة فى يده يسخر منهم ويضحك الحاضرين ما اتسعت أشداقهم لضحك ، وهو فى كل ذلك كنسمات الريح تحس بها ولكن لا تستطيع لها لمساً . وإنه لأهون على من يريد أن يمسك بنغمة من قيثارة فيجارو من أن يمسك بالرجل وما لشخصه من وجود محس أكثر مما لأغانيه التى تشيع فى الفضاء ، تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة — تحسبه بالداخل بينما هو فى الخارج . أليس هو فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ! أليس هو فيجارو الذى يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغلاط الآخرين ؟ وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ، وهل يحد من حيلتنا غير الهموم التى لا نعرف كيف نسخر منها ؟ !

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليه من يد ، فأخذه خادماً له . ويعود بطلنا إلى الظهور على المسرح فى « زواج فيجارو » ، وقد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الوقاحة فى ذلك الحين قد بلغت بالأشراف مبلغاً ما كان فيجارو ليستطيع معه صبراً . كانوا يدّعون لأنفسهم حق قضاء أول ليلة مع عرائس أتباعهم ، ومن يريدون من خدمهم ؛ وكانت سوزان من الجمال بحيث أغرت الكونت باستعمال هذا الحق . وجن جنون فيجارو ، فلاقى وقاحة الكونت بوقاحة ، وثار كل ما فى نفسه من حرارة ، وأحس بالطعنة توجه إلى صميم قلبه وقد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فماله لا يستخدم السخرية التى لم تخنه يوماً ما ؟

وتحركت بنفس زوجة الكونت تلك القوة الهائلة ، قوة الغيرة التى تكسب النساء جرأة ما لها من دافع ؛ واتفقت الزوجة مع خادمتها على أن تتنكرا ، كل فى زى الأخرى ، وأن تذهب الزوجة فى زى سوزان للقاء الكونت فى المكان والزمن المتفق عليهما ؛ وفيجارو فى أثناء ذلك لا ينى عن السخرية والضحك وتدبير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الـكونت — لماذا يلوح على كل ما تفعل شيء من الالتواء ؟

فيجارو — لأن من يلتمس عيوباً عند الغير يستطيع دائماً أن يجد ما يريد .

الـكونت — وسمعتك التي لا تساوي شيئاً ؟

فيجارو — ولـكنى أساوى أكثر من سمعتى ؟ وهل يعرف مولاى كثيرين من الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعى الآن ؟

الـكونت — كثيراً مارأيتك تسير نحو النجاح فى الحياة ، ولـكنك لا تسير أبداً فى طريق مستقيم !

فيجارو — وما ذنبى ، والطرق دائماً مكتظة ؟ ! هذا يعدو ، وذاك يدفع ، يسقط من يسقط ويصل من يصل ، إننى لفى غنى عن هذا الزحام .

الـكونت — بشىء من الذكاء والخلق تستطيع أن « تترقى فى الدواوين » .

فيجارو — شىء من الذكاء لأترقى ؟ لا شك يا مولاى أنك تسخر بكلامك هذا من ذكائى . إنما الترقى بالغباوة والزحف .

وهكذا يظل فيجارو يحاور الـكونت ويداوره ، كما يحاور ويداور كل من يلقى حتى يكون يوم زواجه ، ويخيل إليه وقتاً ما أن عروسه قد ذهبت للقاء الـكونت ، فتختفى الابتسامة من شفتيه ويتقطب جبينه ، وقلوب الحاضرين تحوطه جميعاً بحرارتها وعطفها .

ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظلام الليل ؛ وها هو فيجارو وحيداً مجهداً ، يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة بعد أن نفد صبره ، وأصابت السهام شغاف قلبه ؛ هاهو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التى يحب .

« لا . لا ياسيدى الـكونت ، ألأنك سيد كبير تحسب أنك عبقرية فذة ؟ المولد والثراء والوجاهة الاجتماعية — كل هـذا يغرى بالـكبرياء . ولـكن ماذا فعلت لتنال كل تلك الخيرات ؟ لقد قاسيتَ آلام الولادة . أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فياويل القضاء فيما فعل بى ! ولدتُ لأب لا أعرفه ، واختطفنى لصوص نشأت على ماألفوا من خلق حتى سئمت الحياة معهم ، وحاولت أن أجد لى مهنة شريفة ، وطرقت كل باب وكل الأبواب موصدة أمامى . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فانتقموا لعجزهم بالإسـاءة إلى من وهب ذلك الذكاء . . . . وزج بى فى السجن حتى ملوا إطعام رجل مغمور مثلى ، فألقوا بى إلى الشارع ، وكاد اليأس يأتى على . ثم وجدت مركزاً خالياً ، كان المطلوب كاتب حسابات فتقدمت إليه ، ولـكنهم أعطوه لرقاص . فلم يبق لى إلا أن أسرق ، ولـكن كيف السبيل وكل من حولى يسرق ما استطاع ؟ ولـكنهم يطلبون إلى أن أكون أميناً ، وإذاً فليس لى أن

أموت جوعاً . . . . وأخيراً أخذت حقيبتي ومواسيَّ ، وخلّفتُ الدخان ورائي يتغذى به الحمق ، وأما الخجل فقد طرحته في منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من يمشي على قدميه ، وسرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيراً أن أتخلص من هموم الحياة المادية .

لقد دفعت إلى الحياة بغير علم مني ، وسأغادرها دون أن أريد ، ولكني نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرحي من أزهار » .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يلبث أن ينجلي ، فإذا زوجة الكونت هي التي ذهبت للقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مغتبط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتصفو النفوس ، ويظل فيجارو في خدمة الكونت هو وسوزان ، وتتقدم بفيجارو السن ، ويخلص لعائلة سيده في « الأم الجانية » وينجي تلك العائلة من العار ؟ ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب الأبي الذي ثار على ظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف المجرمين ؛ لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذي يجالد الألم ويصمد لكل بؤس ؛ لم يعد ندّ مونتسكيو وروسو وديدرو وفولتير وغيرهم ، ممن قوضوا بالسخرية اللاذعة نظاماً كان لا بد من زواله ، ليستطيع من وهبهم الله حرارة في قلوبهم ، وذكاءً في رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا في جو حر أبي لا تستقيم الحياة بدونه .

ولهذا نقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه في ذهن القارئ مثلاً حياً لمبلغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التي حكم القضاء أن يعيش فيها .

فيجارو أنموذج بشري خالد لأبناء الشعب الذين لا يطامن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح ؛ فإن لم يكن العنف فلتكن السخرية .

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيوده ، وفتحت أمامهم آفاقا من الحرية واحترام الإنسان لأخيه الإنسان ، لا نزال إلى اليوم نلمح في جوانبها أجمل الأحلام .

لقد فعل فيجارو في الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأيدي أما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس .

فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التي لا تُدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذي لا يريد أن يستجدي أحداً ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذي يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أنقاضه نظاماً أصلح .

دون كيشوت

Don Quichote

يحكى أنه كان ببلاد اليونان عملاق جبار اسمه « أنتيــه » لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له فى نزال ، حتى ضجت الإنسانية من بطشه ، وحتى ضرع البطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدله على وسيلة يقهر بها ذلك المارد المخيف ؛ واستجاب زيس لضراعة ولده ، فكشف له عن مصدر قوة « أنتيه » ؛ قال : « أى ولدى هرقل ! إن أنتيه ابن لجيه (الأرض) ، فما دامت قدماه مستوثقتين منها ، فلن يقهره أحد ، لأنها تمده بقوتها ؛ فما عليك إن أردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه » . ورفع هرقل « أنتيه » بيد ، وطاح برأسه باليد الأخرى ، فتخلصت الإنسانية من شروره . وهكذا نحن فى الحياة ، لابد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحاً وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم ، وأن يلابس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم ، فمثلهم لنكد الطالع كمثل أنتيه وقد رفع إلى الفضاء ، ما تلبث السيوف أن تذهب برؤوسهم .

عن مغزى تلك الأسطورة القاسية تمخضت حياة سرفنتيس الكاتب الأسبانى الذائع الصيت ، خالق دون كيشوت (١٥٤٦ — ١٦١٦) . فقد امتلأ خياله منذ طفولته ، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ فى قصص الفروسية ، حتى لم تعد أحلامه إلا سحراً ومعارك ، وتحدياً وقتالا ، وجروحاً وصيحات غرام وعذاب ، وما إلى ذلك من خوارق الأمور ، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة ، وحتى لم يعد تاريخ العالم فى نظره سوى سلسلة من تلك المغامرات . ولكم قعقعت أسلحة « رولان » بمفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع « بربروس» الرعب على صفحات المياه ! فما له لايغامر كما غامروا ، وماله لايلتمس المجد بحد السيف كما التمسه من قبلُ أبطال ؟

وشاءت الأقدار أن يفشل سرفنتيس فى كل مراحل حياته : حارب فى البر والبحر من أجل أسبانيا ومن أجل المسيحية . حارب بإيطاليا وتونس والبرتغال . وفى سنة ١٥٧١ شهد تلك المعركة الدامية التى شنها المسيحيون ضد الأتراك فى « ليبانت » بمضيق كورنثا بأرض اليونان ، وخرج من القتال وبصدره طعنتان داميتان ، وذراعه اليسرى مشدودة إلى عنقه ؛ وأقعدته

الحمى سبعة أشهر بصقليا ، حتى إذا أبل من مرضه ، واستقل سفينة ليعود إلى وطنه ، سقط بين أيدى قراصنة البحر يقودونه إلى الجزائر حيث يظل أسيراً أربعة أعوام . وأخيراً ساقت إليه الأقدار من بنى وطنه من افتداه بثمن غال . وعاد إلى أسبانيا ، ولكن البؤس لم يفارقه . فكم من محاكمة ! وكم من أيام قضاها بالسجن لذنب ولغير ذنب ! وحتى مجد القلم لم يستطع أن يناله ، فرواياته التمثيلية لم تصب ما أمل من نجاح ، وشعره الغنائى لم يلق آذاناً مصغية .

لقد كان من حق سرفنتيس أن يتنكر للحياة ، وأن يعود من أحلام صباه ليستوثق من الأرض بقدم ، وقد ألقت محن الأيام فى نفسه بذور الشك ، فاستحالت آلامه سخرية من آماله التى طوحت به فى كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومَن منا لا يحس فى نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهى أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ، ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ، ونرفق بها ، كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا .

دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعل فى النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التى يقوم عليها صبانا كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها عن أن يخمد . ولقد تتقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لابد مخلفة رماداً مقدساً ، ولابد للألحان من رجع فى النفس تحن إليه كلما عادت بها الذكرى من ثنايا الماضى الجميل .

وهل أدل على نبل أحلام الشباب وسحر جمالها من أن تتحطم فى نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرفيقة الحزينة تأتى بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يبغى المجد بحد السيف أو بسنان القلم ، فخانته الأقدار ، وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقاً مضحكا ، فاتخذ من دون كيشوت رمزاً لشبابه ، وقص ما كان له من مغامرات جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على ألسنة الإنسانية أنَّى ذهبت : يقرأه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، ويقرأه الرجال فتفتر شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا العبث الظاهر من مآس ؛ وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوَّال الذى لن يفرغ البشر من فهمه وتخريج أفعاله وأقواله كل مخرج . وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزاً لكل معنى : فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خبله أنه موكل بآثام البشر يحاول لها إصلاحاً ، فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب فى غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد

لايزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضرورى أن ننجح لنجاهد فى سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما سرفنتيس فيكفيه مجداً ألا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حصاناً هزيلا محطما إلا صاح : آه ! روسنانتِ . وروسنانتِ حصان دون كيشوت الذى رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياد الفرسان عندما انعقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح مابها من شرور .

وذلك أن دون كيشوت لم يكن فى بادئ حياته ذلك الفارس الجوال الذى خلّفه سرفنتيس فى عقولنا . لقد نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا . نشأ فلاحاً متواضعاً إلى أن حفزته قراءة قصص الفروسية إلى أن يحيى عهد هؤلاء الأبطال . ولقد كانت للفروسية إذ ذاك مواضعاتها ، فلابد للفارس من أسلحة ، ولابد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمعا له طلب إلى أحد الفرسان القدماء أن يقيمه فارساً فى حفل سنقص مراحله عما قريب . والفارس لايحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه إلى البطولة خيراً من فتاة يجعلها مستقر حماسته ومعبد أفكاره ؛ فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هيّن : بحث دون كيشوت فى زوايا منزله المتواضع ، فعثر لحسن الطالع على أسلحة قديمة بمخزن غلاله ، فاستلها منه ، وأصلح مابها من عيوب ، وأزال ما علاها من صدأ . وأما الجواد فأمره أهون ؛ وقد بلغت حكمة هـذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيراً ما تقف عند مسمياتها ، وإذاً فليعط حصانه الهزيل اسماً جميلاً نبيلا ، فإذا به « روسنانتِ » الجواد الكريم ، وأى جواد حمل اسماً أجمل من هذا : روسنانتِ ؟ وهب أن الاسم لا يلاق المسمى ، فما على دون كيشوت من ذلك ! وأغلب قيم الحياة مواضعات لانفهم من حقائقها شيئاً ! وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل فى المحتد وسحر فى الجمال فالأمر عنده لايعدو مجرد إيمان من يحب بما تخيل إليه نفسه العطوف من قيم بمحبوبته ، وإذاً فليتخذ دون كيشوت له فتاة ريفية ساذجة لم يرها فى حياته قط ، وليعطها اسماً من أسماء الأميرات ، وليشد بجمالها ونبلها أينما حل . لتكن فتاته « دولسينيه دى توبوزو » ، ولاح له أن فى هذا الاسم من جمال الجرس وندرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » .

ها هو دون كيشوت مسلحاً على ظهر روسنانتِ جواده الكريم ، وها هو يستأنف شوطه فى الحياة ، ولتكن أولى مغامراته حفل تنصيبه فارساً . سار فى يومه الأول حتى انتهى

إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ؛ فاتجه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشريف يخاطب شريفاً ؛ وكان صاحب الفندق من الخبث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارساً ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث مضى المسكين دون كيشوت ليله قائماً إلى جوار أسلحته التي عقدها في حزمة إلى حافة بئر هنالك . حتى إذا أتى الصباح أتاه صاحب الفندق ، وبيده « دفتر حساباته » ، وتظاهر بأن يقرأ فيه صيغة الفروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

خرج دون كيشوت من الفندق فارساً أصيلاً ، وبقلبه إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما في العالم من شرور ، ولم يكد يخطو عدة خطوات حتى رأى فلاحاً قد شد خادمه إلى جذع شجرة ، وأخذ يوجعه ضرباً لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، فخف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهداً ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم . ولكنه لم يكد يمتطي « روسنانت » ، ويواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أوهم به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

وياليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ؛ فلكم جرت عليه أحلامه شراً مستطيراً . لقد كان من واجبه — على الأقل في نظره هو — أن يدافع عن فتاته ، وأن يحمل كل من يلقى من فرسان على الإقرار بأنها أجمل وأنبل من تقل الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون في الوجود فتاة خيراً من فتاته ؟ وفعلا لم يلبث أن لقي جماعة من التجار في طريقه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرساناً جوالين مثله ، فاستوقفهم ، وتحداهم أن يدلوه على فتاة أجمل من « دولسينيه » . فقال أحدهم : « أيها الفارس الكريم ! لسنا نعرف دولسينيه فتاتك تلك ، أرنا إياها فإن وجدناها على ما تزعم من جمال حكمنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأي فضل يكون لكم ، وكل ما ستفعلونه عندئذ سيكون الاعتراف بالحقيقة الراهنة ؟ إنما المهم هو أن تشهدوا بهذه الحقيقة دون رؤيتها وأن تعلنوا تلك الحقيقة ، وأن تقسموا بإيمانكم بها ، وأن تدافعوا عنها ضد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ، ولكنه لم يستطع حمل هؤلاء الرجال على ما أراد ؛ فهجم عليهم « بروسنانت » ، وزلت قدم الجواد فسقط الفارس على الأرض ، وأشبعه أحد الخدم ضرباً ، وبقي دون كيشوت على الأرض متعثراً بأسلحته لايقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحد

الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وقاده فى حالة يرثى لهـا إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياماً يداوى جراحه .

رأته مربيته وبنت أخته وأصدقاؤه القسيس والحلاق على هذه الحالة ، فقرروا لساعتهم أنه لابد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبة دون كيشوت ، لأنها هى التى أضلت عقله وأصابته بهذا المرض العضال ، وهم يظنون أنهم بعملهم هذا سيشفون دون كيشوت من هذا الداء شفاءً لا نكسة بعده ؛ ولـكن أنَّى لهم بأن يلزموا هذا الفارس الجامح حياة مغلقة الآفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لابد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ؛ ولـكنه سيحتاط للأمر هذه المرة فيأخذ معه مالاً وتابعاً يسير وراءه أينما يذهب . واختار دون كيشوت تابعاً له فلاحاً من جيرانه لايقل عن البطل شهرة . ومن يجهل « سانكو بانشا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقته له ولأنه كان رجلاً طُلَعة بطبعه ، ثم لأن دون كيشوت وعده بأن يعطيه جزيرة ليحكمها بمجرد أن يكوّن البطل الأمبراطورية التى يأمل أن يخضعها لسلطانه .

واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفه سانكو ، وبين الرجلين من التناقض ما بين الجنون والعقل فى عرفنا . فعند ما يغرق دون كيشوت فى أحلامه ، نرى سانكو يملأ بطنه أو يرطب حلقه . وبينما يسهر دون كيشوت الليل الطويل يناجى دولسينيه ، نسمع سانكو يغط ما استطاع غطيطاً ؛ ولـكنه لايخلو الأمر ، إذا ما سقط دون كيشوت عن ظهر روسنانت وأشبع ضرباً ، من أن تصيب سانكو بعض لـكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائماً منتجة ، فـكثيراً ما كان يلحق به ، وربما تخلف عن سيده قليلا فسقط بين أيدى من لا يرحم له موجعة .

ولـكم كان بودى لو استطعت أن أقص على القارئ شيئاً من حوارهما ، ليستبين موضع الحـكمة من كلام هذا المجنون ، وموضع الجنون من كلام هذا العاقل ، أو العـكس ؛ ولـكن أنَّى لى بذلك ؟ وأى جدوى من سرد مآس تضحك منها الشفاه وفى القلوب أسى عميق ؟ ثم من منا لا يذكر طواحين الهواء التى حسبها دون كيشوت عماليق فانقض عليها بجواده فألقته أذرعها إلى الأرض محطم الأضـلاع . ألا يرى معى القارئ كيف بلغ من بؤس هذه النفس الخيرة أن أخذت تضرب فى غير مضرب ؟ وكم يكون أسف القارئ لو أخبرته أنه اتفق يوماً لدون كيشوت أن قاتل دون مسجونين حتى أطلق أيديهم من الأغلال ، ثم طلب إليهم أن يذهبوا — اعترافا بفضله — إلى « دولسينيه » ليقدموا إليها « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضرباً مبرحاً .

حدث كل هذا لدون كيشوت وأمرٌ منه ؛ فكم عجز عن رفع ظلم لفساد نفوس البشر وكم لاقى عن شهامته أسوأ الجزاء ، بل كم أضل القضاء ضرباته فضاعت عبثا — حدث كل هذا مما لا أريد أن أحزن به القارئ ؟ ولكنى لا أملك أن أمسك القلم عن ذكر ما كان من نزول دون كيشوت وسانكو بأحد الأشراف الحقيقيين ، وكيف أن هـذا الشريف أعطى سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكمها موهما إياه أنها الجزيرة التى وعده بها سيده ؛ وبودى لو أمعن القارئ فى النصائح الثمينة التى زود بهـا دون كيشوت إذ ذاك سانكو ، فقد أوصاه قائلا :

« أى بنى ! أوصيك بتقوى الله ، فتقواه رأس الحكمة ، وما دمت حكما يصحبك التوفيق فى كل أمر . ثم اذكر دائما نشأتك الأولى لكى تفهم نفسك على حقيقتها ، وهذا الفهم هو أشق وأنبل ما يجب أن تتطلع إليه . احذر نزوات نفسك ، ولتحرك فيك دموع الضعفاء رحمة لا تقل عما تحرك شكوى الأقوياء من عدل . حاول أن تعثر على الحقيقة فى ثنايا ما يعدك به الأغنياء من وعود وما يقدمون لك من عطايا ، قدر حرصك على التماسها فى زفرات الفقراء وإلحاحهم الممل .

« اذكر دائماً أن طبيعة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنما مردُّه هذا الفساد الأصيل ، فعندئذ لن تقسو على مجرم » . .

ياله من جنون ذلك العقل الذى يفوه بتلك الحكم !

وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له — وهو الرجل الواقعى العاقل — أن يزج بنفسه فيما لم تهيئه له الأقدار ؟ لطالما طلب إلى دون كيشوت أن يحد من طموحه ، وأن يتخلى عن أوهامه ؛ فكيف له الآن أن يقيم نفسه — وهو الفلاح البسيط — حاكما على العباد ؟ أليس من الخير أن يقنع بما خلق له . أليس من العقل أن يتخلى عن جزيرته الموهومة ليعود إلى جوار سيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس هو العقل نفسه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطبق ؟ وبالفعل تخلى سانكو عن جزيرته الموهومة ليعود إلى مصاحبة دون كيشوت . ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة الجنون كل هذا الحرص !

واستمر دون كيشوت فى مغامراته ، وكل فشل يغريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت لا ينال منه شىء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمعركة دارت بينه وبين فارس آخر ، وعز عليه أن ينهزم كرجل ضد رجل ، ونالت الأحزان من نفسه فخر مريضاً ، ولازمته الحمى عاما

كاملا ، خرج منه وقد عاد إليه عقله . وبودنا لو امتدت به الحياة ليقص علينا ما هداه إليه جنونه من دروس . ولكن الموت لم يلبث أن واتاه ، وكأنه قد ناء بحمل عقله ، أو كأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسي : « نحن أمواج إن تسترح تمت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح تعزى بنبل غايته عن كل المآسي ، وكأني به لم يستطع عزاء عن تلك الأحلام الجميلة التي تهدمت بتهدمها حياته . مات فتلقى الموت كما يتلقى محب ابتسام حبيبته أو شهيدٌ وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال لخير البشر قتال مع طواحين هواء . ماتَ بعد أن فشلت جهوده ، ولم تعد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة راتبة كالتي يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا المجنون . ولعله « كالسست » موليير و « مغفل » دوستيوفسكي من أولئك الذين لا نضحك منهم ولا نرميهم بالجنون إلا لقصور في عقولنا وفساد في طبائعنا . وهذا العالم الجميل الذي صبت إليه تلك النفوس النادرة ، لعله العالم الحقيقي ، العالم الذي يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع قلوبهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت في كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقي في عقول جميع الأجيال التي عبرت الحياة ، أو التي ستعبرها ، رمزاً لما في نفوس الشباب الخيرة من التماس الخير والفناء في سبيله ، رمزاً لما قد تقود حماسة القلوب إليه ، مما يسميه الحمقى جنوناً . مات وظلت حياته درساً خالداً لما في الجهاد في سبيل المثل الأعلى من نبل يُكتفى به عن كل النتائج .

فوست

Faust

(١)

« تسألوننى : أى فكرة أردت أن أُلبسها فوست ؛ وكيف لى أن أعرفها ثم أنّى لى بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء . هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن فى فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى ما زال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما ينير الكثير من وقائع حياته ؛ ولكن هذه ليست الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، بل ولا فى أى جزء من أجزائها تأخذه على انفراد . أى نجاح كنت أصيب لو أننى حاولت أن تنتظم تلك الحياةَ الفنية النزعات المتنوعة الأحداث فكرةٌ واحدة كما يجتمع العقد إلى نظامه ! ولكنه ليس لى كشاعر أن أجسم فكرة مجردة . لقد أودعت نفسى كل ما تلقيت من إحساسات ، إحساسات عديدة حية متنوعة ، وآتانى بها خيال دائم اليقظة ، فتناولتها كشاعر بالصياغة والصقل ؛ ثم أسلمتها القارىء صوراً نابضة الألوان أرجو أن تثير فيه مثل ما أحسست » .

هكذا يحدث جيته صديقه إيكرمان عن فوست ؛ وعلى ضوء هذا الحديث نستطيع أن ننفذ بعض الشىء إلى أسرار تلك الشخصية العجيبة التى رافقت جيته خمسين عاماً من حياته ، يصور بعض نواحيها حيناً ، ثم يتركها ليعاودها بعد زمن ، وهو فى كل يوم يفيد جديداً يضفيه على رجله الذى اتخذ منه رمزاً لمأساة النفس البشرية ؛ تجالد الحياة لتنتزع منها سرها الكامن ، فتطمئن إلى يقين وتفلت من حيرة أبدية .

على أن جيته لم يخلق فوست من العدم ، فقد ألفت القرون الوسطى تلك الشخصية : شخصية الرجل يهب إبليس روحه على أن يكشف له عما يجهل من سر وأن يمكنه مما تصبو إليه نفسه من لذة ، فينال من الحياة ما يعز على عامة الناس ؛ ولكم آمن رجال ذلك العهد بالسحرة وعصيهم وحيلهم مما تغص به آدابهم ؛ بل لقد عاش بالفعل فى القرن السادس عشر « دكتور » اسمه « فوست » اجتمعت إليه كل خصائص السحرة التى تحدثنا عنها آداب القرون الوسطى . ونحن بعدُ لا ندرى أكان هذا الرجل نصاباً أم كان ممن يصدرون عن

فيض إلهى ؛ ولكنا نعلم أنه أفنى عمره ضارباً فى بقاع الأرض يحتال على الحياة بخداع سذج العقول ؛ ولكم سما صيته بين طلبة الجامعات بألمانيا ، ولم لا ؟ ألم يكن مثلهم ضليعاً فى الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ؟ ثم ألم يبلغ من مهارته يوماً أن بعث من قبرها أمام أبصارهم الذاهلة تلك الحسناء الفاتنة « هيلانه » التى جعل هوميروس من سحر جمالها سبباً لحرب ضروس بين الشرق والغرب ؟ لقد كان دكتورنا بلا ريب على صلة وثيقة بإبليس — بهذا ذهبت الأسطورة وهو حى ، فما بالك بعد موته ! . تناولها خيال الشعب بالتنمية حتى كان مسيحى متدين لعله قسيس ، اتخذ من تلك الحياة العجيبة موضعاً للعبرة وعرضها فى كتاب — (كتاب الشعب) — يصور فيه فوست رجلا حبته الطبيعة بمواهب فذة ، ولم تستطع المسيحية التى نشأ بين أحضانها أن تمسكه عن الغرور ، فهوى فى الخطيئة . تطاولت نفسه إلى معرفة كل سر ، والتمتع بكل لذة ؛ ولم يجد سبيلاً إلى تحقيق هذا الحلم غير الاتفاق مع الشيطان على أن يهبه روحه عند الموت ، وعلى الشيطان أن يرسل إليه أحد رجاله (إبليس) يقوده خلال ما يبغى من لذة محرمة أو معرفة منعت عنا — نعم إن الدكتور لم يفقد إيمانه ، وكانت نفسه لا تزال تحن إلى رحمة الله . ولكم مناه ذلك الإيمان أن يخادع يوماً إبليس فيفلت من قبضته ، وقد فاز منه بما يريد . ولكنه لم يستطع ، فقد نصب له إبليس من أشراك الرذيلة ما تعثرت به خطاه وعز معه الخلاص .

وتناول الكتاب تلك الحياة دون أن يغير أحد من فكرتها كما صاغها « كتاب الشعب » ، ومثلت تلك الحياة على مسارح العرائس ، حيث كان المثلون شخوصاً من الخشب على نحو ما نرى فى « الأرجوز » ، حتى جاء الكاتب الإنجليزى الممتاز « Marlowe مارلو » معاصر شكسبير ونده الفذ ، فجعل من فوست ثائراً على ربه ، ثائراً على قضائه ، ثائراً يكسب عطف من يستمع إليه ، وحسب الناس أن مارلو قد خلع على فوست وجوداً لن يفلت منه أبد الدهر . وما علموا أن جيته سيتناول هذا الشبح فينفخ فيه روحاً جديدة ، روحاً تجعل من الشبح رمزاً لكل عبقرى يضيق بما فى بطون الكتب من معرفة زائفة فتصبو نفسه إلى الحياة ، وإلى المعرفة المباشرة ، يستقيها من قلوب البشر ، أو من حفيف الأشجار ؛ وإن يكن فى نزعته هذه ما يباعد بينه وبين البشر ، فتثقله وحدة النفس ، ويقعد به ضعفنا البشرى عما يريد فيتعاقد مع الشيطان كما تعاقد أسلافه . ولكنه اليوم لم يعد كما تصوره خيال الشعب : ذلك الرجل الذى يهوى مع إبليس إلى نار جهنم ، فقد جعل منه « لسنج » رمزاً للمعرفة الكاملة ؛ وقد ارتفع به جيته إلى سمو الرجل الممتاز الذى يسعى بكل قواه وراء المعرفة والحياة ، وقد

اتخذ منه شاعرنا مستقراً تجتمع إليه مسرات البشر وأحزانهم .

وفى الحق أن فوست ليس نفساً مبتذلة ، وإلا لما كان موضع نزاع بين إبليس والله (تعالى عن ذلك) . وهل يقتتل أحد على توافه الناس أو الأشياء ؟ وفطن إبليس إلى أن نفس فوست بها من قوة الحياة ما يدفعها إلى التماس كل سر والتمتع بكل لذة ، فأحس فيه فريسة لشره ، وود لو فاز به ؛ ولكن كيف السبيل والله مستقر ضمير فوست ؟ وهل النفوس الخيرة مهما أسفت إلا ملائكة هوت ، فما تزال تذكر السماء . ولكم تردت نفوس فى الخطايا ثم أنار لها الندم سبيل الخلاص ! اللهم إن هذا حق آمن به فوست واطمأن إليه ، فتعاقد مع إبليس بمداد من دمه على أن يهبه روحه يذهب بها أينما شاء ، إن رضيت نفسه الرضاء كله بما يمكنه منه إبليس من لذات .

ها هو فوست فى غرفة درسه يحاور نفسه الثائرة — أو ما يسميه الناس « دكتوراً » ؟ أو ليس يعلم أكثر مما يعلم الغير ؟ ولكنه قد انتهى إلى حدود المعرفة ؛ ونظر فوجد معرفته جوفاء لا تورث يقيناً ولا تجعله خيراً مما كان . ومتى كانت المعرفة متاعاً يسلمه شخص إلى شخص حتى نستطيع أن نلتمسها فى بطون الكتب ؟ وكيف لروح قوية كروح فوست أن تفنى بين جدران حجرة ضيقة وهى أوسع من أن يحتويها عالم الأرض على رحبته ؟ وكيف لحواسه أن تهدأ وقد خلقت حادة قوية لا يشبعها غير الإحساس المباشر يرسله خلالها ندى الصباح وبريق نجوم الليل ؟ وهبه أصاب معرفة ما ، أليس فى ملابساتها ما يذهب بما لها من سلطان مطلق ؟ وهبه خطا نحو ما نألف من سعادة خطوة ، أليس من خلف خطوته هذه هوة سحيقة يتردى فيها فيبتلع الزمن ما لم يكد ينعم به ؟ وهبه أصاب لذة ما ، أليس من ورائها ندم لاذع يذيقنا مر العذاب ؟ وإذاً فليلتمس فوست من إبليس عوناً على أن يصل إلى معرفة أسرار الحياة والوجود معرفة مباشرة كاية مطلقة ، وأن يصيب من اللذات ما يترك فى النفس رضى أبدياً ونشوة لا تزول . هذا ما يبغى فوست ، ولكن ترى أيستطيع إبليس أن يقدم إلى فوست ما يريد ؟

إبليس هو روح الشك والنكران — روح هدامة — روح الشر ؛ فكيف له أن يهدى فوست إلى يقين أو أن يدله على لذة تدوم ولا تورث ندماً ؟ إبليس هو وحى غرائزنا الوضيعة ، يكمن فى أنحاء نفوسنا المظلمة ينير ما استقر فيها من عناصر الشر ويلتمس لها أهدافاً يغرينا بها . ها هو يتقدم إلى فوست وقد ارتدى ثوباً أحمر يطرزه الذهب ، وفوق كتفيه معطف من الحرير الثقيل ، وبقبعته ريشة ديك ، وسيفه الحاد السنان معلق بخاصرته ؛

وها هو ينصح إلى فوست أن يرتدى رداءً كردائه ، وأن يترك غرفته مخلياً بها تلك الوساوس التى أتلفت عليه أيامه ، ليدلف إلى الوجود ملتمساً أسرار الحياة .

« وأى ثوب يستطيع أن يغير من شعورى بضيق الحياة ، وقد جاوزت سن المرح دون أن أبلغ سن اليأس من اللذات ؟ وماذا يستطيع العالم أن يمنحنى ، ودقات الزمن تصيح بآذاننا صيحات أبدية بح بها صوت الوجود فى أغنية لا تنقطع أن « تنح ، نعم ، تنح » ؟ أستيقظ مع الصباح فتغلى نفسى غيظاً ، وألقى ضوء النهار بدموع مريرة لعلمى أن أى نهار لن يحقق شيئاً مما أمّلت ، بل إنه لمفسد علىّ ما أتوقع من سرور ، وفى ضوئه تتناولنى الألسنة بالنقد اللاذع المرير ، فتشل فى نفسى كل توثب للخَلْق بما تأتينى به من أحزان الحياة البغيضة . ثم إذا جن الليل ذهبت إلى فراشى وفى النفس لوعة مقضة ؛ هنالك لا أنعم براحة ، وفى أضغاث الأحلام ما يملأنى رعباً . ترى الإله الذى يسكن عقلى لا يمسك عن إثارة ما استقر بأعماق نفسى ، وقد بسط سلطانه على كل ما أملك من قوى ، بينما هو أعجز من أن يثير شيئاً من هذا العالم الخارجى ، شيئاً أشبع به ما يثير فى نفسى ؛ ولهذا كانت الحياة عبئاً يثقلنى ، وكان الموت أحب إلى نفسى من هذه الحياة البغيضة » .

ولكن إبليس لم ييأس من فوست ، لعلمه أنه بشر ينتابه اليأس والأمل طوراً بعد طور ، وهو بعدُ على ثقة من أنه يستطيع أن يغير من لون نفسه ما انتزع تلك النفس من وحدتها وصرفها عن التفكير فى حقيقتها ؛ ولقد نجح إبليس فيما أراد ، وقبل فوست أن يصاحب إبليس « على أن يسلمه روحه إن استطاع أن يسلمه إبليس إلى الدعة يركن إليها ، فيطمئن ويرضى عن نفسه بما يخادعه به من لذات ويتملق عنده من غرائز » . وفى الحق إنه لاتفاق عجيب ما يزال الناس حتى اليوم يستوضحون معناه . ترى أموضع النزاع هو : إلى من ستصير روح فوست ؟ أ إلى خالقها تسمو إليه ما تعلقت بأشعة المثل العليا ، أم إلى جهنم يقوده إليها إبليس بخطا حثيثة ملتوية ؟ أم هو مصير الإنسانية قاطبة تتنازعها قوى الخير والشر ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل نزاع بين ملكات النفس المختلفة — ملكات تسمو بنا إلى أعلى ، وأخرى تهبط بنا إلى أسفل . ومن يدرينا ؟ قد يكون الأمر مجرد جولة — كما يقول جيته نفسه — يحمل الشاعر فوست عليها بين الأرض والسماء ليرى ماذا تخلف خطاه من أثر ، وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال الطبيعة التى خلقتنا بين أحضانها وفى حناياها كل سر دفين . « ألست ترى إلى الأشياء كيف تفكر خلالنا وكيف نفكر خلالها ، وإن تكن وحدة تفكيرها أدق من أن تكون قضايا وأكثر ما تكون نغماً أو لوناً » ، وقد انعقد عزمه

على أن يجوب خلال النفوس البشرية ؛ ولكم أودعها الله من سر لا تسلمه إلا لما يشابهها من نفوس ! ولكم تجرى أصدق الحقائق على ألسنة أبسط النفوس ! ولكم يفيض النبل من أشد القلوب سذاجة ! ولسوف نرى كيف أن لذات الحياة المادية لم تورث فوست غير ندم سما بنفسه ؛ ولسوف نرى نشوة الخيال لاتدوم إلا إلى حين ، ثم تولى تاركة فى النفس فراغا مؤلما ؛ ولسوف نرى أن العمل نفسه قد تخدعنا ضوضاؤه وإن لم يخلف أثراً يبقى ؛ ولسوف تنجلى مأساة فوست عن سبيل النجاة ، وما سبيلها إلا أن نحيا بقلوبنا ، وأن نضع لعقولنا حدوداً تلزمها دائرة لا تعدوها .

وما لنا نستوضح هذا السر ، وفى خطوات فوست وإبليس ما هو أوضح دلالة من كل تفكير ؟ أليس من الخير أن نصاحبهما لنرى ما هما منتهيان إليه ، ثم نحكم بعد ذلك على ما تعاقدا عليه ؟

ها هو فوست وإبليس يبدآن رحلتهما الطويلة الشاقة بزيارة لحانة بليبزج — هناك حاول إبليس أن يغرى فوست بالتماس اللذات وسط جماعة الطلبة وهم يلهون فى صخب وضيع ، وكؤوسهم بين أيديهم يعبونها عبا ، وحناجرهم تردد أقبح الغناء وأتفهه : « نحن وحوش اللذة — نحن خنازير الورى » . وسمع فوست هذا القرار فصدفت نفسه ولم يجد ما يقول إلا رجاءه إبليس أن ينصرف به عن هذا المكان ؛ وكيف لنفس حامية كنفس فوست أن تستريح للذات الحانات الحقيرة ؟

وحسب إبليس أن فوست لم يسترح إلى تلك اللذات لأنه قد جاوز السن التى كان يستطيع أن يلهو فيها مع الطلبة ، فقاده إلى ساحرة أعطته شراباً يرده إلى بدء الشباب ويوقظ فى نفسه لذات الحواس ؛ ولئن صدفت نفسه عن لذات الشراب وصخب الشباب فليُعدَّ له إبليس هذه المرة أشراكا أحكم حلقات ، وليغره بما هو أعلق بكل نفس ، ليدفعه إلى الحب . وفيما هما فى الطريق مرت بهما فتاة جميلة طاهرة النفس ، تطلعت إليها رغبة فوست الظمأى إلى الجمال ؛ واحتال إبليس حتى أوصله إليها ، وحسب أنه قد نجح فى الهُوِى بنفس فوست إلى ما أراد من سقوط ، ولكنه لم يفطن إلى أن جمال تلك الفتاة ونبل نفسها خليقان بأن يسموا بفوست عن كل إسفاف . ولِمَ لا ، وقد خبر جيته نفسه تلك التجربة الرائعة عندما أحب — وهو فى الرابعة عشرة من عمره بفرنكفورت — فتاة تشبه مرجريت هذه شبه قطرات الندى بعضها لبعض ؟ ودخل فوست إلى غرفة مرجريت ، وكان الوقت أصيل الغروب ، فارتفع قلبه إلى المثل الأعلى ، وانطلق لسانه بأجمل الشعر : « مرحباً بك

أيها الشفق العذب ! أيها الضياء البليل يرسل أشعته الذهبية تنير هذا المعبد المقدس ! وأنت أيها الغرام المبرح ! دونك قلبي أمسكه بعذابك العذب عن أن يأتى عليه الفناء وسط ندى الآمال . يا له من هدوء وديع ! يا له من استقرار راتب ! يا له من رضى نفسى جميل ، ذلك الذى يعمر تلك الدار ! أى غنى يملأ هذا الفقر البادى ؟ وأى سعادة تملأ هذا السجن المظلم ؟ » .

ووجدت نفس فوست راحة من حيرتها الأبدية ، وأحست نفس فوست برضى لم تستشعره أبد السنين ، وكاد رجلنا يفلت من أيدى إبليس ، وكاد رجلنا يطمئن إلى الحياة مخلفاً وراءه عهداً مظلماً لم يعرف فيه غير القلق وشقاء النفس . أليست مرجريت بطهارة نفسها ، وجمال روحها ، وفتنة وجهها — خيراً من فوست بعلمه الذى أنزل بنفسه الخراب وساقها إلى تطلع أبدى لن يلقى من ورائه خيراً ؟ ولكن إبليس له بالمرصاد ، ما يزال يغريه بالشر حتى يقع ما لا بد منه . حملت مرجريت ، وسقت أمها السم على غير علم منها ، وهى تحسب أنه منوم بسيط سيمكنها من أن تخلو بحبيبها كما أوهمها إبليس . وظهر حملها وثارت ثائرة أخيها لهذا العار الأبدى ، فأغرى إبليس فوست بقتله فى نزال دبره ذلك اللعين . ووضعت مرجريت حملها ، وضعفت نفسها عن مجابهة الناس بعارها ، فألقت بولدها إلى اليم . وحزن فوست حزناً عميقاً ، وقد أخذ الندم يحز فى نفسه حزاً ، وإبليس لا يمهله لحظة ، دائب الوسوسة فى أذنيه . ولكم ضاقت بفوست الحياة ! ولكم ود لو يعينه إبليس على أن يقوض ما بقى من أركانها ليفلت من هذا الشقاء المقيم : شقاء النفس الخيرة تساق إلى الشر سوقاً فلا تعود منه إلا بأمرّ الآلام .

وألقى بمرجريت إلى ظلام السجن ، وثارت ثائرة فوست ، وود لو تسحق قدرة الله إبليس اللعين . وحاول إبليس أن يعد من غواية فوست بمعسول القول فلم يستطع ، ولهذا لم ير بداً من أن يأخذه إلى قمة جبل بروكن حيث تعقد الجن عيدها السنوى ، وهناك أغرى به فتاة حسناء ، لعله ينسيه ألم الندم الذى أوشك أن يطهر نفسه من كل شر ، ولعله يعود به إلى السقوط ؛ ولكن هيهات ، فها هى مرجريت تلوح وسط هذا الصخب فيما يشبه أحلام اليقظة ، فيغادر فوست العيد عاديا ملء أرجله إلى حيث تقيم مرجريت وسط غياهب السجن . وأرغم فوست إبليس على أن يقوده إلى حيث هى . ووصل فوست إلى مرجريت ، وحاول عبثاً أن ينجو بها من السجن . ولكن إلى أين تذهب وقد أصبح العالم لها سجناً أضيق من سجنها ؟ لا ! لقد فات الوقت . وصاح إبليس مغتبطاً : لقد كتب لها الهلاك . وصاحت

أصوات من السماء : بل كتبت لها النجاة . وقاد إبليس فوست إلى خارج السجن ومن جوفه صوت يصيح متهافتاً : هنرى ! هنرى ! وخرج هنرى فوست إلى فضاء الأرض وقد ضاق به الفضاء بما رحب ، وأخذ منه الإعياء كل مأخذ ، فألقى بنفسه على حشائش الأرض ينتظر قضاء الله فيه . ترى ماذا ستفعل به رحمة الله ؟

أراد فوست أن يمس الحياة عن قرب ، فلم يجد فى الحياة غير مرارة الندم . أراد فوست أن يلتمس من الطبيعة أسرارها ، فضاق به فضاء الأرض . ولكن أليست هناك رحمة الله تملأ الوجود ، وقد حلت بكل شىء ، ونفذت إلى كل نفس ؟ من يدرينا ؟ لعل الله غافر لهذا العبد النادم ما أتى من سيئات لم يقصد إليها ، ولعله ملهمه نسيان ما كان . ولئن كانت لذات الحياة المحسة لم تعقب خيراً ، فلعل فى نشوة الخيال ما يغنى . ولئن ضاقت بفوست الأرض ، فهناك ما خلف الأرض ، هناك لا شك عوالم غير عالمنا . ليحاول فوست أن ينفذ إليها ، ولننظر ما هو مصيب منها . لقد عافت نفسه اللذات الحقيرة ، وشقيت نفسه بحب حسى . فليطلب إذاً لذة المجد ، وليصرف قلبه إلى مثال الجمال يحببه روحه . ليصرفه إلى هيلانة رمز الجمال ، وليسخر إبليس فى بعثها إلى الحياة ، ولننظر بعد ذلك ما سوف يكون من أمره .

(٢)

تركنا فوست وقد جره إبليس إلى مغامرة غرام ، خرج منها ونفسه يحطمها الندم . ومن عجب أن تكون نجاته على يد ضحيته ! ومن عجب أن تلاقى نفس مرجريت السيئة بالحسنة ولكنها نفس خيرة — هى من معدن نفس فوست — نعم من معدنها ، وإن تكن تفضلها بما احتفظت به من سذاجة وطهر ؛ ولئن سقطت مرجريت فما كان ذلك لشر فى طبعها ، ولا لإسفاف فى غرائزها . وهل كانت مرجريت إلا زهرة تفتحت لندى الحب عن طيبة قلب ، وحسبته خيراً صراحاً ؟ وهل أدل على نبلها من أن تخف إلى فوست وهو بين الجن والسحرة ، وقد أوشك أن يهوى هوياً لا نهوض بعده ، فتدعوه بحزنها البادى ونفسها الكسيرة إلى أن يخف إلى السجن يتلقى عنها قبل أن تحتضر درساً لن ينساه أبد السنين ؟ ماتت مرجريت وتركت فوست طريحاً على الحشائش بين أحضان الطبيعة التى طالما حن إليها ؛ ولكن أنى له أن ينعم من الطبيعة بجمال وقد تملكه الندم يهمس فى أذنيه : « إن من أتملكه لا يحس للعالم بوجود — تتراكم من حوله الظلمات — للشمس أن تشرق أو أن

تغيب ، ولحواسه أن تظل يقظة مفتحة الأبواب ؛ وأما نفسه فهيهات أن يتبدد منها ما يملأها من ظلام — تحوطه كنوز الأرض ، وهو عاجز عن أن يفيد منها شيئاً . تشقيه السعادة قدر ما يشقيه البؤس . يتضور جوعاً ومن حوله خيرات الأرض جميعاً ، يرجىء إلى غد كل لذة وكل ألم ؛ وأنّى له أن ينعم بشيء وقد علقت حياته بانتظار المستقبل الذى لا يأتى ؟ إن هم بأمر لم يدر أيتابع السير فيه أم يعود أدراجه ، يخونه العزم وهو فى منتصف الطريق ، فيتردد ويتعثر فى خطاه ، تزل به القدم شيئاً فشيئاً ، وتختلط أمام بصره الأشياء ؛ هو حمل على نفسه وحمل على الآخرين — لا هو بالحى ولا هو بالميت ، وقد عز عليه حتى اليأس أو الاستسلام ، فهو دائم الحيرة ، متراخى العزم ؛ ينتابه كسل مؤلم ونفور من كل نشاط ، نومه هياج ، وصحوه عذاب ، وقلبه نهب للرق والأسر ، وهو فى كل ذلك ملصق بالأرض ينتظر أن تنشق أفواه جهنم لتبتلعه » .

ولكن أليس هذا الندم شفيعا له لدى رحمة الله ؟ أليس دليلاً على أنه لا يزال هناك بريق من ضوء الله ينير حطام نفسه ؟ أليس دليلاً على أنه لا تزال هناك شرارة مقدسة تلمع وسط هذا الرماد الفانى ؟ نعم لقد فشلت حياته التى عاشها حتى اليوم ؛ ولكن ما أصاب من لذة أو شقاء لم يعدم أن يثير مكنون ضميره ، كما تثير الرياح المتضادة أمواج البحار ، وما دامت روح الشر لم تتملك روحه ، فلا شك أن سبيل الخلاص لا يزال مفتوحا أمامه .

وأتته أرواح الطبيعة ترنحه حتى نام ، ثم وسدته أكاليل الورود وحملته إلى نهر النسيان ، حيث عادت الحياة إلى جسمه المحطم ، ثم فتحت عينيه على ضوء النهار المقدس . ولكنه لم يكد يعود إلى الوجود حتى وجد إبليس أمامه . وهل روح أشد عناداً من روح الشر ؟ وهل إبليس من الغفلة بحيث لا يفطن إلى أن الفوز بنفس ممتازة كنفس فوست لا يعدله فوز ؟ ليكن لإبليس ما يريد من ملازمة فوست . وأما بطلنا فهيهات أن يعود إلى تلك الغواية التى لا تزال ترتعد لها فرائصه . لقد التمس اللذة الحسية فلم يجد غير المرارة ؛ وفيم هذا العناء ؟ ألسنا نستطيع أن نحيا بالخيال ما تنطلق إليه رغباتنا ؟ أو ما ترى إلى النـاس يذهبون إلى المسرح فيخيل إليهم أنهم قد عاشوا فيما يرون من أحداث وهمية ، وبذلك يدخرون من طاقتهم الفعلية ويضيفون إلى حياتهم ألواناً أخرى من الحياة ! أو ما يذكر بعضنا كيف أن رغبات النفس قد تبلغ من القوة حداً إذا تحققت معه ، لا ندرى عندئذ أحلماً نرى أو ماضيا نذكر ؟ ثم أليست السعادة والشقاء معانى ذهنية أكثر منها حقائق واقعة ؟ وإذاً فليلتمس فوست لذات الخيال بعد أن خدعته لذات الواقع ، وليسخر إبليس فيما يريد ؛ وليكن أول ما يريد مجد الشهرة والغنى .

وقاده إبليس إلى بلاط الأمبراطور ، فإذا بالأمبراطورية فاسدة ، وإذا بالأمبراطور عاجز عن إصلاحها . واتفق أن كان مضحك الأمبراطور فى شبه موت من شدة السكر ، فقبل الأمبراطور إبليس ليحل محله ، وأصبح فوست ساحر القصر الأمبراطورى ؛ وهنا تقع مهزلة ملأى بالعبر — رأى المضحك الجديد أن موضع الداء بالأمبراطورية هو نضوب المال ، فأكد للأمبراطور أن جوف أرضه ملىء بالكنوز الدفينة ، وأنه ليس من الضرورى أن ينقب عنها ، بل يكفيه أن يحمل الشعب على الاقتناع بوجودها ؛ وفى إيمان الشعب ثروة لا يجف لها معين ، وتحققت تلك الأضحوكة ؛ وانتهز إبليس فرصة انهماك الأمبراطور ذات مساء فى لجب اللذات ، فحمله على التوقيع على ورقة بنكنوت يضمنها ما فى جوف الأرض من كنوز ، وطبع من تلك الورقة عدداً لا حصر له ؛ وجرت تلك الأوراق فى التداول ، والكل مؤمن بقوة ضمانتها ، فاغتنى الأمبراطوز واغتنت الأمبراطورية . ولكم من أناس يبنون مجدهم فوق أكذوبة كهذه ! ولكم من أناس يجمعون المال ، والفضل كله لحمق البشر !

وتساقطت عن الأمبراطور همومه ، وتكاثرت من حوله الخيرات ؛ وكان على إبليس وفوست أن يفتنوا فى طرق تسليته وإدخال السرور على نفسه ؛ فأخذ فوست مفتاحه السحرى ينظم بفضله عيداً من أعياد الأدب ؛ وهل أمتع للأدباء من أن يبعثوا إلى الوجود هيلانة وباريس ؟ وسر فوست بما أتى ، ولكنه لم يكد يرى هيلانة حتى هاله جمالها النادر ، وأحس نحوها بحب قوى ، وبلغ هذا الحب المثالى من نفسه مبلغاً أخذ بكل حواسه ، فجعله يستشعر نحو باريس غيرة شديدة أنسته الدور الذى يلعب كساحر ، فأدار مفتاحه نحو هذا الراعى الجميل ، وما هى إلا حركة بسيطة حتى اختفى الكل ، وبقى فوست يتحرق لوعة على هذا الجمال الذى لم يستطع أن ينعم به ، وإن ترك فى نفسه أثراً لن يمحى . ألم يصح عند رؤيتها : «أو ما تزال عيناى تبصران ؟ ألستِ نبع الجمال فياضاً يتدفق فى أعماق نفسى ؟ ما أحلاك جزاءً لما بذلت من جهد ! وهل كان العالم قبل أن أراك إلا عدماً أو لغزاً معمى ؟ وأما اليوم فقد أعطاه جمالك معنى ترغبه النفس وتطمئن إليه الحواس واثقة من بقائه ؟ ألا فلتغادرنى أنفاس الحياة إن قبلت أن أحيا بدونك . أنت الحافز على كل نشاط ، أنت الباعث لكل عاطفة قوية ، إليك كل ما أملك من عطف وحب وعبادة وجنون» .

إذاً لقد وجد فوست غايته فى الحياة . وأى غاية أنبل من هيلانة ، مثال الجمال المطلق ؟ وعلى إبليس أن يبلغه ما يريد ، ولكنه لن يقنع هذه المرة من هيلانة بذلك الشبح الذى لا يكاد يرنو إليه البصر حتى يختفى كضباب الصباح تبدده أول أشعة النهار . إنه يريد هيلانة

الحقيقية — هيلانة أسبرطة وطروادة — هيلانة فى زهرة الشباب — هيلانة ابتسامة تسحر وجمال يسبى . نعم هذا ما يريده فوست ؛ وقد جعلت منه لمحة الجمال رمزاً لخيار البشر يلتمسون الحق والجمال بالعلم والحب ، وما تهدأ لهم ثائرة حتى يصلوا إلى ما يريدون ؛ وهنا تتسع عبقرية جيته حتى تشمل كل ما فى الوجود بل وما خلف الوجود ؛ حتى إن إبليس نفسه ليخشى أن تسوق فوست قدماه « إلى ذلك الفراغ اللانهائى الذى لن يرى فيه شيئاً ، ولن يسمع حتى وقع أقدامه ، ولن يجد ما يركن إليه طلباً للراحة » . وتختلط على القارئ السبل ويحار فى أمره ؛ ولكن ما دام فوست يريد من إبليس أن يأتيه بهيلانة الأغريقية ، أليس من الطبيعى أن ينقلنا الشاعر إلى تلك البلاد ، بل إلى أسبرطة نفسها موطن تلك الحسناء ؟ وما دام إبليس سيعيد الحياة إلى هيلانة أليس فى ذلك ما يذكر جيته بتلك المعضلة التى لازمت تفكيره طول حياته ، معضلة أصل الحياة ؟ ولم لا يستعرض إذاً ما وصل إليه العلم فى عصره من فروض ؟ ولم لا يقص علينا ذلك النبأ العجيب نبأ ڤجنر تلميذ فوست الأمين ، وقد خلق إنساناً صغيراً فى أنبوبة اختبار بفضل ما يعلم من قوانين الكيمياء . وها نحن نرى أبطالنا الثلاثة يسيرون معاً إلى بلاد اليونان : الإنسان الصغير باحثاً عن مصدر الحياة ، وفوست جرياً وراء هيلانة ، وإبليس متربصاً لتلك النفس الكبيرة التى يريد كسبها ، وجيته يحلق فوق الجميع بتلك العبقرية الفذة التى أحاطت بكل شىء ، فأنطقت آلهة الأساطير وأنصاف الآلهة وأرواح البحر والبر والسماء .

ولقى فوست فى طريقه « شيرون » الحكيم فأخبره أنه يبحث عن هيلانة ، وأنه لن يستطيع الحياة بدونها ؛ فظنه شيرون لأول وهلة مجنوناً ، وأخذته به رحمة ، فأراد أن يلتمس لجنونه علاجاً ، ولكن فوست يرفض هذا العلاج بإباء ، ويخبره أنه لا يريد إن يحيا حياة مبتذلة كما يحيا غيره من الناس ، وإلا كان جديراً بكل احتقار ؛ ويقوده شيرون إلى «مانتو» بنت إله الطب إسكيلاب ، وعند مانتو كل علم بأسرار النفوس . ودار بين مانتو وفوست حوار أحست خلاله تلك الإلهة الخبيرة بأن فوست ليس مجنوناً ، وإنما هو رجل ألهب المثل الأعلى قلبه ، واستحوذ على مشاعره ، حتى ليحسبه الحمقى معتوهاً وما هو بمعتوه ، وسكنت مانتو من جأشه بتلك الكلمة الرائعة : « إننى أحب من يطلب المستحيل » وقادته إلى «پرسيفون» إلهة العالم الآخر ، ورقت له تلك الأخيرة ، فردت إليه هيلانة مشرقة الجمال .

وأقام إبليس لهيلانة وفوست قصراً رائعاً بأعلى جبال البلپونيزيا ، حيث عاش فوست مع هيلانة أروع أحلام حياته ؛ إلا أن حبهما لم يكن حباً مبتذلاً ، بل كان مغامرة لا مثيل

لأصالتها . وكادت تتم لفوست السعادة لولا أن ولدها « إفريدن » — رمز الشعر — ذلك العنصر النارى الذى لا تهدأ له حركة ، لم يستقر له قرار ، فأخذ يجوب الآفاق حتى سقط فى مخالب الفناء داعياً أمه إلى اللحاق به ، ولحقت هيلانة بولدها فى العالم الآخر ، وبقى فوست وحيداً وفى نفسه حسرة ما لها انقضاء . فيا عجبا ! حتى هذه الحياة الشعرية لا تسكن إلى بقاء ! أهكذا كتب على البشر ألا تطمئن بهم حال حتى ولو كانت من نسج الخيال ؟

والآن ترى ماذا يفعل فوست بنفسه وقد خانته لذات الخيال كما خانته لذات الحواس ، وقد أورثه الحب مرارة الندم كما أفلت الجمال من بين يديه ؟ لم يعد له إلا أن يصرف نشاطه إلى ميدان العمل يأتى فيه بما لم يأت بمثله أحد من قبل ، فينال إعجاب الناس به ورضا نفسه عما وفق إليه . وأى دواء لنفس حائرة كنفسه خير من أن يشغل ملكاته عن التفكير فى نفسه وفى الحياة .

ونظر فوست فرأى البحر يغمر الأرض فيشل إنتاجها ، وحدثته نفسه عن مبلغ ما يصيب من مجد لو أنه استطاع أن يرد البحر عن شواطئه ، وأن ينتزع منه بقاعاً يخصبها بالأشجار الدانية القطوف والأزهار الباسمة الألوان والرجال الناعمين بالحياة . وأى عمل أعظم من أن يضع للبحر حدوداً لا يعدوها ؟ بذا جرت الأحلام فى نفس فوست ، فاتجه إلى إبليس يطالب إليه تحقيق تلك الأحلام ؛ وصدع إبليس بالأمر وهو على ثقة من أن فوست سيرضى بمجد باطل يفقد معه رهانه ، واتفق عندئذ أن كانت الأمبراطورية فى ثورة ضد الأمبراطور ، وقد نصب أحد الأعداء نفسه أمبراطوراً جديداً ، فأعد إبليس لفوست من أسباب سحره ما استطاع معه أن يقهر الأمبراطور الجديد ويثبت الأمبراطور القديم فى عرشه . وشاء عرفان الجميل أن يحمل هذا الأخير على أن يكافئ فوست بمنحه الأراضى المجاورة لساحل البحر ؛ وبذا أصبحت أحلام فوست سهلة التحقيق . أليس فى استطاعة إبليس أن يأتى فوست بقوى غير مرئية تدفع البحر عن شاطئه وتقيم أمامه حواجز متينة ترد أمواج المياه ؟ وزرعت الأرض المنتزعة من المياه ، ونما زرعها ، وانتشرت بينه مساكن الزراع . والآن — ترى أرضيت نفس فوست ؟ كلا . فهناك شيخان لا يثقان بما أتاه فوست من معجزات ، وللشيخين (رجل وزوجة) منزل بأعلى الشاطئ ، وها هما يرفضان النزول عنه والسكن بالأرض الوطيئة التى انتزعها فوست من اليم . وبقى منزلهما قائماً يسخر من فوست ومن معجزات فوست . وبنفسه رغبة فى شراء هذا المنزل ليضيفه إلى قصره الذى بناه ، والشيخان يصران على التمسك به ، فكيف السبيل ؟ وأحس إبليس بما يدور فى نفس فوست .

ومن أدرى منه برغبات النفوس ؟ فأخذ يحرك من غرائزه ويهيج من كبريائه حتى استفحل الأمر ونفد الصبر ، فتقدم له عندئذ راجياً أن يكل إليه أمر مفاوضتهما بالحسنى ، على أن يكون له الحق فى استعمال ما يرى من وسائل الإكراه إن فشلت المفاوضة ؛ وأبى الشيخان الاستماع إلى حديثه ، فأمر إبليس رجاله بإحراق المنزل ، وأكلت النار المنزل كما أكلت الشيخين بداخله .

فنى الشيخان وما إلى هـذا قصد فوست ؛ ولكنّ ما فعله إبليس لم يكن إلا استجابة لرغبات نفسه الدفينة ؛ ولهذا نراه يلعن إبليس ويستنكف فعلته . ولكنه يحس فى أعماق ضميره أنه مسئول عن هذا الجرم ؛ ولذلك يعقد العزم على أن يفارق إبليس ، وأن يحيا حياة بشرية عادية دون الاستعانة بوسائل الشيطان ؛ ولكن أنى له ، وقد جاوز الخمسين فى صحبة إبليس ، أن ينهض بأعباء حياته التى أنفقها بعيـداً عن حياة البشر وسط عالم مسحور حتى أصبح عاجزاً عن فهم الواقع ، وامتلأ وجوده بالأشباح ؟! ومع ذلك فما تزال إرادته قوية كما كانت ، وما يزال نشاطه موفوراً . وإذن فليحاول حياة البشر :

« لقـد أنفقت حياتى أجوب خلال الأرض ، أقتنص ما تصبو إليـه نفسى وأطرح مالا يرضينى ، موليا ظهرى لما يفلت من بين يدى . لكم تحركت بنفسى رغبات ، ولكم أشبعت تلك الرغبات ، ولكنى ما أكاد أفرغ من واحدة حتى تثور بنفسى أخرى . وهكذا واصلت شوطى فى الحياة بقوة لا تدفع وبخطى بدأتها حثيثة ، ثم ها هى اليوم تهدأ وتعتدل . لقد أحطت بآفاق الأرض علما ، وأما ما خلف تلك الآفاق فدونه حجب مسدلة . ما أحمق من يرفع إلى السماء بصرا يعشيه ضياؤها ، وقد خيلت إليه أوهامه أن وراء السحب أحياء تشاكله . لقد خلق الإنسان فوق تلك الأرض ، فليكتف إذن بالنظر إلى ما حوله ، وإن فيه لعبرة لذوى الألباب . ثم فيم الضرب خلال الأبدية ؟ أوما يكفينا أن نمسك بما نعلم ؟ ! أوما يكفينا أن نسير على ضوء الحياة ؟ وإذا لاحت لنا بعرض الطريق أشباح فلندعها وشأنها ، وإن أصبنا سعادة أو شقاء فلنقبله ، ولنواصل السير دون أن يطمئن بنا أبداً رضا » .

على هـذا وطد فوست العزم وقد أعلن أنه سيقبل الحياة كما هى دون أن يرضى عنها . فهل تراه بذلك مفلتاً من قبضة إبليس ؟ كلا . فإبليس له بالمرصاد ، وما دامت الحيرة قد عادت إلى نفس فوست ، وما دام القلق قد تملك نفسه البشرية يقلق راحتها ، فقد عادت الهموم تغزوه من جديد ، وتعمى بصره ؛ وها هو إبليس ينتهز فرصة عماه ليخدعه من جديد ، وقد أمر فوست رجاله أن يبكروا فى الصباح إلى حمل معاولهم ومهاجمة البحر يردونه عن الأرض دفعة أخرى . وأثار إبليس من حول فوست — بوسائله السحرية — ضجيجا يشبه ضجيج

الفعلة ؛ وحسب فوست أن الأمور تسير على هواه ، وأنه مستطيع بوسائل البشر ما لم يكن يستطيع من قبل بغير وساطة الشياطين ؛ وما علم أن ما حوله من ضجيج لم يكن إلا خداعاً من شياطين إبليس ، وأن المعاول لم تكن تعمل لترد البحر ، بل لتهيىء له قبره الأخير . وبلغ من بؤس الرجل أن صاح برضاه عما أتى ، ففقد رهانه ، وسقط بين يدى إبليس يقوده إلى جهنم وفوق شفتيه ابتسامة الرضا :

« ها هى ذى جنان الأرض تشرق ! للبحر أن تزخر أمواجه وأن تأكل مياهه ما أقمنا من حواجز ، فنحن البشر له بالمرصاد ، ما نلبث لن نرد عدوانه ، ونقيم حاجزاً مقام حاجز ؛ على هذا كرست حياتى . وأى حكمة يمكن أن تتمخض عنها الحياة خير من تلك الحكمة التى تسوقنا إلى وقف حياتنا على هزيمة البحر كل يوم ، فنستحق بذلك الحياة ونستحق الحرية ؟ وهكذا ينصرم الشباب كما تنصرم الكهولة وتنصرم الشيخوخة وسط صراع مستمر يحكم حلقاتها . آه ! لكم وددت أن أرى مَنْ حولى مِنْ بشر فوق أرض حرة بين قوم أحرار ، إذن لصحت بالزمن أن قف جريانك لأنعم بتلك اللحظة السعيدة . ولو أنى استطعت ذلك ، لخلفت حياتى على أديم هذه الأرض أثراً لن تمحوه أبدية السنين . إن نفسى لتحس بتلك السعادة الفياضة ، وإنه ليحلو لى فى هذه اللحظة أن أتمتع بما أنا فيه من نعيم » .

وهل بعد هذا من رضا ؟ وهل بعد هذا يستطيع فوست أن يفلت من إبليس ؟ ولكن هل سعادة فوست هذه إلا وهم باطل ؟ وهل رضاه إلا خدعةٌ من عمل الشيطان ؟ ياللعجب ! حتى ثمار جهدنا تتلقاه منا الأحضان فإذا به هواء ؟ ؟ وحتى راحة النفس نلتمسها فى الدأب المتواصل فلا يورث الدأب إلا خداعاً !

وهوت روح فوست مع إبليس ، ولكنها روح خيرة ، فما لرحمة الله أن تتخلى عنها ، وإلا كانت الهزيمة ! وما إلى مثل هذا يستطيع جيته أن يطمئن ، وإنه لمهيىء لبطله سبيل الخلاص ، ولعله عندئذ كيف يستطيع أن يعالج الحياة .

(٣)

هوى فوست بين يدى إبليس إذ أعلن رضاه عما خيل له هذا اللعين من مجد باطل ، ولكن كم كانت دهشة إبليس عند ما نظر فوجد روح فوست ما تزال مستقرة بالجثة تأبى أن تغادرها أو تتفكك ذرات ؛ فاحتاط للأمر وطلب إلى رجاله أن يقصوا أجنحتها حتى لا تغافله فتصعد إلى خالقها . ولو أنها استطاعت لتفتحت لها أبواب السماء ؛ أما وقد عجزت فها هى

ملائكة الرحمة تأتيها منشدة : « نحن رسل الرحمة نحمل الحياة إلى البؤساء الذين ما تزال قلوبهم تتجه بالدعاء إلى رحمة الله . هيا . . هيا نمس بأجنحتنا هذا الطين البارد ، فتدب فيه الحياة ، هيا نملأ الفضاء بحماسة قلوبنا ، هيا نسكب رحمة الله فى قلوب البشر . » .

وسمع إبليس نداءهم ، فهزه الخوف من أن تنقذ تلك الملائكة فوست . ولكن متى كان للملائكة أن ترهب إبليس ومن خلفها قدرة الله ؟ ها هى تساقط الورود فوق جثة فوست كما يتساقط الندى على رقيق الحشائش . وأمر إبليس رجاله أن ينفثوا على الملائكة والورود لهباً يبدد شملها ويذهب بنضرتها ؛ وعادت الملائكة تحمل الحب والضوء ، وضاعف إبليس من ناره ، ولكنه باء بالهزيمة ، وقد مسه الحب ، الذى نثرته الملائكة فى الفضاء ، بلهب كوى منه الأديم .

واختطفت الملائكة فوست تسمو به إلى رحاب الله ، وما زالت تقوده فى مقامات الجنة حتى لقى مرجريت ، فقادته ابتسامتها إلى العذراء تسألها أن تمكنه من لقاء وجه ربه . وبذا انتهت حياة فوست كما ابتدأت بابتسامة من مرجريت ؛ فياعجباً ! ضحية تشفع لمن كانت فريسته ؟! ولكنه الحب سبيل نجاتنا ، الحب بأعم معانيه : حب البشر وحب الله . ولنذكر قول أحد القديسين . « لو أننى نطقت بكل لغات البشر بل حتى بلغات الملائكة ، وكان قولى خالياً من الحب لكنت كطبل يدوى أو نحاس يطن ؛ ولو أننى تملكت أسرار الغيب ، ونفذت إلى كل معنى خفى ، وأحطت علماً بكل شىء ، بل لو أن قلبى عمر بإيمان ينقل الجبال ، وكنت بغير حب لما كنت شيئاً ، ولو أننى وهبت كل ما أملك طعاماً للفقراء ، ولو أننى أسلمت جسمى وقوداً للنار وكنت بغير حب لما أفدت شيئاً . الحب صبر ودعة وإحسان ، الحب لا يعرف الحقد ، لا تسمع له صخباً ولا عجلة ، ليس للكبرياء أن تغل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعالى ، لا يسعى إلى نفع ، ولا يحس بمرارة » .

هذا الحب الذى تستطيع النفس أن تطمئن إليه فتجد الراحة ، هو ما كان ينقص فوست ، إذ أن عقله كان قد امتد إلى كل شىء ، ووسع كل معرفة ؛ وكان قد أنفق حياته بين الجدران منحنياً فوق صحائف الكتب دون أن يورثه ذلك يقيناً أو يجعله خيراً مما كان ، فأحس بفراغ لم يدر كيف يملأه .

فوست عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه ، فحاول أن يقيم اتزان نفسه ، وقد فقدت تلك النفس بفقدان اتزانها كل سيطرة على اتجاهاتها ، فأخذ يضرب فى كل مكان ، يلتمس غذاء لهذا القلب ، مندفعاً فى كل ناحية اندفاعا لا يتبين معه مواقع أقدامه . وعاد من شوطه

البعيد منتعلا دمه ، فغادر عالمنا إلى العالم الآخر على أجنحة من الخيال لم تلبث أن هيضت ، فسقط إلى الأرض حيث الحيرة الأبدية والجهل الذى لا حدود له ؛ وود لو انصرف عن نفسه إلى عمل مجيد يستغرق قواه ؛ ولكنه فى تلك الرحلة أيضا لم يستبن الوهم من الحقيقة التى اختلطت أمام ناظره بالأحلام ، فكيف له إذاً أن يستقر أو أن تهدأ له نفس ؟ ومن يدرى ! لعل إرادة الله قد قضت على البشر أن يظلوا فى حيرة أبدية وقلق لا انقضاء له ؛ ولعل فى ذلك ما يتميز به الإنسان ، ألا ترى الأمهات لا يلدن إلا وسط الآلام ؟ فكيف لعقل بشرى أن يدرك سراً أو يكشف الغطاء عن لغز إذا لم تهزه المحن فتشحذ من قواه ؟

ولكنا نعود فنتساءل : وكيف استطاع إذاً فوست أن ينجو ؟ وكيف تفتحت له أبواب السماء ، رغم ما كان فى حياته من إسراف لا شك فيه ؟ ويقيننا أن سر نجاته يرجع إلى ما تمخض عنه ذلك الاسراف من دروس . لقد علم فوست أن علماً يبذر الشكوك فى النفس علم لا خير فيه ، وأدرك أن الإحساس قد يكون لنا فى الحياة دليلاً أهدى من عقل دائم التعثر فى خطاه . ألا ترى إلى مرجريت على سذاجتها وضيق أفقها العقلى كيف سبقت فوست إلى رحمة الله تمهد له سبل السماء ؟ إليس ذلك لأنها آمنت بحبها فغفر الله خطيئتها ؟ وهل أتت فوست ملائكة الرحمة إلا لأن حب مرجريت له لم يعدم أن مس نفسه فطهرها من شرورها وقربها من الله .

ولقد علم فوست أنه إن لم نستطع أن نحيا بنفوسنا تلك الحياة الأرضية التى قضى علينا أن نحياها ، فإنه لا ينبغى لنا أن نستعين بعناصر الشر وأوهام السحر ، وإلا تراخت قوانا وفقدت القدرة على الاعتماد على نفسها . وإنه لخير لنا أن نشبع ما يثور فى نفوسنا من رغبات بما منحتنا الطبيعة من قوى ، وأن نعرض عما لا نستطيع له تحقيقا ، إذ أنه من الأسهل أن نغير من أنفسنا لنلائم العالم الخارجى عن أن نحاول تغيير ذلك العالم لكى نخضعه لرغباتنا ؛ وسعادتنا منوطة بذلك ؛ وهل استشعرت نفس راحة إلا إذا استطاعت راضية أو كارهة أن تلائم بينها وبين ما يحيط بها من أناس وأشياء ؟

ولقد علم فوست أن المرء ضعيف بنفسه قوى بربه ، وسيان بعد ذلك أكان ذلك الرب ما يعبده المسلم أو المسيحى أو اليهودى ، أو كان تلك الروح الشاملة التى تحل فى الوجود ، كما كان يعتقد جيته . ولقد حدثت مرجريت فوست يوما عن الإيمان ، فسألته : أمؤمن هو بدين المسيح ؟ فلم يحر جوابا ، وإن أخذ يصف لها حبه فى ألفاظ ترتعد إيمانا . فأحست مرجريت — كامرأة تدرك بفطرتها أسرار النفوس — أن قلب فوست عامر بالإيمان ، وإن

لم يكن ذلك الإيمان وفق كتاب مقدس ، أو عقيدة مقررة .

ولقد تنطق عناصر الوجود أمام فوست فيحس فيها دبيبا من روح الله ؛ ولقد تنطلق نفس فوست من سجنها إلى رحاب الطبيعة ، فتحس كأنها تسبح فى معبد أقيم لعبادة الله . هذا الإيمان الشائع فى قلب فوست قدر شيوعه فى الوجود كله ، هو سر نجاته ؛ ولكم تساقطت نفسه حطاما ثم عادت إلى النهوض بفضل ذلك البريق من الإيمان الذى لازم الحطام . أليس الإيمان بهذا المعنى الإنسانى الشامل هو ما يمسك النفوس وقد علقت بين الأرض والسماء ؟

ولقد علم فوست أنه من الخير أن نضع لعقلنا حدوداً لا يعدوها . وإنه لتحضرنى الآن كلمة لعميد كلية الطب بباريس قال فيها : « إن من إمارات ضعف عقلنا البشرى ألا يستطيع الوقوف عند ما هو فى متناوله ، وأن يتطلع إلى معرفة ما خلف عالمنا المحسوس ، وإن فى منبسط الأرض وحقائق الطبيعة ما يكفى لأن يشغل أكبر العقول ؛ فما لنا نتطاول إلى ما دون ذلك من أصل الوجود ومصدر الحياة وكنه الله ؟ » وهل فى هذا التطاول إلا بذر للشك فى النفوس وبلبلة للإيمان ؟ بهذا اقتنع فوست قبل أن يسقط بين يدى إبليس بدقائق معدودات ، إذ فطن إلى أنه من الخير أن نصرف جهدنا فى عمل منتج ، يعود علينا وعلى الإنسانية بالنفع . وإنه لأجدى على فوست وعلى البشر أن يقاتلوا البحر دون أرزاقهم من أن تتبدد نفوسهم فى فضاء الأبدية .

ولقد علم فوست أن المرأة باب من أبواب الجنة ، وإليها تسكن النفوس ، فهى مصدر الرضا ؛ ولكم دعاها من قبل شعراء لتضع يدها المقدسة على قلوبهم الجريحة ، ولقد قادت « بياتريس » من قبل « دانت » فى فجاج الجنة ، ولقد قادت ابتسامة مرجريت فوست إلى جوار ربه . والمرأة عند فوست أو عند جيته رمز لقوتين كبيرتين : الحب والجمال . وقديما قال أفلاطون : « لو أن الحقيقة صيغت امرأة لأحبها جميع الناس » ؛ وهل أدل على ذلك من أن تكون خاتمة فوست تلك الكلمات الرائعة : « ها هو ذا عنصر النساء الأبدى يفتح أمامنا أبواب السماء » .

والآن قد نتساءل : هل تتمخض حياة فوست عن يأس أم عن رجاء ؟ ولقد نعود لنستعرض تلك الحياة ، فنجد أنها قد دارت حول ذلك الثالوث الذى طالما تغنى به أفلاطون ، ثالوث الحق والجمال والخير ، ثم ننظر فنجد أنه لم يصل لأى منها ، فنكاد نيأس . ألم يضق نفساً بتلك المعرفة الزائفة التى نجدها فى بطون الكتب ، فاستنجد بروح الأرض — زوج

الطبيعة — أن تكشف له الغطاء عما تصبو إليه نفسه من أسرار الحياة والوجود ، وخشى ضعفنا البشرى يواجه به قوى الطبيعة ، فاستعان بالشيطان ، وجال خلال الأرض كما جال خلال النفوس ، بحثاً عن اليقين ، فلم يعد بغير الندم والخسران ؟ ولقد هفت نفسه إلى مثال الجمال يلتمسه فى هيلانة ، فلم يكد يظفر به حتى دلف من بين أصابعه كنسيم رقيق ؛ فكيف لنا إذاً أن نسعى وراء الجمال وقد عجز الخيال نفسه عن أن يقيم هيا كله ؟ ولقد اندفعت نفسه نحو الخير ، فأنقذ الأمبراطور من محنته ، وانتزع من البحر أرضا ود لو درت الخير على العباد ؛ وإذا بثروة الأمبراطور وهم ، وإذا بمجالدة البحر رجس من عمل الشيطان ؛ فكيف لنا إذاً أن نسعى وراء الخير ، وما للخير من وجود فى غير أوهام البشر ؟

إن فى كل ذلك ما يدعو إلى اليأس ؛ فهل للانسانية إذاً أن تولى ظهرها نحو ما ألفت من مثل عليا ؟ هل لها أن تهجر الحق والخير والجمال ؟ ذلك ما لا نؤمن به ، وما لا يمكن أن يكون الدرس النهائى الذى انجلت عنه حياة فوست . ودليلنا على ذلك أن حياته لم تضع هدراً ؛ وقد ارتفعت نفسه إلى جنات ربه ؟ وما ذلك إلا لأنه قد أحس بالحق والخير والجمال ، فجاهد فى سبيلها ، وكان فى جهاده هذا خلاصه ؟ نعم إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته خطى فوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحا أم إخفاقا ؛ فالجهاد نبل فى ذاته .

هاملت

Hamlet

(١)

هملت كصورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت . وكأنها تسائلك : « أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثنى عما تظن . ولا يهولك ما لطخت به يدىّ من دماء . وكلنا لاشك قد بلا من أحداث الحياة ما يعرف معه أن النفوس الخيرة قد تحمل على الشر ، وما أنا إلا مثل لطغيان الروح على الإرادة . ولو أننى بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمت لوالدى فى غير تردد ، ولـكان بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثراً إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus يسوق اسمى بين من يسوق من ملوك الدانمركة ، ولعله يذكر ما كان من محاولتى الانتقام لأبى . وكم فى ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الـكثير ، والناس بعد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ؛ ولـكن شكسبير قد خلقنى خلقاً جديداً وأودع روحى من النفاذ ما لا أزال أشقى به . ألا ترانى أسلط العقل على ما يجيش فى نفسى ، أتناوله بالتحليل فلا أعود من ذلك إلا بعزم مفلول ، فأثور على محاولة الفهم والاسراف فى القول ؟ وكل تحليل تحطيم ، وكل عزم لا بد متراخ ما أرهلناه ألفاظاً » .

هذه مأساتى . ولئن كانت النفوس الفطرية تشقى بأوهامها فتحسب فى كل شجرة إلهاً يُرغب ويُرهب ، وفى كل نسمة روحا تحمل الخراب أو العمران ، لأنها لا تستطيع أن تدرك حقائق الأشياء فتتحرر من الوهم ، فإننى لست بدونها شقاءً ، وقد نفذت روحى إلى كل شىء ، بل نفذت إلى حقيقتها : نفس خيرة ناطت بها الأقدار إراقة الدماء انتقاماً لأب كريم ، فـكيف السبيل ؟ لقد صحت يوماً عندما كشف لى شبح والدى عن الجريمة صيحة يأس : « لقد خرج الزمن عن مجراه ، وإنها لمحنة قاسية أن يكون علىّ رده إلى ذلك المجرى » فحسبت نفوس كبيرة كجيته Goete « أن نفسى أصغر مما نيط بهـا ، ورأتنى كزهرية — لاشك ثمينة — ولـكنها أضيق من أن تحتوى جذور شجرة عاتية ، وما أعدت إلا لرقيق الزهور . ونمت الشجرة فحطمت الإناء » . وأضاف جيته أننى نفس لاشك جميلة خيرة ،

ولكنها أضعف من أن تستقل بحمل كهذا ، بل أضعف من أن تستطيع طرحه عنها ، وأنى قد كلفت المستحيل ، لا المستحيل فى ذاته ، بل المستحيل على طبعى ؛ ورأى فيما كان من حيرتى وترددى بين الإقدام والإحجام مأساة نفس لا تزال تائهة حتى تضل عن قصدها ، وكلما ذكرته ذكرت حقيقتها ، فطفت هذه على ذاك ، وأخفت معاله حتى يصير القصد سراباً ؛ وما استراحت النفس ولا هدأ الفؤاد ، إلى أن ساقتنى أحداث الحياة سوقا إلى النهوض بما ندبت له .

ولكنى مسائل نفسى : أضعف أن أتردد فى سفك الدماء قبل أن أستوثق من جريمة الجناة ؟ أضعف أن أتردد فى قتل رجل أتيته فإذا به يعبد الله ؟ وهاك تفصيل ما كان :

عدت من ڤيتنبرج Wittenberg التى تلقيت العلم بجامعتها سنين طويلة ، إلى إلسينور Elsinore حيث علمت أن أبى قد مات منذ شهرين ؛ ونظرت فوجدت أن عمى كلوديس Claudius قد خلفه على العرش وأنه قد تزوج من والدتى جرتريد Gertrude ، ورأيت فى مرح عمى ووالدتى وتكالبهما على الحياة وعدم ذكرهما لوالدى أو الحزن لوفاته ما نغص على عيشى وألقى الاضطراب فى نفسى ، فاستشعرت وحشة غريبة ، وكأن أسراراً غامضة تحوطنى أينما اتجهت ، حتى كان يوم ظهر لى وسط ظلام الليل ، وأنا بصحبة أحد الأصدقاء ونفر من الحرس ، شبح والدى فكدت أصعق . وقد أخبرنى الشبح بما وافق إحساسى الغامض ؟ أخبرنى أن عمى قد سكب السم لوالدى وهو نائم بالحديقة ، وأن والدتى قد قبلت الأمر الواقع واستبدلت راضية رجلا برجل ، ثم طلب إلى أن أثأر له بقتل كلوديس ، وأما والدتى فقد حذرنى من أن أمد إليها يداً بسوء .

صدعت بالأمر وعقدت العزم على الثأر ، ولكن كيف السبيل ؟ ومن حولى رقباء أيقاظ لم أر معهم بداً من أن أتصنع الجنون . وأوجس الملك خيفة من جنونى هذا ، فأخذ يعمل بكل ما يملك من حيلة لينفذ إلى أسرار نفسى ، وقد اتخذت من الجنون ستاراً أنثر من خلفه كل حقيقة مرة ؛ ودس المجرم علىّ عيونه يتسقطون نجوى فؤادى أو يحتالون لإنطاق مكنون نفسى . وكم قاسيت من أن تكون أوفيليا Ophelia الحبيبة بنت بولونيس Polonius كبير أمناء الملك — من بين تلك العيون ، وفطنت إلى تلك الدسائس فأتلفت على الرقباء مكرهم ، وسخرت من حيلهم ؛ وما ضقت بهم فى شىء ، وإنما أتانى الضيق من نفسى ، وما أنا بالرجل الساذج الغفل ، حتى أركن إلى شبح رأيته ؛ وماذا كنت أترك لبسطاء النفوس لو أن الشك لم يتسرب إلى عقلى فيحملنى على أن أضع حديث الشبح موضع النظر والتجربة ؛ وقلبت وجوه

الرأى فلم أر خيراً من أن آتى بممثلين يمثلون أمام الملك والملكة رواية جريمتهم لأرى أثر ذلك على وجوههم . وكان ما توقعت فلم يطق الملك صبراً على رؤية جريمته ، وأسرع إلى الانسحاب والرعب يملأ نفسه ، وتبعته الملكة التى أرسلت فى طلبى ؛ وكان بينى وبينها حوار عنيف لم يؤلمنى منه إلا أنه كان بين ولد وأمه .

دار الحوار بينى وبين أمى فى حجرة تغلق أحد جوانبها ستارة ضافية ، وبلغ من عنف الحديث أن اشتط بى الغيظ حتى لم أعد أملك نفسى ، وقد تحققت من الجريمة ولم يعد للشك مجال . وانسل إلى سمعى حفيف الستارة وأحسست أن من خلفها شخصاً يتلقط الحديث ، فهجمت عليه بسيفى هذا ظاناً أنه الملك ، وكم كان أسفى عندما نظرت إليه مضرجا بدمائه فإذا به پولونيوس ؛ وعلم الله كم كان حزنى لقتل هذا الرجل لا لأنه فى نفسه جدير بأى محبة أو تقدير وهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابى ، ولكن لأنه والد ذلك الملاك الطاهر ، والد أوفيليا التى أحبها قلبى كما أحبتنى .

أسقط فى يد الملك وزادت مخاوفه ، وقد أحس بالموت يرفرف فوق رأسه ؛ ولما كان يعلم مبلغ محبة الشعب لى وقوة الشبهة التى تلابسه ، كما كان يحرص على رضاء أمى ، لم ير خيراً من أن يحتال على قتلى ، فأرسلنى برسالة إلى ملك انجلترا مع رجلين من رجال البلاط ، وبالرسالة أمر لذلك الملك أن يقتلنى بمجرد وصولى ، فإن لم يفعل فالويل له ؛ وكان رفيقا رحلتى يعلمان ذلك ، وأما أنا فقد أوهمنى الغادر أنه يرسلنى إلى انجلترا حرصاً على حياتى بعد أن قتلت كبير أمنائه ؛ وكان من حسن طالعى أن توقعت غدره ، فغافلت رفيقىّ الخائنين وفضضت الرسالة لأمحو اسمى وأضع اسميهما محله ، وكان أن وقعت سفينتنا بين أيدى قراصنة نجوت معهم بنفسى لأعود إلى الدنماركة ، وأما الرجلان فقد وصلا إلى ملك انجلترا حيث لقيا حتفهما .

عدت ولكن لأرى وأسمع ما ينفطر له الفؤاد ، فقد جنت أوفيليا لقتل أبيها على يد حبيبها ؛ وفيما هى تجمع الزهور إلى حافة النهر تردت فيه فماتت غرقاً ؛ وفيما أنا عائد وسط المقابر حيث كان لى حديث حزين عن مصائر البشر مع الحفارين رأيت حفلا مهيباً لم ألبث أن علمت أنه جنازة أوفيليا ، ورأيت أخاها لايرتس "Laertes" وقد ثارت ثورته وانعقد عزمه على أن ينتقم منى لأبيه ولأخته ؛ ورآها الملك فرصة سانحة ليستوثق من هلاكى ، فدبر نزالا بينى وبين لايرتس على أن تكون حربة خصمى مسممة السنان ، وزيادة فى الحيطة أعد كأساً دس فيها السم لأشرب منها فيما لو أخطأتنى ضربات الخصم . وكان النزال ، وأصابنى لايرتس بضربة قوية ، ولكنى تماسكت نفسى وهويت عليه بكل جسمى فسقطت حرابنا ، وتناولت

مسرعا حربة كانت حربته وطعنته بها طعنة أشد من طعنته ، وأسرعت الملكة إلى شرب نخب ولدها فسقطت صريعة ، وسقطتُ ، وسقط لايرتس . ولكن منازلى النبيل لم يكد يصارحنى بحقيقة المؤامرة ، وقد صفت نفوسنا على قبر أوفيليا أمام الموت والدماء المراقة ، حتى عادت إلى قواى فنهضت وبذراعى المتخاذلة موتاً ضربت الملك ضربة يأس أتت على حياته لساعته ، ثم أسلمت أنفاسى وآل مُلك الدانمارك إلى ملك السويد الغازى » .

نعم ذلك ما كان من هملت ، وقد ساقته الأقدار إلى إراقة دماء أراقها بالفعل سميه فى القرن الثانى عشر ، أو كان يستطيع إراقتها بقلب ثابت غفل وضمير صامت لايعرف الندم . وأما هو وقد أعاد شكسبير خلقه من جديد فى عصر البعث العلمى ، وقد تبدل الزمن فأرسلت المسيحية نور الإيمان فى القلوب ، وهزت أوتار الضمائر ، وجاءت الجامعة فزادت بعهدها الطويل نفسه ليناً ، ومدت من آفاق تفكيره ، فكيف له ألا يتردد ويناقش نفسه الحساب مرة ومرة ؟ إنه لمن الطبيعى أن تحجم نفس مهذبة كنفسه ، فى عصر النور ، عن ارتكاب جرائم ارتكبها سلفه أيام الظلمات . وإنه لمن الطبيعى أن يتخذ شكسبير من هذا التعارض بين حقيقة نفسه وشناعة جرمه موضوعاً لأكبر ما تصورت العقول من مآس ؛ ونحن لا بد متسائلون عن مبلغ ما حمله خالقه العبقرى من مرارة نفسه ، وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما نزال إلى اليوم حائرين فى فهم سرها ومداها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شعره الغنائى (سونت Sonnets) الذى يدور حول ذلك العام عام ١٦٠٤ .

وفى الحق أن هملت لم تنقصه الشجاعة ولا نقصه العزم ، وقد قبل أن ينتقم لأبيه بقلب ثابت ، ورأى فى هذا الانتقام واجباً مقدساً . ألا تراه يخف إلى لقاء أبيه وقد فرقت قلوب الرجال من حوله وتعلقوا به أن يمسك عن السير وراء الشبح عند ما لاح له طالباً أن يتبعه ؟ وكيف يتراجع وهو القائل : « سأتحدث إليه إن ظهر فى صورة والدى النبيل . سأتحدث إليه ولو انشقت أمامى أفواه جهنم تصيح بى أن ألزم الصمت » . وظهر الشبح ووجه إليه هملت الحديث ، وأومأ إليه الشبح بالمسير خلفه فسار ؛ وما إن حاول رفاقه أن يثنوا من عزمه حتى صاح بهم : « فيم الخوف ، والحياة عندى لا تساوى قلامة ظفر ؟ وأما عن روحى فبأى أذى يستطيع ان يصيبها وهى مثله خالدة ؟ آه — ها هو يومئ إلىّ من جديد . وإنى لسائر فى أثره » .

نعم هملت شجاع ، وله من الشجاعة كل مظاهرها ، حتى لقد يوصى نفسه بالهدوء : « هدوءاً أيتها النفس . إن الجرائم لا بد ظاهرة إلى وضح النهار ، ولو غطتها الأرض

قاطبة لتخفيها عن أعين الناس . هدوءاً أيها القلب . . . » .

ولكن حماستة — لسوء الطالع — لا تلبث أن تتبدد خطباً . تراه يتلقى مهمته من فم الشبح بخطبة عنيفة يخشى أن تكون قد استنفدت كل ما فى قلبه من حرارة ، فيتناول قلماً وقرطاساً ليدون وصية الشبح له « بأن يذكره دائماً » حتى يراها أمام عينيه ، فيضمن بذلك أن تتبع الأفعال الأقوال :

« يا أرواح السماء! أيتها الأرض ! وأنت يا . . . ماذا أضيف ؟ أأضيف جهنم ! آه ! تماسك أيها القلب . وأنت أيتها الأعصاب حذار أن تدركى الشيخوخة لساعتك ! هيا ارفعى من قامتى ! أذكرك ؟ ! نعم أيها الشبح المسكين سأذكرك ما احتفظت الذاكرة لها بمكان تحت هذه الجمجمة الحائرة ! أذكرك ؟! نعم سأذكرك ! بل سأمحو من ذاكرتى كل ما علق بها من أحاديث الهوى التافه أو قضايا الكتب ! سأمحو منها كل صورة وكل ذكرى للماضى خطها شبابى أو تلقتها حواسى ، غير تارك على صفحات ذهنى إلا وصيتك منفردة عن كل ما يحوطها فيحط من قدرها . نعم بحق السماء . أيتها المرأة الخبيثة ! أيها الوغد المجرم المقضى عليه بابتسامة نفاق لا تزول ! إلىّ بألواحى . إنه لمن الخير أن أدون بها أنه من الممكن أن نبتسم ونبتسم دائماً ، ولا نكون رغم ذلك غير أوغاد . إنى لعلى ثقة من ذلك ، على الأقل بالدانمركة . (يكتب) هأنتذا عمى ! والآن إلى قسمنا . (وداعاً وداعاً . أذكرنى دائماً) وهأنذا أتخذ من كلمتك هذه قسمى » .

أى عنف أشد من عنف هذه النفس القوية ؟ وأى قول أحمى من هذا القول ؟ ولكنها نفس بائسة نظرت إلى أعماق نفوس البشر فلم تر إلا ظلاماً ، وارتد بصرها إلى مكنونها ، فاتخذت منه وقوداً لسخطها . ولكم ثار هملت على نفسه ، ولكم خطب ضد خطبه . ولقد أتاه يوماً ممثلون يحاكون ما كان من حزن إيكبيا Hecuba ملكة طروادة لموت ولدها البطل هكتور ، ويذرفون مثل ما ذرفت من دموع ، فإذا بتلك الدموع كأنها سياط تلهب من نفس هملت : « آه . يا لى من نذل مسف الفؤاد ! يا للعار ! هذا الممثل يستطيع بمجرد التصور أن يحيا حلماً من الإحساس ، فيرغم روحه على أن تجارى خياله ، فيتمثل له الخيال حقيقة ، حتى ليشحب لونه وتتساقط منه الدموع ، وكل ذلك لغير غاية ! أكل ذلك من أجل إيكبيا ؟ ! وأى صلة بينه وبين إيكبيا أو بينها وبينه ؟ ! وماذا كنت تراه إذاً فاعلا ، لو أن ألمى كان ألمه ؟ ! . . .

« أى نذل أنا ! وكيف لا أكونه ، وها هو قلبى الهش كالطمى يغرسنى هنا فى مكانى

شبحاً ينتظر وحى السماء ، وقد تقاعدت عن غايتى ! إن اللسان لينعقد فى فمى ، ينعقد عن التحدث عن ملك كريم سلبته يد أثيمة تاج الملك ونعمة الحياة . أجبان أنا ؟ ! . . .

« . . . إنه لمن الواضح أنى لا أحمل غير كبد حمامة ، وأن هذه الكبد قد عريت من مرارتها تجابه بها الظلم كما ينبغى أن يجابه ، وإلا لأشبعت منذ زمن بعيد بطون الطيور الجارحة بجثة هذا الوغد الحقير ! أيها الوغد الملطخ بالدماء ! أيها الوغد الفاسد الطبع الفاسد النفس ! أيها الضمير الميت ! آه ! الانتقام ! آه ! أى حمار أنا ! ! يا لها من شجاعة ! شجاعتى تلك التى تدفعنى أنا الإبن الذى مات أبوه العزيز قتلا ، وصاحت به جهنم والسماء : إلى الإنتقام ، ثم ها هو يهدئ من ثورة قلبه باللفظ المسرف ، يُبدد قواه لعنات كنذل حقير ! ما هذا ؟ ! ما هذا ؟ ! إلى العمل ! إلى العمل ! توثبى أيتها الروح ؟ » وكيف لتلك الروح أن تتوثب وقد انحل عزمها ثورة ألفاظ ؟

واستمر هملت فى شقائه النفسى . ولكم من حدث أثاره ضد نفسه . أو لم ير يوما ملك السويد الشاب يجتاز أرض الدنمركة ليصل إلى پولونيا ، ينتزع من أهلها بضعة أميال من أرض جدباء فصاح : « أنسيان كنسيان الحيوانات ؟ أم تحرج الجبن ، جبن نفس تطيل الإمعان فيما تريد أن تأتى من عمل قبل أن تأتيه فتحطمه إلى أفكار ربعها حكمة وثلاثة أرباعها جبن . وفى الحق إنى لأتساءل : فيم توقفى الآن ؟ أحاسب النفس : أينبغى أن أفعل هذا أو ذاك ؟ وفيم التساؤل والقصد واضح ولى من الإرادة والقوة ووسائل التنفيذ ما يمكننى من إنفاذ ما أريد ؟ . . . كيف أتقاعس أنا الذى قُتل أبوه ودُنست أمه ، وفى ذلك ما يكفى لإثارة كل حفيظة وتحريك كل نفس ؟ وها هم آلاف الرجال يسيرون إلى قبورهم وكأنما يسير كل إلى فراشه ، والموت معلق فوق رءوسهم ، وكل ذلك من أجل وهم خادع ومجد باطل يلتمسونه من الاستيلاء على قطعة من الأرض تضيق عن أن تتسع لخطاهم أو أن تضم جثثهم . آه ! لتكن روحى من الآن فصاعداً دماً أو لا تكون شيئاً » .

هذا هو هملت كما يرى نفسه . وإنها لرؤية مخيفة ، وإن فى عنف قوله لأوضح دليل على ما يثير هذا القول فى قرارة نفسه من خزى . أو ما تراه يطعن بالألفاظ وقد عز الطعن بالسنان ؟ يا له من مشهد مؤلم ، ذلك الذى نراه فيه يكيل لوالدته السباب وقد أعفاه شبح والده من أن يثأر له فى شخصها ! وإنه لمغتبط بذلك الإعفاء ، وإن تكن غبطته على غير وعى منه . ومن عجب أن يتكالب على قتل أمه بقاسى اللفظ ، وقد أمره أبوه أن يترك لها الحياة ، بينما يتوانى فى قتل الملك المجرم الأصيل . ولكن عنف نفسه يلتمس له مخرجا ،

فيتبخر ألفاظا ، حتى تكون مناسبة أخرى تحفزه إلى العمل ، ولولا تضافر الأقدار ما ارتكبت تلك النفس جرماً قط .

لقد قيل إن هملت متردد ، ولكنا نتساءل عن معنى ذلك التردد ؟ وقد استمعنا إلى أقواله فلم نجده — وهو اللبق النافذ البصيرة — يحاول أن يقنع نفسه بالعدول عما كلفه به شبح أبيه من انتقام . وإذا كان هذا شأنه فكيف لنا أن نسمه إذاً بالتردد ؟ إن عزمه لثابت منعقد ، وإنه لوفى مخلص لما يريد . ولكنه للمرور من العزم إلى التنفيذ ، ومن الإخلاص إلى العمل لا بد من عبور هوة سحيقة تتطلب قوة لا نحسب أنها تعوز هملت ، ولكنه مغلول الأيدى بقوة أخرى لو أنها أتته من الخارج لحطمها شظايا ، ولكن كيف السبيل إلى الخلاص ، وقيوده من نفسه ؟

(٢)

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق الواسع الإدراك ، أن يرتكب جريمة كانت ترتكب فى عهود الجهالة الأولى ، ولقد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه . ولكم تحدث إليه عمه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليها من أن تكون لحمة الحياة الاجتماعية تمسكها عن التفكك والانهيار . وإنه ليعلم نفاق ذلك العم الذى داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عندما كان فى ذلك نفعه وهوى نفسه ؛ ولكنه رغم ذلك لا يستطيع الإفلات من تلك القيود التى درجت عليها طفولته وشبابه ، فهو ثائر خاضع لا يدرى أى سبيل يسلك . وقد ألقت إليه تربيته الأولى ، وتفكيره المتصل ، والكتب الكثيرة التى قرأها فى سنى دراسته الجامعية الطويلة ، بمعانى العدل والحرص على التمكن من الحقيقة ؛ ولكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حوله تحاك خيوطها غدراً ، وقد تلفت النفوس بما يصطخب فيها من كذب ومكر وخداع ، حتى أصبح العدل حلما ، وأضحت الحقيقة وهما ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل : ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن نقتل نفسا بشرية لما سمعناه من ذلك الشبح الذى لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم فى حفلة التمثيل التى دبرها أمام أعين الملك والملكة الذاهلة المضطربة . وكان هذا إرجاء لتنفيذ ما اعتزم ، وماجريرته فى ذلك وقد خلق كألسست Alceste يأبى الإباء كله أن يصدر عن غير الحق والإيمان ، فإذا أعوزه اليقين فلينتظر وليكن ما يكون . وما إن ظفر بما يبغى من ثقة حتى أسرع إلى والدته يعنفها بأمرّ القول . وما إن أحس بحركة

خلف الستار حتى انقض على من خلفه يقتله ، فإذا به لسوء الطالع پولونيوس Polonius لا الملك نفسه . وتأبى عبقرية شكسبير أن يقتل هملت وجها لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لـكأن تلك النفس المهذبة تسمو عن أن تريق الدماء مُسفِرة .

ولقد تتعقد الأمور فيتوقف هملت عن إنفاذ عزمه ، لا لوحى من ضميره ، ولا لحرص على الحق والعدل ، بل لإحساس دينى عميق ، إحساس الرجل الذي يعلم أن العبـد أقرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ؛ ولقد رأى هملت قاتل أبيه منفرداً فى الصلاة ، وكانت فرصة سانحة للاجهاز عليه ، ولـكنه لم يفعل . وهاك حججه :

« ها هو يصلى . إن باستطاعتى الآن أن أرسله إلى العالم الآخر . وإنى لفاعل ذلك . . آه ! إذاً لذهب إلى الجنة ، ولـكان انتقاما عجيبا ! لنفكر فى الأمر : يقتل مجرم أبى ، ثم آتى أنا ، ولده الوحيد ، فأرسل هذا المجرم إلى الجنة ؟! يا لله !! إن هذا ليس انتقاما ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيع ، لقد قتل أبى بقسوة وحشية ! وقد أثقله الهضم فنام ، وتناثرت من حوله خطاياه كما تتناثر ورود الربيع ؛ وأما عن حســابه كيف قدمه بين يدى ربه ، فذلك ما لا يعلمه إلا الله ، وإن كان أكبر الظن أن حسابه جاء عسيراً ؛ ثم آتى أنا فأعتقد أنى قد انتقمت له بقتلى هذا الرجل وهو فى سبيل تطهير نفسه ، وقد أخذ بعدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعداد ؟! لا . إلى الغمد أيها السيف حتى يحين لك ضربة أشد من هذه هولا ، عندما يكون سكران أو نائما أو مقامراً أو ساخطا على خالقه ، أو معنيا بأمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التى تنجو بصاحبها ، عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضربه ضربة تجعـله يصعد إلى السماء بأعقاب أرجله ، فتهوى نفسه وقد تكاثف بها من الظلمات قدر ما يتكاثف فى جهنم » .

وفى الحق أنها لحجج غريبة معقدة . فيها رقة الإيمان ، وفيها قسوة الرغبة فى انتقام مر . وكان هذا إحجاما آخر عن تنفيذ ما اعتزم .

كل هؤلاء مشـاعر نفسية تعوق هملت عن العمل ، وفى بصيرته من الوضوح ما ينير جوانب نفسه ، ولـكنه ضوء يكاد يعشى الأبصار ، هو ضوء الهذيان ، ضوء نفس قد تفتحت أمامها أبواب العالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتها حلما مستمراً لا يراه أحد غيرها ، لأن أحداً لا يشاركها تلك الحياة ، فهى فريدة فى بابهـا . وهل أدل على ذلك من حديث أوفيليا Ophilia عنه وقد لاقاها ببهو القصر : « لقد أخذنى من معصمى وضغطه ضغطا قويا ، ثم ارتد عنى إلى الخلف طول ذراع ، ورفع يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعة ، وأخذ يحدق فى وجهى بإمعان حتى لـكأنه يريد أن يصورنى ، ومكث وقتا طويلا فى

هذا الوضع ، ثم هز ذراعى قليلا ، ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات متتابعات ، هكذا ، وأرسل زفرة حزينة عميقة خلتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ، ثم خلى سبيلى وسار عنى ورأسه ملتفت إلى ، واستمر فى السير بغير حاجة إلى عينين تنيران له الطريق ، وبصره معلق بى ضياؤه حتى اختفى » .

وظنت أوفيليا به الجنون ، ولكننا لا نعلم بعدُ أكان مجنونا حقا أم هو هذيان نفس محمومة ! بل من يدرينا ؟ لعل موقفه هذا من أوفيليا كان إسرافا فى شعور حقيقى أراد منه إلى إقناعها بما يتصنع من جنون يتخذ منه وسيلة إلى الإفلات من رقابة تلك العيون التى بثها من حوله عمه الملك والتى كانت أوفيليا إحداها ، إذ أوهمها أبوها والملك أن هملت قد جن بسببها ، وأن من واجبها أن تقوم عليه ، وأن تخبر عما تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفى الحق أن هملت قد وجد فى تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقد خيل إليه أنه يحيا حلماً مستمراً ، أو يلعب دوراً أخاذاً ، وإن روحه لروح فنان تعشق الفن وتفنى فيه ؛ وأى متعة أجمل من أن نتصنع الجنون لنقول كل حق ونحطم كل مواضعة ، ونملأ الوجود بكل قول لاذع يكشف عما فى الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن فى قول هذا المجنون لحكمة تنطق الأبله بولونيوس بقوله : « عجيب ما فى إجاباته أحياناً من عمق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز العقل والعافية عن مثلها » . أى نشوة تعدل نشوة هملت ، وقد أخذ يهذى حتى لاح هذيانه حكمة ؟ ترى أيكفينا إذاً أن نسمو فوق منطق البشر المبتذل وعدلهم الموتور وحقائقهم الزائفة لنلوح مجانين ؟

إن فى تصنع هملت للجنون لعجبا ؛ حتى ليحسب الحمقى ضحكاته تكشير مجنون عن أنيابه ، وهى بعدُ سخرية رجل ممتاز من حماقاتهم . أو لا ترى إلى أحد رجال البلاط وقد أخذ يحتال عليه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منه بجواب غير هذا .

هملت — أتعرف كيف تلعب على المزمار ؟

رجل البلاط — لا يا سيدى ، فما عهدت اللعب على هذه الآلة .

— ولم لا واللعب عليها أسهل من الكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بإحكام أصابعك وإبهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ فى الغاب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! ها هى المفاتيح !

— ولكنى يا سيدى لا أستطيع استخدامها بحيث تعطى صوتاً منسجماً ، وذلك ما لم أوهبه .

— إذاً أى رأى تظن بى ؟ تريد أن تتخذنى ألعوبة لك وقد لاحت عليك رغبة فى معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بها إلى سرى الدفين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتها على طول السلم ، ثم تعجزك هذه الآلة الصغيرة ، فلا تملك أن تحملها على أن تجود بما لديها من نغمات عذاب ؟ أتظن إذاً أنه من الأسهل أن تلعب بى عن أن تلعب بالمزمار ؟

وأحس هملت فى هذا الحوار . وأمثاله — وما أكثر ما حاور — بضرب من التفوق على الغير ، تفوقا وجد فيه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقه بتقاعده عن العمل . وكيف لا يطرب للعب بالأفكار والتغلب على الرجال وقد نمت ثقافته نمواً حمله على التحمس لكل فكرة يرسلها سافرة أو يطويها مستترة خلف ما ينشر فوقها عامداً من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنان يلعب دوراً ، وقد انغمس فى الأفكار كما انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عند ما يطول عهدنا بالدرس فنستمر فى تقليب الأفكار بعد أن يكون عهد العمل قد حان ، كيف أننا نفقد القدرة على العمل السريع الحاسم ، وننفق أوقاتنا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتناوله بالتحليل وتحديد ما بينه وبين أنفسنا من علاقات أدبية ، وبين قواعد الأخلاق ومواضعات الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فيما يعرض له عيداً من أعياد الذكاء ؛ وإنه ليحلو له أن يقيم من كل جزئية حكما عاماً أو مبدأ شاملا ، وإنه ليمر عند عودته من انجلترا بإحدى المقابر ، فيتمهل ليبادل الحفارين حواراً عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويملأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الأسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من جماجم .

« مات الإسكندر ، ودفن الإسكندر ، وارتد الإسكندر تراباً . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع الملاط ؛ ولكن لم إذاً لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من خلق الإسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ؛ وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئاً . ومن منا لا يذكر نجواه المروعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر ، وما ندرى بعدُ أيهما أنبل : أن نتلقى صاغرين سهام القضاء الجارحة ، أم ننهض لأمواج المحن ندافعها فندفعها ؟ وهل

الموت إلا نوم يضع حداً لآلام القلب وجراح الجسم التى لا عداد لها ؟ أليس فى ذلك ما يغرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ؛ ولـكن آه ! ترى أى أحلام تـكون وقد طرحنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعونا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يعد من أجل محنتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصَلَف الـكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حداً لـكل ذلك بضربة سيف ؟ ! ! من هـذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأثقال وهو يئن ويتصبب عرقاً من عبء الحياة لولا خوف ما بعد الحياة ؟ ومن بعدها بقاع مجهولة لم يعد منهـا مسافر قط ، خوف يفل منا الإرادة ، فنفضل راضين آلاماً نعرفها على آلام نجهلها . . . . » .

وهكذا ما يزال هملت ينعم النظر فى الحياة ويستوضح كنهها ، بل وما بعد الحياة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الإيمان بالعدم المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيمـاناً . ألا تراه يتنكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليه يوماً أنه مؤمن به راض عنه مطمئن إليه ؟ ! استمع إليه يخاطب أوفيليا التى طالمـا سألها أن تدعو الله فى صلواتها أن يغفر له ما أخطأ فيه :

« إلى الدير ! . . . فيم حرصك على أن تصيرى أماً لآثمين ؟ ! ها أنا فيما أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل إلىَّ معها أنه ربما كان من الخير أن لم تلدنى أمى . وأنا رجل مسرف الـكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقام ونزعات الطموح ، رجل قد أخذت بتلابيبه مغريات بالشر أكبر من أن يحتويها فكر أو يتصورها خيال أو يتسع لتحقيقها زمن . . . أى نفع يرتجى من رجل مثلى يزحف بين الأرض والسماء ؟ ! إننا جميعاً أوغاد جبناء . حذار حذار أن تثق بأحد منا ! هلمى ! حثى الخطى ! إلى الدير ! إلى الدير ! » .

أى مرارة أقسى من تلك ؟! وماذا يستطيع رجل نفذت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيها إلا ظلاماً ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حياته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقد الثقة فى كل شىء ؟ !

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بها . وإنا لملتمسون له العذر . فتشاؤمه له ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة !

هذه مأساة هملت ؛ ولـكم كثرت من حوله الأقاويل : فمن قائل إنها مأساة جنون ،

ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفى الحق إنهم لمخطئون .

ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا ، وإنما هى مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شيء ، فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأى فتحطمت بين أيديهم حياتهم التى اتخذوها موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً ، فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب ، فما تزال أحياناً حائرة مترددة حتى تقف فى مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم .

ألسست

Alceste

ألسست بطل كوميديا لموليير اسمها « عدو البشر » ، ولكن هذا العنوان لا يستنفد كل ما اجتمع لتلك الشخصية من صفات وإلى اليوم لا يزال الناس يختلفون فى الحكم على هذا الرجل : فمنهم من يؤيده ومنهم من يضحك منه . وفى الحق أنه لأمر شاق أن نعرف أى الطريقين نسلك : أنحيا حياة ألسست موطدين العزم على ألا نقول إلا ما نؤمن به ، بل وأن نقول كل ما نؤمن به ، ولو كان فى ذلك شقاؤنا ، وأصبحنا به موضع سخرية الناس أجمعين ؟ أم نصانع الناس ونداريهم ونتنزل على مواضعاتهم الاجتماعية مهما يكن خلفها من ملق ونفاق كما فعل « فيلانت » Philinte صديق ألسست فى نفس المسرحية ؟

ولو أننا سألنا موليير نفسه جواباً لحيرتنا للزم الصمت قائلا : « دونكم وقائع الرواية ، أنطقوها بما شئتم ، فما أنا إلا مصور بالقلم ، وقد أتيتكم بصورة من الحياة ، لى فيها من الفضل ما لكل مصور فى اختيار الموضوع وتوزيع الظلال والأضواء وتحسس كل لون دال . ولو أننى كنت على بصيرة من حكم أستطيع أن آتيكم به لفعلت ، ولكنى مثلكم حائر لا أدرى أى سبيل أسلك ، فيالكم من كسالى ! لقد فتحت بصرى على الحياة فرأيت ألسست يتخبط خلالها ، ورأيت الناس يضحكون منه ، وإن يكن فى خلقه وفى قوله ما يدعو إلى التفكير العميق ، وحاولت أن أتخذ منه موقفاً يحمل حكمى عليه أو له فلم أستطع ، ولهذا أتيتكم به لتروا ما رأيت ، ولكم أن تحكموا بما تريدون . وأما أنا فلا أطلب إليكم إلا أن تعفونى من المصارحة برأيى ، فقد رأيت الصراحة تودى بأهلها إلى التهلكة . ولا أزال أذكر ما كان من تكالب رجال الدين ضدى عند ما عرضت على الجمهور أمر ذلك القسيس « ترتيف » الذى هداه نفاقه إلى استغلال سذاجة البشر أشنع استغلال ، فهاجت ثائرتهم ، وكأنى بكل منهم ، شأن من لا يثق بنفسه ، قد خشى أن يكون هو ذلك القسيس . وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهد كيانى ، فها هى زوجتى تحتمى وراء المجاملات الاجتماعية لتثير فى نفسى الغيرة تكوينى بنارها كياً . ألا دونكم ما كان من أمر ألسست ، فاقضوا فيه بما ترون ، وأما أنا فيكفينى جهداً ما كان من رؤيتى ما هو واقع تحت بصرنا كل يوم ، وما كل مبصر بصير » .

ولكنا قد نعود فنسأل : ترى كيف يعرض موليير ألسست عدوا للبشر ، وتلك جريمة شنيعة ، ثم لا يعدّ له من جزاء غير الضحك يثيره فى نفوس الناظرين ، وإن كنت أحسب أن منهم من لا تطاوعه شفتاه ؟ يا للعجب ! رجل يكره البشر ثم لا يورده البشر حتفه ! ما السر فى ذلك ؟ لعل البشر على حمقهم قد ألهموا أن من يقسو عليهم قد يكون أرفق بهم ، وأحدب عليهم ، ممن يطالعهم بابتسامة تطول ملازمتها للشفاه حتى تفقد كل ما لها من معنى . ولعل أحداً منهم يصيح مع روسو : « ليس عدواً للبشر من يفضح عيوبهم ويهاجم رذائلهم فما يفعل ذلك إلا لعنايته بأمرهم ، وإلا لجاز أن نعتبر الأب العطوف يحب أبناء الآخرين أكثر من أبنائه هو لأن نقائص هؤلاء تثيره بينما يسكت عن نقائص الآخرين . وإنما يعد عدواً للبشر ذلك الذى يصافى الكل ويروقه كل ما يرى ، فيكون فى موقفه من الناس ما يشجع الأشرار على شرورهم ، ويتملق فيهم تلك الرذائل التى تهد من كيان المجتمع . تراه يعلن رضاه عن كل ما يرى ويعتبره حسناً ، لأنه لا يحرص على أن تسير الأمور إلى الأحسن ، كما يصيح بإعجابه بالكل لأنه لا يأبه بأحد . ينكر أن من الناس من يتضور جوعاً ما دام هو جالساً إلى مائدة حافلة ، ويستنكر أن يدعوه أحد إلى عون فقير ما دام جيبه مليئاً . يغلق منزله ليرى من النافذة غيره يُسرق ماله ، أو تُقطّع أوصاله ، وما عليه من كل ذلك وقد وهبه الله رقة فى القلب يتحمل بها آلام الآخرين !!! وما له يحرك ساكناً ، أو يصلَ الشر إلى حيث يثوى ؟ ومثله مثل ذلك الإيرلندى الذى أخبر يوماً أن النار قد شبت بالبيت الذى يسكن فأجاب : وما يعنينى من هذا وما أنا بمالكه ؟! حتى إذا وصلت النار إلى فراشه ، انطلق يعدو ويصيح ، وقد أخذ يدرك أنه من الخير لنا أن نعنى بأمر البيت الذى نأوى إليه ، ولو لم نكن له مالكين » .

ذلك ما قد يقول قائل منهم ، وإن كنت أخشى أن ينهض خب من بينهم فيحاجهم ببعض ما قال روسو نفسه ، ذلك الرجل الذى نفذ إلى خفايا النفس البشرية لطول ما أمعن النظر فى نفسه الخاصة ، إذ قال : « إننا كثيراً ما نتسقط عيوب الغير ، ونبحث عن دوافعهم الخفية التماساً للذة نجدها فى الكشف عن فساد نفوسهم فنرضى عن أنفسنا » ولعله يضيف : « ونحن بعد نحيا فى مجتمع ، فلا بد لنا من النزول على مواضعاته ، وقد جرت سنة البشر على أن يجامل بعضهم بعضاً ، وأن يتحمل بعضهم بعضاً ، وما كل قول يقال . وإنها لضرورة من ضرورات الحياة أن ننافق أحياناً ، وأن نوارى ونخادع ونداهن ونكذب إن أردنا النجاح فى الحياة . وهبنا نكره هذا الفرد أو ذاك ، أما علينا أن نتصنع ابتسامة نلقاه بها إن لم يكن بد من لقائه ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الابتسامة التى نروض أنفسنا عليها تصبح فينا

طبعاً يحملنا على احتمال من نكره . ذلك ما قد يقوله الحب ؛ وأهول ما أخشاه أن تناصره كثرة الناس ، وقد أورثنا ما نملك من ذكاء جبناً فى النفس ما له من علاج . نعم ، الذكاء ، وهل الذكاء كما يقولون إلا قدرة على ملابسة الواقع والنزول على حكمه والميل معه أينما سار ؟ وهل أخبث منه ملكة وهو يلتمس لكل خطيئة من خطايانا مبرراً يسكت به صوت الضمير أو نفعاً يكم به الأفواه ؟ ومن منا لا يذكر قول برجسون : « إن الدين والأخلاق ما هما إلا رد فعل تنهض به الغرائز لتقوم ما ينزله بنا الذكاء من تقويض لدعائم الجماعة وهدم لقوماتنا الشخصية » ؟ على أنه إن يكن لنا عزاء فلا أراه فى غير تلك الحقيقة الجميلة : وهى أنه لا يزال ولن يزال هناك نفر قليل هم هَدْى البشر وطلائعهم ، قد أودع الله فى قلوبهم ناراً تحرق ذلك الذكاء المدمر ، نفر يصمدون فى الحق يرفعون ألويته ، وما يعنيهم أسخر الناس منهم أم أعجبوا بهم ، وفى عملهم هذا من النبل ما يجعله حمقاً أن نتهمهم بأنهم إنما يثبتون مع الحق ويجرحون نفاق المنافقين التماساً للذة يجدونها فى التفوق على الغير .

من هذا النفر فيما أعتقد ألسست . والآن وقد شوقتك إلى معرفة ما كان من أمره فلأحدثك عن فعاله لنشترك فى الحكم سوياً .

ألسست فى الخامسة والعشرين من عمره عندما تبدأ مأساة حياته . دلف إلى الوجود بضمير نقى صلب ، وقد وطد النفس على مطاردة الكذب أنى كان ، وعلى الجهر بالحق فى كل مجال . ولم يغب عنه أن الكذب ملء الآفاق وأن مهاجمته تتطلب جهداً لا ينقضى ، ولقد حدث عما فى قول كل حق من خطورة على قائله وعلى الغير ؛ ولكن قوة ضميره تأبى أن تلين . ومن غرائب المصادفات ، بل قل ومن أمارات غموض النفس الإنسانية ، أن أولع هذا الساخط المتزمت « بسليمين » : امرأة لعوب تتصيد إعجاب الرجال وكلمات إطرائهم ، على نحو ما يجرى فى الأوساط « الراقية » ، وقد اتخذت لذلك عدته ؛ ففى حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما فى ألوان وجهها وأصباغ شعرها . فلئن كان ألسست ضميراً ينطق بمكنونه صادقاً صريحاً ، فسليمين أكذوبة اجتماعية تتحرك ! ! ومن عجب أن يحبها ألسست حباً صادقاً عميقاً ؛ يحبها لعيوبها ، ولكنه ساخط على نفسه ، إذ حمله هذا الحب على أن يغضى عن مبادئه ؛ ولكم كان أجدر به أن يتخير لحبه امرأة تتمشى وآراءه . أما وقد ساقته نفسه إلى غير ما ينبغى له فليحاول إصلاح تلك المرأة وليقل لها فى صراحة وحزم مايؤله من أمرها .

على هذا وطد ألسست عزمه : ها هو يسير إلى بيت « سليمين » فيعثر فى الطريق

بصديقه « فيلينت » — شاب من سنه أتى الحياة بنفس راضية تقبل الناس كما هم ، يبتسم لكل من يلقى ، ويجامل كل من يصادف بمهارة تمكنه من الحياة وسط الأكاذيب الاجتماعية فى يسر لا يعدله يسر .

ووصل الصديقان إلى بيت سليمين فلم يجداها ، فهاجت هائجة ألسست ، وأما فيلينت فتلقى الخبر بابتسامة راضية ، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث انتحى ألسست ركناً ، وقد عبس وجهه وأمسك برأسه بين يديه كأنه يمسكه عن أن يطير شظايا ؛ وكان فيلينت يعلم منه ذلك ، ولكنه رآه هذه المرة أشد عبوساً مما عهد . ألم يأت ألسست هذا اليوم خصيصاً لينفض ما فى نفسه وقد نفد صبره وأزمع على أن يصل مع سليمين إلى أمر صريح يرضاه ؟ أتى بعد أن أعد ما سيقول ، وإنه لفى لهفة لأن يقول ما أعد ، ولكن لمن يقوله وسليمين خارج البيت وهو لا يدرى أين تكون ؟ .

وهال فيلينت ما يرى من ضيق صاحبه فسار إليه مربتاً على كتفه متسائلاً :

فيلينت : ما بك ؟ ما الأمر ؟ .

ألسست : (متمتماً دون أن يحرك ساكناً) أرجوك ! . . . اتركنى لشأنى !

ولكن فيلينت يلح عليه فى السؤال فيصيح ألسست مغضباً . دعنى وشأنى — قلت لك — اختف عن بصرى !

وأراد فيلينت أن يستوضحه الأمر فذكره بصداقتهما ، ولكنه لم يكد ينطق بتلك الكلمة حتى قفز ألسست من مكانه ووقف أمام صديقه وهو يصيح مغضباً : أنا صديقك ؟!! أمح هذا من دفاترك ! ربما قد كنت صديقاً لك يوماً ما ، أما اليوم وقد رأيت منك ما رأيت فلا أريد أن أكونه ، وما أريد أن يكون لى أى مكان بتلك القلوب الفاسدة .

ودهش فيلينت لهذا الغضب الطارئ ، وألح على صديقه أن يخبره عما كان منه ، فقال ألسست : إليك عنى ! أو ما تموت خجلا مما فعلت ؟ إن فى فعلتك ما لا يمكن أن يلتمس له عذر . إن فيها لما يثير حفيظة كل رجل شريف : تلقى رجلا تغمره بلطفك المسرف ، وأيمان ودك ، وسخاء نفسك ، وتورطه بثورة قبلاتك ، ثم لا يكاد يولى فأسألك من الرجل فلا تستطيع أن تخبرنى حتى باسمه ! ! وكأنما حرارة قلبك قد بردت بمجرد افتراقكما ! يا لها من نذالة ! ألى هذا تنزل بنفسك ؟! إنى أفضل أن أشنق نفسى على أن آتى فعلة كفعلتك هذه .

ويضحك من بالمسرح ؛ وإلى إثارة هذا الضحك قصد موليير ، وإلا لاتهمه لويس الرابع عشر ، وكل من حوله من أشراف بمهاجمة آداب اللياقة « الكاذبة » التى كانت

فرنسا تفخر بها فى ذلك الزمن .

ويتلطف فيلينت مع صديقه لأنه يعلم ما فى نفسه من طيبة لا شك فيها ، فتلين عبارات ألسست وتتزن كلماته : « أريد أن يكون الإنسان صادقاً مخلصاً لنفسه ، فلا يقول إلا ما يؤمن به قلبه » .

ومن يستطيع أن ينكر نبل هذا القول وصدقه ؟ أو ما ترى إلى المخلصين من الناس كيف يقسطون فى اللفظ ؟ ولكن فيلينت يحاول فى عبارات هينة لينة أن يحمل ألسست على الإقرار بأنه يجب أن ترد المجاملات بمجاملات مثلها ، إذ أننا بعملنا هذا لا نسىء إلى أحد ، ولكن هيهات أن يبلغ من ألسست ما يريد : « لا لا ! بل يجب أن نقسو ما استطعنا على هذا التظاهر الباطل بصداقة لا نؤمن بها . يجب أن نكون رجالا فى كل مقام ، نجهر فى ألفاظنا بمكنون نفوسنا — يجب أن تنطق نفوسنا لا ألسنتنا — يجب ألا نخفى حقيقة مشاعرنا تحت بهرج المجاملات » .

إلى هنا يستطيع نفر غير قليل من الناس أن يسلم بما يطلبه ألسست ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، حد ألا نقول غير ما نعتقد ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويطلب أن نقول كل ما نعتقد ؛ وفى هذا لا ريب ما يقوض حياة اجتماعية دعائمها لو تأملنا أكاذيب صارخة .

ويأتى إلى البيت زائرون آخرون فيسارع ألسست إلى إخبار أحدهم بأنه متطفل دخيل وإلى الأخرى بأنه قبيح بامرأة عجوز أن تتزين تموبها الجمال فقدته منذ زمن بعيد . ويستنكر الناظرون منه ما يفعل ، ويسخرون من قحته ؛ ولكنه لا يأبه لهم ، وفى قرارة أنفسهم أن الناس أغلبهم منافقون جديرون بالبغض ، وما دام هذا هو شعوره نحوهم ، فمن أين يأتيه الحرص على رضاهم أو إعجابهم ؟

وفيما نحن نرى ألسست يسرف فى تطبيق مبادئه ليؤكدها ، وليُضحك فينجو موليير من الاضطهاد ، يأتى الشاعر « أورونت Oronte » ويدور حوار بينه وبين ألسست ينتهى بأن يخرج أورونت من جيبه مقطوعة شعرية من ذلك الشعر المتكلف الرخو البارد الذى ينظمه أصحابه ليسمعوه لأولئك النساء المتحذلقات الخاويات النفوس ، ويختم مقطوعته بالبيتين : « أيتها الحسناء ، إننا لفى يأس وإن كنا لن نزال نأمل » وتثور ثائرة ألسست فيوصى شاعرنا أن يحمل مقطوعته إلى « المرحاض » ؛ وليظهره على مبلغ تكلفه الباطل يسمعه مقطوعة ساذجة جميلة من الشعر القديم .

وتضج قاعة المسرح بالضحك الذى لا تهدأ له ثائرة حتى تدخل سليمين عائدة من المدينة .

وليتصور القارئ بأية حالة نفسية مريرة يلقاها ألسست : « لا يا سيدتى ! أتريدين أن أصارحك القول ؟ إن فى سلوكك ما لا يمكن أن أرضاه . . . الخ » .

والحاضرون لا شك متسائلون . بأى حق يغضب ألسست ربة الدار وهو ضيف بمنزلها وما له أن يقف منها موقف المؤنب . ولكن ، أو ما يحب ألسست سليمين ؟ ومتى كان الحب يعرف حقوقاً لأحد ؟ ثم ماذا يريد ألسست ؟ أليس يقصد إلى الخروج على آداب المجاملة لأنه يؤمن بكذبها ؟ وهل يستطيع ألا يخرج على تلك اللياقات الزائفة ؟ لكم كنا نود لو كانت ثورة ألسست موجهة ضد ما فى صميم الأخلاق من نفاق ، ولكنا نطلب بذلك إلى موليير أن يغير روايته من كوميديا إلى تراجيديا ، وهو بعد يتخذ من الإضحاك تقية ؛ وهو يحيا فى مجتمع سطت عليه آداب المجاملة ، حتى اختلطت بقواعد الأخلاق الإنسانية ، وأصبح من العسير أن نقيم بين الميدانين حداً بيناً . ليثر إذاً ألسست ضد مواضعات اللياقة وليضحك منه الجمهور ؛ ولكن من منا لا يحس بما قصد إليه موليير ؟ ومن منا لا يفطن إلى ما تركه لنا هذا الروائى الذكى الفؤاد من وجوب التماس مقاصده البعيدة خلف هذا الإسراف المضحك ؟!

وما تكاد سليمين تعود إلى منزلها حتى يواتيها به جمع حافل من المراكيز المعجبين بها المتملقين لجمالها ، فتزداد ثورة ألسست ؛ وتنتظم الجماعة حلقة تأخذ فى اغتياب الناس ، وألسست يرقبهم عن بعد ونفسه تغلى غيظاً . ولكن فيم يريدهم أن يتحدثوا ؟ أفى السياسة وفى ذلك ما فيه من خطر ؟ أم فى الثناء على الناس ، وليس أملّ من الثناء ؟ أم فى الأفكار العامة وهم لا يملكون منها شيئاً ؟ ليس لهم إذاً إلا اغتياب « معارفهم » ، وهذا هو النوع الوحيد من الحديث الذى يمكن أن يأخذ فيه قوم على شاكلة هؤلاء فيجدون فيه شيئاً من اللذة . وتضيق نفس ألسست بما يسمع ، فيحاول أن يلقى تبعته على المراكيز ، ولكنه لا يلبث أن يواجه سليمين نفسها برأيه : « لا يا سيدتى ، إن فى مسراتك ما لا يمكن أن أقبله ، وإنه لمن الحمق أن نحب فيك نقائص نمقتها » . وهكذا يلزم ألسست الحضور الصمت وينفد صبر سليمين فترغب فى الخروج إلى الشرفة ، ويحس المراكيز منها هذا الضيق فيهمون بالانصراف ، ولكنها تمسكهم تأدباً . ويغضب ألسست من ذلك فيعلن أنه لن يخرج إلا إذا خرجوا جميعاً .

وتضيق بالحاضرين أنفاسهم ، وسليمين صابرة كاظمة غيظها ، ويتحرج الموقف ، ويتساءل الجميع : كيف السبيل إلى الخلاص ؟ ويأتى ألسست رسول من قبل رجال الإدارة يطلبه لأمر ما ، ويحسب الحاضرون أنه سيخرج لما طلب له ، ولكنه يكذّب ما يتوقع

الجميع ، إذ يدعو الرسول إلى الدخول بحجرة الجلوس . وبعد حوار بينه وبين الرسول يخرج ألسست ؛ وبهـذا تنتهى الرواية ، ويخلو الجو لسليمين والمعجبين بها يتبادلون عبارات المجاملة المعسولة .

يخرج الحاضرون وهم يتساءلون عما قصد إليـه موليير — إن فى تصرفات ألسست ما يخرج وما يضحك ، ولـكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ، وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء تقوِّم به ما يخرج فى حياتنا عما يجب أن تطرد عليه فى عرف المجتمع ؟

غادر ألسست تلك الجماعة التى لم يستطع أن يحيا بينها ، وما أشبهه فى هذا بذلك المبصر الذى انتهى به المسير يوماً إلى مملـكة العميان ، فأخذ يحاول عبثاً أن يقنعهم أن هناك ضوءاً ، وأن فى هذا الضوء جمالاً ؛ فأبوا واستنكروا وضعفت وحدته أمام جمعهم ، وقد تعاقب العمى فيهم جيلا بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يؤمنون بغيره ، فطلبوا من المبصر أن يفقأ عينيه ليصير مثلهم فيزوجوه من تلك الفتاة التى أحبها ؛ ولـكن هل لبصير أن يغادر الضوء لأن جميع من حوله عميان ؟ أو ليس من الخير له أن يغادر جماعتهم عن أن يغادر الضوء ؟

غادر ألسست المجتمع البشرى لما فيه من كذب ونفاق وجبن ؛ وما ندرى أين يستطيع أن يعيش . ولـكن ، هبه لم يجد مأوى غير الصحراء ؟ أليست صحراء يملأها المرء بما فى قلبه من حب صادق للشجاعة والاخلاص وقول الحق ، خيراً من قصور لا تهب فيهـا إلا رياح النفاق وبؤس النفوس ؟ ؟ ؟

بيتريس

Beatrice

سنة ١٢٦٥ — سنة ١٢٩٠

(١)

فى عهد الشباب Vita Nova

« عندما نسمو من مظاهر الجمال الدنيا إلى الجمال الكامل نلمح ضياءه ، نحس أننا قد دنونا من الحب . وفى الحق ما الحب إلا شوط نبدأه مما فوق هذه الأرض من جمال ، والبصر منعقد بالجمال المطلق ما نزال نرتفع إليه درجة فدرجة على طول السلم : من جمال الأجسام إلى جمال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصل إلى المعرفة المطلقة التى هى إدراك الجمال المطلق . إدراك ذلك المثال الخالد الذى تمنح مشاهدته الحياة قيمتها » .

بذا يتحدث سقراط فى مائدة أفلاطون عن مراحل الحب الذى هو سعى وراء الكمال ، وإليه وصل « دانتى » Dante يقوده جمال « بيتريس » ولكن ترى أحقيقة ما يقول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدى يرنح بؤس الحياة فى أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانت ، وقد رأى فى النفس البشرية «طفلة تجمع فيها النزوات بين البكاء والابتسام» يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فإذا هى تستحيل رمزاً للإيمان ، وإذا هى تلوح له فى الجنة ، وقد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هى منه كالطائر من العش ؟

يا عجبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هذا القلب الكبير ، فترتد الابتسامة شعراً كم هز من نفوس ، وقد سكن دانتى إلى قلب بيتريس يغمره ضياؤه ، فإذا به قبس من شعاعها ؛ وإن يكن قد دفع ثمن هذا السكون الذى لم يركن إليه إلا منهكا ، وقد ألقته أمواج الحياة إلى شاطىء النفى ، ولكم استشعر من ألم « فى أن يرقى سلماً إلى الغير ، ولكم وجد من مرارة فيما قدم إليه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاءً فى ابتسامة بيتريس تطالعه من غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جمالاً فيه أعز نشوة ، نشوة الخَلْق .

ولدت بيتريس مع دانتى سنة ١٢٦٥ بمدينة فلورانس مهد الفن الجميل ، إذ أكبر الظن

أن أحد أبناء الشاعر قد كشف القناع عن حقيقتها التاريخية ، عند ما أخبرنا أنها بنت فولكو بورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينة إذ ذاك ، ورآها الشاعر لأول مرة فى حياته وهما فى التاسعة من عمرها ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه وعنها تحدث أجمل الحديث فى مجموعة من الشعر والنثر Vita Nova « عهد الشباب » حيث التمس لما قال من شعر مناسبات يقدم لها نثراً ، فإذا نحن أمام قصة اختلط فيها الأدب بالحياة كما اختلطا بنفس دانتى ، التى اهتزت لكل شعور ، واتسعت لكل معرفة . قال : « رأيتها فى ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقد علق حزامها الثوب فيما ينم عن طفولة خالصة ، فاهتزت فى قباب قلبى الخفية روح الحياة ، وسرت تلك الهزة العنيفة بأوعية دمى ما دق منها وما جل ، وصاحت بى روح الحياة : ها هو إله أقوى منك سلطانا ، ها هو قادم ، وإنه لمخضعك . ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسى التى أضحت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالى من قوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له فى كل أمر ، ولكم عدوت فى الطرقات وأنا بعدُ غض الاهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبل ما يحق معه أن نقول فيها ما قال هوميروس : فى الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله » .

ولقد وصفها بوكاشيو بقوله : « كانت جميلة حتى لتسبى النفوس — جميلة بطفولتها ، وبما امتزج فيها من جلال ودعة ، تحس فى حديثها وفى طبائعها من الوقار والتواضع ما لا يتفق عادة للأطفال ، وفى ملامح وجهها رقة وانسجام . لقد اجتمع لها من الجمال والسحر ما حمل الكثير على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر » .

وبالرغم مما كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانتى أليجييرى Alighieri من صداقة قديمة يزعم الشاعر أنه لم ير فتاته إلا بعد تسع سنوات أخرى ، حتى لكأن هذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة فى ذلك العهد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثالوث المقدس ، مما ينبئ بما ستصير إليه تلك الفتاة — رآها هذه المرة فى ثوب أبيض ، وهى مارة بإحدى الطرق ، وإلى مكانه اتجهت ببصرها وعلى شفتيها ابتسامة ، وتلقى الشاعر ابتسامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانتى إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقدار عطف أمهاتهم منذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً أن يجد فى زوجة الأب عوضاً عن أمه ؟ وطاردت دانتى ابتسامة الفتاة يراها فى أحلام يقظته ، كما تعشى بصره فى ظلام الليل ، حتى نحل جسمه ، وشحب لونه ، وأخذ الناس يسألونه ما به ، وللحب أمارات لا تكذب ،

وسألوه : لمن يحمل هـذا الحب الذي أضناه ؟ فلم يحر جواباً ، إلا أن تـكون نظرة حائرة يصعدها فيهم ، ثم يولى هاربا ، وعلى شفتيه ابتسامة تترقرق .

وجرت الألسنة بما كان من أمر حبه ، وود الشـاعر لوخدع من حوله عن حقيقة ما يشعر ، فتراه طوراً « كالمعدم يتظاهر بالمرح ليوارى عن النـاس ما به من ألم » وطوراً يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله فى مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل ، فيتغنى بغير من يحب دفعاً للريبة ، ولنذكر قول نعم لعمر بن أبى ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لـكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وكان على دانتى أن يسلك هـذا السبيل . والتاريخ يحدثنا أن بيتريس فى سنة ١٢٨٥ كانت متزوجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon dei Bardi ، وكان دانتى على الراجح قد خطب زوجته چمادوناتى Gema Donati ونحن عندئذ فى القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانتى أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة .

ولـكن ترى لِمَ لم يتزوج دانتى من بيتريس ؟ ذلك ما لا يعلمه إلا الله . ولـكننا نعلم أنه لم يقف عند حبه لبيتريس ؛ ولقد كان هـذا الحب منذ نشأته شبه تقديس ، وكانت له مغامرات غلى بها دمه ، فأطلقت لسانه بغير صيحة وبخاصة فى غرامه المبرح بامرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » . ومن عجب أن نستمع إليه يوماً يشكو من أن تلك المرأة قد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، ولـكم ألِمَ لهذا الحب العنيف . ولعله لم يصب التوفيق فى حبه لبيتريس ، فالتمس عنه بديلا ، وإلى هذا تشير بعض أشعاره . ألم يقل يوماً : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربعة بقمة أفـكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، وإنها لمغتبطة ضاحكة . ترفع إلىّ بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلا : إليكِ عنى ! إليك عنى ! بذا ينطق موضع رغباتى فيحز الألم فى نفسى ، وإن تـكن وطأته قد أخذت تخف ، إذ أن إحساسى قد أنهك وأوشك أن يصل إلى نهاية قدرته على الألم . عند ما لاحت لى تلك الفتاة كنت غض الطفولة — بذا تحدثنى ذاكرتى التى أخذت تمحى صفحاتها . ومنذ ذلك اليوم لا أزال أقاسى آلام الشهداء ، حتى لـكأن صوتها الذى انطلق إلى فؤادى قد أمسك قواى عن النمو » .

وعلى من يَصْدُق هـذا القول إن لم يكن على بيتريس ؟ ترى إذاً أشقى دانتى بحبه لبيتريس حتى إذا ماتت سـنة ١٢٩٠ طهر الموت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الـكمال ؟

ذلك ما لا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان فى شعره ما يرجحه ، ولكنا نعلم عن يقين أنه قد تخبط فى شهوات الحب ، كما تخبط فى شهوات السياسة حتى شقيت حياته ؛ وإلى هذا يشير فى أول « جحيمه » عندما يقول : « كنت فى منتصف الحياة وإذا بى وسط غابة مظلمة ، وقد ضللت الطريق . آه . ما أشقه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغابة التى تجدد ذكراها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، ولقد كنت عندئذ فى نوم عميق فحدت عن سواء السبيل » .

ولقد أنبته بيتريس لضلاله هذا أعنف تأنيب عند ما لاحت له على حافة الاعراف قبل أن تقوده إلى الجنة .

وفى الحق أن نفس دانتى كانت نفساً عنيفة صاخبة ، وفى الحق أنه قد انغمس فى الحياة ، بل لقد بلغ من عنفه يوماً أن صاح فى شعره وهو يشكو قسوة امرأة : « آه ! ليتنى أستطيع أن أمسك بتلك الضفائر الشقر التى صاغها الحب حلقات ذهبية ألقى بها حتفى ، إذاً لعرفت كيف أنتقم لنفسى ولأمسكت بتلك السياط التى طالما ألهبتنى ، ولبقيتْ بين يدى من انبثاق الفجر إلى أن تدق نواقيس المساء ؛ ولن استشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كدُب يلعب . وما دام الحب لا يمسك عن أن يسوطنى بها فمالى لا أنتقم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التى ترسل إلى قلبى هـذه النار التى تحرقه ، فسوف أحدق فيها عندئذ عن قرب وأطيل التحديق جزاءً لها على الفرار منى ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيها الحب والاستسلام » .

ولكنه رغم كل مغامراته التى مزقت نفسه لم ينس يوماً « بيتريس » بل ظل وفياً لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيتريس — كانت بدأ لمغامراته ، إذ أن ذلك مما يتمشى وطبائع البشر . ألست ترى أن ألماً قوياً أو حزناً ملازماً خليقان بأن يحطا فى النفس كل قيادة ؟ ونحن نعلم أن دانتى لم يتزوج إلا بعد وفاة بيتريس .

نعم ظل دانتى معلقاً بابتسامة فتاته يستلهمها الشعر وكأنها ما تزال عذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل يوما قيس بن الرقيات بأم البنين ، رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغزل الماجن عمر بن أبى ربيعة بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، بل وبأخت الخليفة عبد الملك بن مروان وبينته ؟ وما دام الغزل عفيفا فما الذى يمنع دانتى من أن يتسقط الشعر من شفاه بيتريس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملا بما يشبه وصية نُعم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقية ، وتخشى الفتاة منه المروق عن حبها

فتغضب ، وتأبى أن تعود إلى تحيته إن لقيته بسبيل أو « يقولَ فى شعر جميل ، إن تغزله بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء ورداً لأعين الرقباء » .

وتلك ولا ريب تقاليد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قوية كنفس دانتى أن تقف عندها . وإنه ليذهب يوماً إلى حفل يلقى به بيتريس على غير توقع ، فيلقى قناع الأدب المصطنع :

« لم أكد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدرى الأيسر ، وسرت الهزة إلى كل جسمى ، فاستندت إلى الجدار ، وخشيت أن يفطن أحد إلى ما عرانى ، فرفعت بصرى إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببيتريس ، فتخاذلت قواى حتى لكأنى فقدت الحياة إلا من عينىّ » .

ولم يغب عن أحد ما أصابه ، وتغامز به الحضور ، فولى هارباً إلى منزله يغلق بابه ، ثم يسلم عينيه للدموع ، وانجلت أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم تغنى بمقطوعاتها شاعر الليلاه :

« ما أكاد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد فى نفسى كل قدرة على الكفاح ، وما دنوت منك إلا صاح بى الحب : إلى الفرار ، إلى الفرار ، إن كنت تخشى الموت . وينم وجهى عن لون نفسى ، وقد تخاذلت قواى ، فالتمست لها سنداً . . . على أن سخريتك قد قتلت فى نفسى ذلك الضعف الذى ينشر فوق عينى تلك السحابة الحزينة حزن الموت » .

ويلقى دانتى سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسامة ساخرة قولا أشبه ما يكون بما قالته نساء العرب يوماً لجميل :

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل

فيجيب دانتى إنه كان يريد أن يقف حياته على سعادتها فأبت ، وإذاً فلينصرف إلى الإشادة بها ما ترددت أنفاسه :

« والآن وقد اتجهت رغبة السماء إلى فتاتى ، بودى أن أحدثكن عن بعض ما لها من فضل . على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها ، وهى ما تكاد تخطو حتى يجمّد الحب القلوب الفاسدة فتموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يرتفع إليها بصر حتى يفنى أو يرتد نبيلا ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصراً فأولئك هم الذين ينفذون إلى ما فى نفسها من جمال ؛ وما إن تبتسم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ، ويعمر الخير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتاة لنعمة خصها بها

الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه بحديثها عن أن يضل سواء السبيل » .

وهكذا استحالت بيتريس فى نفس دانتى رمزاً للكمال وسبيلا إليه ، حتى لكأنها فكرة أكثر منها إنساناً حياً . ومن لا يحس أننا نرقى الآن سلم أفلاطون ، ولم يعد فى الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم المثل حيث يختلط الجمال والخير والمعرفة ، وأى غرابة فى ذلك وقد بصّر Brunetto Latini برينتو لاتينى — الذى تحدث عنه دانتى فى الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بفلسفة أفلاطون . ثم ألسنا الآن بأزاء تقاليد الفروسية كما عرفتها القرون الوسطى ، عند ما كان الفارس الحق هو من يتخذ له سيدة يحبها فى الخفاء حباً أشبه ما يكون بالعبادة ، حباً يستلهمه البطولة كما يتلقى عنه وحى الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة فى حبه أم لم ترغب ؛ بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال . وأى سيدة تستطيع نظراتها أن تسقط شهوات النفوس لتحل محلها نور الإيمان ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت عبادتها فى نفس دانتى بحب بيتريس . وهكذا اجتمعت فى فتاتنا كل تيارات الروح التى شاعت فى القرون الوسطى ، فتركزت فى نفس دانتى التى تمثل ذلك العهد فى أعمق مظاهره حتى لكأنها نقطة الانقلاب بين عالمين .

ومع ذلك ليمت أبو بيتريس ، وها هوذا دانتى يحزن لحزنها ، ويود لو اتجه إليها بقلبه يشاطرها آلامها ؛ ولكن كيف السبيل ، ولم تدع ألسنة الناس إليها سبيلا ؟ ليس له إلا أن يستفسر عائداتها عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان . وحزن دانتى لحزنها حتى مرض ؛ وفيما هو يهذى رأى فيما يشبه أحلام اليقظة أن بيتريس قد لحقتْ بأبيها .

« ولم تكد تلك السيدة تنتقل عن عالمنا حتى لاحت لى المدينة وكأنها قد تيتمت بموتها ، وكأنى يومئذ أصيح بأمراء الأرض كما صاح چيريمى فى الكتاب المقدس : كيف للمدينة أن تحيا بدونها » .

وماتت بالفعل بيتريس ، وهى فى ريعان الشباب سنة ١٢٩٠ فى الخامسة والعشرين من عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ماتحوى من حور » ماتت ، ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل لربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان يغل من حماسته لها أو يقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانتى يتعهد ذكراها ، ولكم جنبته تلك الذكرى من عثرات . ألم يمر يوماً بأحد المنازل ساهم الفكر حزين النفس ، وإذا بامرأة جميلة تشبه بيتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفى نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن

يتردى فى حبها لولا أن لاح له شبح بيتريس .

« كان الوقت أصيلا . . . ولاحت لى بيتريس الخالدة فى ثوبها الأحمر الذى رأيتها فيه قديما طفلة عند ماوقع عليها بصرى لأول مرة ، وما كدت أتجه إليها بفكرى حتى عادت إلىّ ذكرياتها ، فهب الندم بنفسى أليماً ، وولت عنى تلك الرغبة الأثيمة التى أوشكت أن تضل بى عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعرف أفكارى غير بيتريس لها مستقراً » .

على أن الأقدار لم تشأ أن تهدأ لدانتى نفس ، وكأنه قد حاول أن يملأ ما تركته بيتريس فى حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا يغامر فيها ما استطاع حتى عاف هذا العبث الباطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداءً من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا فى ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجِبْلان Gibelins وهم جماعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظام الإقطاعى يعتقدون أن أسسه لن تثبت مالم يؤيدها الأمبراطور بسلطانه ؛ ثم حزب الجِلف Guelfes وهم رجال الطبقة الوسطى الذين يغارون على حرية المدن وحرية الأفراد ، ويرون فى بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية . وكان دانتى من أتباع هذا الحزب الأخير ؛ ولكن الأمر لم يكد يستتب للجلف بعد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وسود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها العقائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بممالأة الامبراطور ، وانتصر السود فى المعركة ، فشتتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانتى ، إذ حكموا عليه بالنفى سنتين فى ٢٧ يناير سنة ١٣٠٢ ، وبغرامة قدرها خمسة آلاف جنيه ، بل عادوا فى ١٠ مارس من نفس السنة فاستبدلوا بحكمهم هذا حكما أقسى ، يقضى بنفى دانتى نفياً أبديا ، بل بإعدامه حرقا إن وقع بين أيديهم ؛ وكان دانتى إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا ، فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شقى به شقاءً يكاد يعدل الموت .

وأخذ دانتى يجوب بقاع إيطاليا يحسن وفادته قوم ويتنكر له آخرون ، وقد أمل يوما أن يكوّن مع من نفى معه حزباً يتمكنون بقوته من العودة إلى مدينتهم العزيزة ؛ ولكنه نظر فإذا بشهوات النفوس تفسد مايدبرون فانفصل عنهم ، وقد انعقد عزمه على أن يكوّن على حد قوله « حزباً من نفسه » ؛ وتقاذفته أحداث الحياة ، وكلما ازدادت به عبثاً ازداد استجماما ، حتى تركزت قواه متبلورة حول شبح بيتريس يتخذ منه أنيساً لوحدته . ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع التغنى بما وصلت إليه من مراتب الكمال ، فأمسك لسانه وأخذ فى الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشحذ من مشاعر قلبه .

« لقد رأيت فيما يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملني على الإمساك عن التحدث بذكرى ذلك الملك المقدس ، حتى أصبح به جديراً ، فأخذت نفسي بالدرس ما استطعت ، وهي في السماء شهيدة بصدق ما أقول . ولو أن رحمة الله مدت من حياتي لقلت فيها مالم يقله في مثلها أحد من العالمين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ، فأرتفع إلى جوار تلك السيدة ، إلى جوار القديسة بيتريس التي تنعم اليوم بمشاهدة وجه ربها الخالد أبد السنين » .

وتحدث بالفعل دانتي عن بيتريس في الكوميديا الإلهية التي رآها في أحلامه فأنبأنا بها ، وقد أخذ يعد لكتابتها عدته . ولقد كانت بيتريس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل يستله من وسط تلك الغابة المظلمة ، غابة الضلال التي تعثرت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذي لاحت على حافته بيتريس نفسها تقود الشاعر في الجنة التي لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها .

(٢)
في الكوميديا الإلهية

كان دانتي يعز الإباء في كل نفس حتى في نفوس أعدائه ، ولا أدل على ذلك من لقائه لفاريناتا دلي أوبرتي Farinata degli Uberti زعيم خصومه بجهنم ، حيث كان بينهما حوار عنيف لم يمنع دانتي من أن يظهر ما يحمل لكبرياء هذا الرجل من إعجاب « وقد نهض فاريناتا وسط قبره المضطرم ناراً حتى أشرف على اللهب بصدره وجبهته ، وكأنه لا يحمل لجهنم غير احتقار الأبي » .

ومع هذه الكبرياء امتدت بدانتي محن الحياة ، وقد أودعه الله قلباً شاعراً كم دفعه إلى المغامرات يشقى بها في منفاه ، وكأنه يلتمس في ذلك الشقاء ملهاة . أو ما تراه يلتقي بجهنم أيضاً أستاذه برينيتو لاتيني Brunetto Latini فيود لو تمهل معه محبة له ؟ ثم ألم يلمح يوماً بإحدى طبقاتها شبحين تتقاذفهما الزوابع وسط ظلام دامس جزاءً لهما على ما استسلما إليه من شهوات النفوس ، فيلتفت إلى قائده فرجيل يرجوه التمهل حتى يعرف ما كان من أمرهما ، وكأنهما « حمامتان حملتهما الرغبة المتبادلة ، فبسطا في الهواء أجنحة حثيثة تقودهما إلى عش حبيب » ؛ وما يكاد يعلم أنهما فرنشسكا دي رميني Francesca de Rimini وحبيبها پولو Paolo حتى يطأطئ الرأس ، وكأنما ذهل عن نفسه لولا أن أيقظه فرجيل بقوله : ما بك ؟ فيم تفكر ؟ وفرنشسكا فتاة مسكينة ، حسبت أنها قد خطبت لپولو ، وإذا بها تزف لأخيه

الـكسيح ، وإذا بالحب يصلح ما أفسدته الأقدار ، ولـكن غيرة الأخ وضعت حداً لعلاقتهما ، إذ قتل الرجل زوجه وأخاه ؛ وشاءت نفس دانتى الرقيقة إلا أن ترى فيهما حمامتين تسعيان إلى عش ، رغم ما هما فيه من عذاب .

وكذلك كان أمر دانتى . فلـكم مزقت الشهوات نفسـه ! ولـكم أشقته تلك المرأة القاسية التى يسميها « الصخرة » Pietra ، والتى ولت دون أن تترك على صفحات التـاريخ أثراً . ولـكم ردد شعره ما أنزلت به من عذاب : « بودى لو واتانى القول فى صـلابة تلك « الصخرة » التى لا تزيدها الأيام إلا قسوة . لـكأنى بهـا وقد كست جسمها درعا من الصوان تتقى بها — إن لم تهرب — ما ترسله الجعبة من سهام رجوت لو أصابت منهـا مقتلا . وأما سهامها فهيهات أن ينجى منها عـدْو أو اختفاء ؛ وكأنها مجنحة تطير فتخترق كل الدروع . آه ! كيف السبيل إلى النجاة ، وقد استقرت بقمة أفـكارى ، كما تسـتقر الأزهار بأعلى سيقانها ؟ وما يعنيها من آلامى إلا ما يعنى زورقاً من بحر لا تحركه عاصفة ... آه ! ليتنى أرى قلبها ، وقد انشق كما انشق قلبى ، إذاً لتـكشف عن ظلام دونه ظلام الموت الذى يدفعنى إليه جمالها ؛ وما تمسك عن الطعن فى وضح النهار ، أو فى غياهب الليل » .

من جوف كل تلك الآلام طالعت دانتى ابتسامة بيتريس كما عهدها عند ما رآها لأول مرة ، وهما فى التاسعة من عمرها ، وقد ارتفعت إلى الجنة سنة ١٢٩٠ فى ريعان الشباب ، وبقى هو وحيـداً لا يملك غير ذكراها ، وقد تـكالبت عليه محن النفى وشهوات النفس ، لا يجد عزاءً فى غير الدرس يقيم به تمثالا على حافة القرون الوسطى ، تمثالا ينطق بمجد بيتريس . وفى الحق لو أنه اكتفى بالذكرى لما وجد غير الألم ، وهو القائل : « ما أشقها محنة أن نذكر وسط الشقاء أيام السعادة ! » وإنمـا أنجاه أن اتخذ من وحى ذلك الماضى ، من وحى بيتريس ، مادة لأروع ما أنتجت عقول البشر ، مادة للـكوميديا الإلهية ، وبوده لو استطاع بفضلها أن يصبح جديراً بتلك القديسـة التى تعلق بلحاظها فارتفعت به إلى أن اجتلى وجه ربه .

وفى الحق أن بيتريس لم تحبس عنه رحمتها ، فقد أرسلت إليه قائداً رفيقاً ينجو به من غابة الضلال التى تعثرت بها خطاه . وكان القائد ڤرچيل « ذلك النبع العـذب الذى تدفق بأجمل الشعر » يُغنى دانتى لياليه فى درسه والاستماع إلى عذب نغماته . ولقد أمّلت بيتريس أن يرى شاعرها بجهنم من ألوان العذاب ما يوقظه من غفلته فيحطم أغلال شهواته . ولعلها ودت لو وجد بلسماً فيما أنزل الله بخصومه الظالمين من عذاب . ولقـد رأى دانتى فى جهنم

ما تشيب له نواصى الأطفال .

وموضع العبرة فيما رأى هو نوع ما ينزل بالآثمين من عذاب ، فذوو الشهوات تتقاذفهم العواصف وكأنهم أوراق ذابلة ؛ وسفاكو الدماء غرقى فى بحر من الدم يغلى فيكويهم بناره ؛ وهكذا افتنت عبقرية العذاب فلاقت كل إثم بما يلائمه ؛ أو لا ترى إلى أولئك العرافين الكاذبين الذين يدعون العلم بالمستقبل ، وقد قلبت رءوسهم فأصبحت وجوههم إلى ظهورهم يسيل فوقها الدمع ، وذلك حتى لا يعودوا فيدعوا بُعد النظر يرسلونه إلى ما خلف الحاضر الراهن . ثم برتران دى بورن Bertrand de Born الذى أثار بشعره الابن ضد أبيه ، أو لم تفصل رأسه عن جسمه ووضعت فى يده ليحملها مثل الشعر كمصباح ينير له الطريق ؟! بل والمنتحرون أنفسهم نبتت أرواحهم بجهنم أشجاراً ، يمسك المار بغصن منها يكسره ، فإذا بالدم يتدفق منه مع صيحات الألم . لقد فروا من الحياة فعادوا إليها سجينى أغلفة الأشجار !

ولكم كانت دهشة دانتى عند ما نظر إلى هؤلاء الآثمين فلم ير منهم نادماً ، بل الكل ثائر على ربه يرسل اللعنة والسخط مختلطين بما يرسله من صيحات العذاب والألم .

وخرج دانتى من الجحيم ، وبخياله الخصب للآثمين أشباح كأنها تماثيل عذاب نحتت نحتاً ، ولكن ترى أيكفيه ما رأى لتصلح نفسه ؟ ثم كيف له أن يصعد إلى السماء وقد أثقلته الآثام كما تثقل الأمتعة المسافر ؟ وهبه ضمن السلامة فى مستقبله ، فأنى له بالماضى يمحو ما به إلا أن يكون رضوان من الله ؟ وشاءت بيتريس رسول رحمته أن يترفق ڤرچيل فيصحب شاعرها إلى المطهر حيث انتظرته هى بقمته ، ومن عجب أن يرقى جسمنا الكثيف إلى حيث تصعد الأرواح يغمرها نور الله ! أو لا ترى إلى سكان تلك الأعراف يشكون إلى ڤرچيل غير مرة ظلال جسم دانتى يمتد على أحدهم فيحجب عنه ضياء ربه ؟

ورأى دانتى بالمطهر أرواحاً راضية مستبشرة رغم ما هى فيه من عذاب ، وقد انقضى عهد الآثام ، وها هم فى سبيل التكفير عما اقترفوا تكفيراً يعدهم لصعود السماء .

وقد انتشر نور الله فى كل مكان وانعقدت كل روح على الندم تستشف خلاله المغفرة . والمطهر جبل يقوم بجزيرة تلطم الأمواج صخورها من كل جانب ، وقد انتشر النادمون على سفحه فى تسع درجات ، كلما سموت من درجة إلى درجة كان الإثم أخف والعذاب أهون . وسما دانتى حتى الدرجة الأخيرة فإذا بها نار تستعر وقد « زاد ظل جسمه لهيبها حمرة » فارتعدت فرائصه وأيقن أنه هالك ؛ وإذا بصوت يتغنى : « ما أسعد أنقياء القلوب ! » وانقلب المغنى آمراً يأمر دانتى وصحبه بالدخول إلى النار إن كانوا يبغون الارتفاع إلى أعلى ، فارتد

شاعرنا مذعوراً لولا أن هدأ فرچيل من روعه : « أى بنى ! ستاقى من هذه النار عذاباً ولكنك لن تلقى الموت ؛ ولقد قدتك خلال الجحيم رغم ما فيها من أهوال ، والآن وقد دنونا من الله — أترانا محجمين ؟ لا . لا . ثق أنك لو مكثت مدرجاً بتلك النيران ألف عام ماذهبت بشعرة واحدة من رأسك . صدقنى . وها هو اللهب أمامك ، ادن منه ثم ادفع إليه بكم ردائك لتتحقق من صدق ما أقول . هيا ! هيا ! خل عنك مخاوفك . أقدم » .

ولكن دانتى لم يحرك ساكناً « رغم ما يخزه من ندم » وإذا بفرچيل شاعر الهوى ، فرچيل قيثارة الشعر ، فرچيل الروح النافذة إلى خفايا القلوب يلتفت إليه قائلا بصوت يتهدج رقة : أى بنى — اذكر أنه لم يعد بينك وبين بيتريس من حاجز غير هذا . ثم التفت وعلى شفتيه ابتسامة الأب يداعب طفله بقطعة من الحلوى . وما إن سمع دانتى اسم بيتريس « الذى ما يزال مزدهراً بقلبه » حتى دلف إلى النار ، وفرچيل إلى جانبه يلهيه عن الألم بحديثه عن بيتريس . ولو أنك رأيته وقد رنحه أستاذه بقوله : آه . يخيل إلىّ أنى أرى أعينها على مقربة منا . لحسبته طائراً ينتفض وقد بلله الندى ، أو لحسبت النار قد استحالت برداً وسلاماً .

وما إن خرج دانتى من هذه المحنة حتى قاده فرچيل إلى ساق القمة التى سيسمو إليها فيجد « جنة الله فى أرضه » . وهنا استودعه رحمة الله ، إذ ليس لروح وثنية أن ترتفع إلى ما دون ذلك . وحزن دانتى لفراقه حتى لقد بكى بين « يدى هذا الأب الرحيم » ودخل دانتى وحيداً جنة الأرض حيث لم يسمع إلا طيراً يشدو وماءً يخر ، ولم ير إلا نباتاً أخضر ووردا مزدهراً . وفيما هو وسط هذه الغابة المقدسة لاحت له على الضفة الأخرى لنهر حورية رائعة تجمع الزهر باقة ؛ وما الحورية إلا ماتلدا Matelda ، تلك الصورة الشعرية الجميلة التى لم يصور شاعر أحلى ولا أرق منها — ماتلدا ملك الهداية يوجه خطى دانتى الأخيرة قبل أن يصل إلى هدف آماله — إلى بيتريس التى لن يستطيع أحد غيرها أن يرتفع به إلى الجنة ، جنة السماء .

أو ما حان الحين ليلقى دانتى سيدته وقد شق من أجلها لهيب النار يطهر به ما ارتكب من آثام ؟ أو ما تزال بيتريس تنقم منه ما تمزقت به نفسه من شهوات ؟ أو ما تزال تألم لما أثقل به ماضيه من عبث بأودية السراب ؟ ذلك ما نؤمن به وإلا لما قادته ماتلدا إلى نهر الليتيه Lethé نهر « النسيان » يشرب منه فيمحو من ذاكرته كل ما علق بها ؟ وقرب موعد اللقاء فكان على الشاعر أن يشرب من نهر آخر « إينويه » Eunoé نهر « الذكريات الطيبة » ليعود إلى عهد الطفولة ، عهد بيتريس التى صاح رسول من السماء يعلن قدومها . وإذا بصيحات النشوة تملأ الجو ، وإذا بالملائكة تنثر الزهر فى كل مكان ، والهواء يهتز ببيت الإنيادة الشهير :

« هيا ! هيا انثروا الزنبق حفنات » .

« وعند بعث النهار وقد اكتسى شرق الأفق لونه الوردى ، وسجت بقية السماء بهدوء جميل ، رأيت الشمس يوماً تبزغ خلال ظلال يحجب من ضيائها فيستطيع البصر أن يثبت لرؤيتها ؛ وهكذا خلال سحابة من الزهر تنثره أيدى الملائكة ثم يتساقط فوق العربة ومن حولها ، لاحت لى امرأة يجللها نقاب طويل أبيض وبرأسها تاج من الزيتون ، ومن تحت النقاب معطف أخضر يكسو ثوباً فى لون اللهب الحى . وإذا بروحى ، التى لم تستشعر منذ زمن بعيد فى حضورها ما ألفت من ذهول وخوف ، تتعرف إليها ، لا برأى العين ، بل بما ينبعث عنها من سحر خفى ، وإذا بحبى القديم يعود أقوى مما كان . ولم يكد يلمس عينى هذا السحر ، الذى مسنى بجراحه قبل أن أدرج عن طفولتى ، حتى التفت إلى يسارى فى خشوع كما يلتفت الطفل إلى أمه عند ما يناله خوف أو يصيبه ألم ، أقول لفرچيل : لم تعد بى قطرة دم لا تهتز ! لقد بعث الحب القديم أمارات لهيبه » .

ولكن أنى له بفرچيل يفهم عنه وفرچيل قد ولى ؟ ! ونظر إلى حبيبة طفولته فإذا بها على غير ما عهد ، وقد استحالت قاضياً صارماً يحدث الملائكة عما كان من ضلاله :

« لقد خُلق هذا الرجل كما يشهد (عهد شبابه) بحيث تستطيع كل فضيلة أن تخصب فى نفسه أروع الخصب ، ولكن حقلا تتساقط به بذور سيئة ، حقلا لا يتعهده أحد ، خليق أن يزداد ثمره مرارة كلما ازداد خصوبة — لقد قومت من هذا الرجل بنظراتى ، وقد تعلق بها فهديته سواء السبيل ، ولكنى لم أكد أدلف إلى حياتى الأخرى حتى انصرف عنى إلى غيرى . تركنى ليتخبط فى مسارب الخطيئة ، وقد خدعته تلك الصور الباطلة التى لا تستطيع أن تحقق ما تعد . وعبثاً حاولت فى ساعات إلهامه ، فى حلم كانت أو فى صحو أن أرتد به إلىّ ! نعم ! لقد ضاعت جهودى كلها سدى حتى لم أعد أرى سبيلا لنجاته غير أن أطلعه على ما أعد للآثمين من عذاب ، وهذا ما حملنى على السير إلى مدخل جهنم لألتقى به من أوكلت إليه قيادته ، أوصيه به خيراً وأدمعى مستهلات ؛ والآن لقد قضت إرادة الله التى لا مرد لها ألا يعبر الليتيه وألا يشرب من مائه إلا من يسكب فيه دموع الندم » .

ثم التفتت إلى دانتى قائلة وقد صوبت إليه سنان اللسان يحز فى نفسه حزاً : « قل ! قل ! أليس كل ذلك صحيحاً ؟ يجب أن تلحق بآثامك الاعتراف بها » .

واضطربت فى نفس دانتى كل قواه ، حتى لقد هم صوته بالإجابة فمات دون شفتيه ، فصمتت بيتريس هنيهة ثم قالت : « فيم تفكر ؟ ! أجب ! أجب ! ما دامت مياه هذا النهر

لم تستطع أن تحطم فى نفسك ماعلق بها من ذكريات محزنة » .

وأخذ الخزى والخوف بنفس دانتى فانطلق لسانه « بنعم » خافتة لم تسمع لولا أن نمت عنها حركات الشفاه . وكما تتحطم القوس عند ماتقسو فى شدها فلا تستطيع أن ترسل السهم إلى هدفها ، تحطمت نفس الشاعر ، فانفجر دموعاً وزفرات غص بها صوته . وعادت بيتريس إلى أسئلتها القاسية : « قل لى : أى أغلال لقيت بسبيلك فعاقتك عن المضى فيها وقد تعلقت بى رغباتك فقدتك فى سبيل الحب ، حب الخير الذى ليس لنفس أن تتطلع إلى سواه . قل لى : أى المغريات وأى الوعود لحت على الجباه فدرت من حولها ؟ » .

وأطلق دانتى زفرة كأنها ذهبت بما يملك من صوت فلم يستطع الكلام حتى أجاب باكياً « لقد حادت بخطاى خيرات العالم الخادعة منذ أن غاب وجهك عن بصرى » .

واستأنفت بيتريس : « لو أنك أردت أن تكتم أو أن تنكر ما تعترف به الآن لما خفى شىء من خطاياك ، وعند قاضيك عنها علم اليقين . ولكنه عند ما ينبعث الاعتراف من فم الخاطىء ، ترى سيف القضاء وقد انفل . ومع هذا لا بد أن تشعر بثقل ما حملتك خطاياك من خزى ، حتى لا تعود فتستمع إلى أصوات الغواية . هيا ! ألق عن نفسك قليلا مما يبكيك ، ثم استمع إلى لتعرف كيف أن جسمى الذى واراه التراب كان خليقاً بأن يدفعك فى غير ما سلكت من طرقات ، وهل أرتك الطبيعة أو أراك الفن جسما أنفذ سحراً من ذلك الذى أودعته سجينة وها هو اليوم قد عاد فاختلط بالتراب ؟ » .

وأحس دانتى بالندم ينشب فيه أظفاره ، فسقط مغشياً عليه ، حتى إذا أفاق أخذته فضائل الدين ، حيث غسلت نفسه مما بها غسلا ، وفتح عينيه فاستطاعتا أن تثبتا لجمال بيتريس ، وقد تجردت نبراتها من تلك القسوة التى أحسها فى حسابها له عما فرط من واجب الاخلاص لها حية ، والوفاء لذكراها ميتة . وما بيتريس الآن إلا روح خالصة تبصره بأسرار العالم الآخر ، عله يحملها إلى من تضم هذه الأرض من أرواح بائسة بحيرتها .

منذ تلك اللحظة لم يعد بين دانتى وبيتريس حجاب ، وها هى تسمو إلى الجنة ودانتى معلق بنظراتها خلال السموات التسع ، وقد أعشى بصره نور الله فعجز عن أن ينظر إليه إلا فى أعين بيتريس ، التى ما زالت تحنو عليه حتى استطاع أن يتلقى مباشرة نور ربه . ولم تغادره فتاة فلورنسا حتى وصلا إلى أقدام العذراء ، حيث تولى قيادته إلى خالقه — مصدر كل حياة — القديس برنار الذى تغنى بجمال مارية أعذب الغناء . وافترق الحبيبان ؛ وكان وداع الشاعر : « أبق لى رحمتك تتلقين بها روحى التى شفيتها — عند ما تفلت من جسمها متصاعدة إلى كنف الله » .

چوليان سوريل

Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » للكاتب الفرنسى ستاندال Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ . نموذج لذوى المواهب الذين تشاء الأقدار أن يشبوا بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم ينظروا فإذا بوقاحة المال وعزة المركز وصلف المحتد تتنكر لما وهبوا وتود لو درّجتهم أكفاناً من الاحتقار ، وإذا بكبرياء المواهب تحرق الأكفان .

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هذا المبدأ الجميل حتى لكأن الأطفال يرضعونه مع لبان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقد استقر فى نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الوجاهة الاجتماعية لا بد آتية فى آثار التفوق العقلى . ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحياة فى العشرين من عمره حتى تنهض أمام طموحه وإيمانه بملكاته أشد العقبات ؛ فكم من نفوس صغيرة ومواهب واهية قد دفعتها فى سبيله القرابة وحماية ذوى السلطان وقوة المال ودس النفوس الملتوية فسدت المنافذ ، وسبقته إلى غايات المجد ! وهكذا تتضور النفوس الممتازة ، وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق . وأما ملكاتها فماذا تجدى فى هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزناً ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاسها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائها من حقوقهم ، فيحتمى رجال الفن والعقل بعالم الأحلام ، بينما الطبائع المسالمة يتناولها اليأس فترضى بحياة متئدة الخطى ، راضية بما يتخلى لها الغير عنه وقد أضناها الجهد وهدها الظلم ، وأما الإرادات القوية — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا يعتمدون على حام ولا قريب يمهد لها السبيل فماذا تفعل ؟

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التى يحيون بينها ؛ فليطرحوا ما كبلوا به منذ الطفولة ، وليسكتوا ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو يختلج فى ضمائرهم من ندم ، وليشقوا سبيلهم فى جسارة عند ما تسنح الفرص ،

وليصطنعوا — إلى أن تسنح — كل قسوة ونفاق ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » : طيوراً جارحة ، وإن تكن يد الأداة الحكومية لهم بالمرصاد ، تقودهم إلى المشانق كما قادت سوريل الذى لولا عبوس القضاء لجثت تحت قدميه تلك الجماعة التى أنزلت بنفسه الخراب .

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى نفوذهم القديم ، ولكنه لا يزال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلة ، وقد انتفت من حولهم معاطفهم الضافية البيضاء ، وغطت رءوسهم قلانس تحليها شعور الخيل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينوبل ، وهى عائدة من غزواتها بإيطاليا . ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا بالخيل واقفة فى الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التى ترددها كل الألسنة عن معارك « لودى » و « أركول » و « ريفولى » ، فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ؛ ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح فى نظر ذوى السلطان غاصباً ، يورد النطق باسمه موارد التهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرفعون من تشاء رغباتهم ، ويخفضون من يستهدف لسخطهم ؛ فانعقد عزمه على أن يتخلى عن آماله فى الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذاً فليستبدل بالرداء « الأحمر » الرداء « الأسود » .

ولد جوليان لأب نجار فى قرية صغيرة ، وكان أبوه أمياً فظاً غليظ القلب . ولقد اتفق يوماً أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطياً كتلة من الخشب ممدودة قرب السقف وبيده كتاب يقرأه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء المناشير ؛ فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض ؛ ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتثرة هنالك ؛ ولكنه أمسكه بيديه الغليظتين صائحاً : « أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللعينة فى الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضييع وقتك ، بدلا من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة المناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والدموع تترقرق فى عينيه ، لا لما أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذى طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— إنزل يا حيوان لأكلك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأتى الأب سوريل بقطعة

طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يعود فيصعد إليه ، ونزل جوليان ، وطرده أبوه بعنف أمامه إلى المنزل ، وكم كانت حسرة الغلام عند ما نظر إلى النهر وهو يبتلع « ذكريات سنت هيلانه » أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً محمرة وأعيناً ساجية ؛ وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، غلام ضعيف فى مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحن قليلا إلى جانب ؛ وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديدتى البريق — ماهدأت نفسه — بريقاً ينم عن حرارة وعمق فى التفكير ؛ وإن لم تكن ترى فيهما ذلك اليوم إلا بغضاً مخيفاً ؛ ولقد كان شعره الكستنائى القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ فى مسحة الشر التى تلوح عليه عند ما يأخذه الغضب . وفى الحق أن جوليان كان أصيلا فى خلقه ، وفى ضمور خصره ما ينبئ بالخفة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة فى ميله إلى التفكير وفى شحوب لونه ما حمله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ، وإن عاش فسيكون عبئاً على أسرته .

وقد كان جوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعاً ، فكره إخوته كما كره أباه ؛ ولكم ضُرِب بالساحة فى أيام الأعياد .

لم يكد جوليان يدخل المنزل حتى أحس بيد أبيه القوية تمسك بكتفه ، فارتعدت فرائصه وتوقع الضرب ، ولكنه لحسن حظه لم يكن شيء من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بمرب لأولاده ، فلم يجد القسيس خيراً من تلميذه جوليان ، وقد توسم فيه كل نجابة ، فكرس على تثقيفه الكثير من وقته . وأروع ما كان فى ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأى أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلثمائة فرنك .

الابن : ولكنى لا أريد أن أكون خادماً .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادماً أيها الحيوان ؟ أتظن أنى أقبل أن يكون ولدى خادماً ؟

الابن : ولكن مع من سآكل ؟

وكان فى السؤال الأخير ما أحرج الأب سوريل ، وخشى أن يكون فى جوابه ما لا يقتضيه الموقف ، فثار ضد جوليان وأشبعه سباباً ، متهماً إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل المسيو دى رينال de Rênal عمدة القرية ، فوجده رجلاً غنياً من رجال الصناعة ، نظر إليه فإذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأســه فى لون بدلته الرمادية ، وأحس فيه رضا عن نفسه واعتزاز بذاته لا تجده إلا عند ذوى العقول الضيقة والخيال المحدود ، رجل تلخصت مواهبه فى أن يعرف كيف يحصل على حقه فى أسرع وقت ، وكيف يرجئ ما عليه إلى أبعد حين ؛ ومع ذلك فقد كان المعروف عن المسيو دى رينال أنه ابن نكتة حاضر البديهة ، والفضل فى ذلك راجع كله إلى دستة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دى رينال فكانت امرأة طيبة النفس ، فى الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها مازال يبهج الأبصار . وهال جوليان ما رأى من بذخ هؤلاء الناس ، وخشى احتقارهم له أو إدراجه فى عداد الخدم ، فعقد عزمه على أن يرغمهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غناهم وفقره ، وأما قلبه فأسمى من أن تناله وقاحتهم ، وقد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه مظاهر رضاهم أو إعراضهم وتلك هنات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم فى جراح نفسه ، فأخلص فى القيام على تربيتهم ، يأخذهم بالعدل دون إسراف فى العطف ، وكيف له بمثل هذا الإسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجئ إليه ضبط النفس والسيطرة على المشاعر ، بل والتظاهر بغير ما يضمر ؟ ولقد كانت له فى ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحماسة يوماً فى معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القائد العظيم ، ثم يفطن إلى ما فى ذلك من حمق قد يودى بمستقبله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعياً أنه قد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب . ولقد يخلص لقسيس قريته الود ، ويعترف له بالفضل ، ولا يغيظه منه إلا نفاذه لمكنون نفسه ، فما كان جوليان عميق الإيمان ، ولا كان ميله إلا الاشتغال بالدين صادقاً ؟ وإلى هذا فطن القسيس ، فاتخذ الشاب هدفاً له أن يخدع الرجل عما فطن إليه من أمره . ولقد تحس مدام رينال فى جوليان أصالة فى الرأى ، وقوة فى الإرادة ، واعتزازاً بالنفس ، تدهش له فتعجب به ، ثم ينشرح لذلك صدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ، وإذا بالشك ينجلى عن يقين ، وإذا بمدام رينال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاه ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقد اتجهت بكل عنف إلى الثأر من تلك الجماعة التى تحتقره لغير ذنب جناه ؛ ويكون فى موقفه من تلك السيدة العطوف ما يدهش . . .

كان من عادة مدام دى رينال أن تصطحب جوليان وصديقة لها إلى حديقة المنزل وقت

العشية ؛ وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يد المربى يد السيدة عفواً ، فسارعت السيدة إلى سحبها ، وحسب جوليان فى ذلك احتقاراً له ، وتنغصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالى ، حتى أتى الليل من جديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلسهم من الحديقة ، ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليد التى تراجعت عنه بالأمس ؛ وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجا إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العاشرة ، ودقت الساعة فأمسك بيد مدام دى رينال ، وتراجعت اليد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها فى يده ، بل عادت هى إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه ، وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ؛ ووجد جوليان فى استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لا نشوة الحب ، ولا نشوة اللذة البهيمية ، بل نشوة الانتصار المتعطشة إليه نفسه .

وذاع الأمر حتى لم يعد هنـاك معدل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذى دنسه ، ليذهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ؛ وقبل بالمدرسة لتفوقه الظاهر ، وهنالك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءاً . نعم إنه قد وجد فى « الأب » المشرف على المدرسة عقلا راجحا ، وقلباً كبيراً ، قدر مواهبه حق قدرها ، بل وأحس نحوه رغما عنه بحب لا ينبغى لرجل دين أن يخص به فرداً دون آخر ، وحبه كله لله وحده ؛ ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوماً : « نعم يا بنى إنى أستشعر نحوك العطف ، والله يعلم إن ذلك على الرغم منى ، وأنا لا أجهل أنه ما ينبغى لى أن أخص أحداً من البشر بحب أو بغض ، وأن أكون بينهم عادلا فحسب . أى بنى ! إن مستقبلك شاق ، وفيك ما ينفر النفوس المبتذله ، سيطاردك الحسد والنميمة ، وحيثما اتجهت أو ساقتك الأقدار ستشقى دائما بحقد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليمعنوا فى الكيد لك . وما أرى لهذا علاجا غير الركون إلى رحمة الله الذى شاء أن يجعل فى كره الناس لك عقابا عادلا لغرورك ، ليكن سلوكك نقيا ؛ وسوف ترى أن أعداءك سيبوءون بالهزيمة ما تعلقت بالحقيقة الخالدة تعلق الغريق بأسباب النجاة » .

وشاءت شهوات الحقد ودس النفوس الوضيعة أن يتخلى الأب المشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيرة إخوانه وحقدهم ، فأخذه معه إلى باريس حيث وجد له عملا كسكرتير للمسيو دى لامول De la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء نفوذاً فى ذلك العهد ؛ ومع ذلك قد نتساءل : أكانت مخاوف الأب من أجل جوليان

على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاقى يوماً المطران فأعجب به ، وأهداه كتاباً قيما عاد به إلى المدرسة ، فسكنت الأحقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق ؟ ثم ألم يحدث يوماً أن رفعه الأب المشرف نفسه إلى رتبة قارىء الكتب المقدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه فى تملقه بدلا من كرهه والحقد على مواهبه ؟ ولكن كل ما أصاب من توفيق لم يستطع فى الحق أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عدائه الظاهر أو الخفى .

وكانت إقامة چوليان عند المركيز دى لامول بباريس أشق من إقامته عند المسيو دى رينال عمدة قريته ، ولكم قاسى من احتقار المركيزة بنوع خاص ، هى وزائراتها ؛ ولكم ضاقت نفسه بأحاديث المركيز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لا يعدو أتفه الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحيما ؛ وكان إحساسه من الارهاف بحيث أصبح يشعر بجرح من كل نظرة ، وتولدت فى نفسه من العُقد ما جعله يخشى اعتداءً فى كل لفظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبادل الكل احتقاراً باحتقار ، وتعاليا بتعال ، حتى دانت له النفوس ، وبلغ الأمر ببنت المركيز نفسها أن أعرضت عن كل من يسمى إليها من أشراف لتتعلق به ؛ وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فعاودته طبيعته الخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ؛ ولكنه عاد فذكر ما كان من اضطهاد تلك الفتاة له فى أول الأمر ، ورأى فيها رمزاً لتلك الجماعة التى أذاقته مر الآلام .

« يالى من أحمق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بعائلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون خادما . ثم كيف يجمع المركيز ثروته ؟ أليس ببيعه أوراقا مالية عندما يعلم من القصر أنه سيحدث فى اليوم التالى ما يشبه انقلابا فى الحكم ؟! وآتى أنا الذى ألقاه القضاء الظالم خلف الصفوف ، أنا الذى أملك قلباً نبيلا ، ولا أملك ألف فرنك دخلا ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأترفع عن لذة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هذا الحمق — ليعمل كل لنفسه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحياة » .

وتذكر چوليان نظرات المركيزة وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الاجرام فى دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جميعاً ، وسقطت الفتاة وحملت من چوليان ، وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل ليمنح چوليان لقباً يدخله فى عداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيل إليه غروره أن چوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لا بد ولد طبيعى لأحد الاشراف تخلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسب إليه ، وإلا فمن أين لچوليان بتلك

الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية چوليان ؛ فاهتدى إلى مدام دى رينال ، وأملى القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرد قاسياً ، فثار غضب المركيز وعدل عن مشروع الزواج .

فثار چوليان وركب رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مدام دى رينال وهى تصلى بالكنيسة ، وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت المركيز ومدام دى رينال لإنقاذه بعد أن عجز الكل عن حمله على الفرار . ونهض چوليان موجهاً الخطاب إلى المحكمين بهذه الألفاظ :

« أيها السادة المحكمون ! إن شناعة الاحتقار الذى أريد أن أتحداه عند الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام . أيها السادة ! ليس لى شرف الانتماء إلى طبقتكم الاجتماعية ، وما أنا إلا فلاح بسيط ثار على ما أنزلته الأقدار من منزلة وضيعة . ثم إنى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، وإنى لمستحقه . لقد اعتديت على سيدة جديرة بكل احترام وكل تقدير . لقد كانت مدام دى رينال لى أماً ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أضمرت عليها من قبل ، وبذا وجب إعدامى أيها السادة . ولو أننى كنت أقل إجراماً لما منع ذلك نفراً من الناس من القسوة على دون رعاية لما يستحقه شبابى من رحمة ، ولا همّ لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشبان الذين ينشأون من أصل متواضع تقعد به الفاقة ، ثم تشاء الأقدار أن يصيبوا من التربية الحسنة وأن يستشعروا من الجسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنياء « الطبقات الراقية » . هذه أيها السادة جريمتى . وإنى لعلى ثقة من أنها ستعاقب أشد العقاب ، وبخاصة لأن قضاتى ليسوا من أندادى . وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحا اغتنى ، بل كلهم أعيان متزمتون » .

وواصل چوليان حديثه هذا عشرين دقيقة ، والنائب العام يتفزز فوق مقعده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان . وبالرغم مما كان فى حديثه هذا من عمق ، فقد تساقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أكثرهن فى ذلك اليوم !

وسيق چوليان إلى الجيلوتين بعد أن رفض توقيع استئناف الحكم .

هذا هو چوليان سوريل كما خلقه ستاندال ، فحقق فى شخصه ما عجز عن تحقيقه فى حياته ، فهو رمز لأحلامه . ولقد كان ستاندال من أشد المعجبين بنابليون ، فقد قص حياته فى كتاب رائع . وكان ستاندال ممن يدينون بمبدأ القوة الذى تم عنه كل رواياته . وهو أب روحى لنيتشه وأحد منابع ذلك التيار الجارف الذى اجتاح القرن التاسع عشر ، تيار العنف واستنكار

قواعد الأخلاق ، ذلك التيار الذى لو لم يصمد له تولوستوى لدمر الإنسانية .

چوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيراً وشقى بقسوة أبيه ، وحاول مجد الحرب مع نابليون بإيطاليا وبالروسيا ، ثم عاد بغير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليـا زمناً طويلا ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوثب الحركة ما كان يعجب به .

والآن ترى بم نحكم على چوليان ؟ والذى لاشك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البون بينه وبين جرزلو Greslou « تلميذ » بول بورچيه لبعيد . چوليان لم يولد خسيساً ولا شرير الطبع ولا محمولا على الإجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حياته مايؤيد ذلك ؛ أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحياة ، ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدى قسيس قريته وبين يدى الأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، وود لهما الخير من كل قلبه . ولقد كان چوليان بطبعه حيياً خجولا متواضعاً . ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشعره باحتقارها له ، ولو أنه كان بليد الطبع صفيق الإحساس لما انقلبت حياته مأساة . ولهذا ربما كان جديرا بالعطف وإن كانت وسائل انتقامه مما لا تطمئن إليـه النفس ؛ وقد أصاب بها أحيانا من كان موضع رعايتهم . وما ينبغى مهما تـكن الظروف أن نفقد الحس الأخلاقى فنضرب على غير هدى .

ابراهيم الكاتب

يقول المازنى — وما نريد أن نظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — «ولست أحتاج أن أقول إنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية ، وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى . . . ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ، ولا التفاتات ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغير احتفال ، وهو يعبس للدنيا ، وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى — كالعرق . وهو مغرى بالتفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا ريض سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة ، وأنا مغتبط بالحياة ، راض عنها ، قانع بها ؛ وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصدر ، وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع مما كان ، ولست مثله أومن بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالبنيمونيا الخ . . . الخ . . . فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى » .

[المقدمة]

وأنا بعد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المازنى » فلا . إلا أن يكون حدس لا يغنى عن اليقين . وإن يكن ثمة أمر يبلبل الأفكار ، فهو ذلك التعارض القوى بين مزاج الرجلين ، ونظرتهما إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعبس للدنيا وهو مغرى بالتفلسف ، نفور وعر ، متكبر عنيد ، فى نفسه مرارة ، وهو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق الدنيا على هواه ، وهو أخيراً قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة الذابلة تتقاذفها الرياح . . وأما إبراهيم المازنى فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق ، وهو يعد من المتفلسفين مرزوئين يستحقون المرثية ، وهو سمح متواضع ، ريض سلس عطوف مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، لا يرى فى الإمكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بإله واحد ووطن واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازنى بكل

الصفات الطيبة ، وأما سيئه فالويل له . ومن عجب أن تنظر فترى فى قسمات إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمات إبراهيم المازنى عند ما أصاب الأخير شيء من هرم النفس ، فتتساءل : أو لم يتبادل الرجلان يوما شيئاً من خصائصهما ؟ أولم يحفل المازنى بالحياة ، ويعبس للدنيا ، ويتفلسف فى نفور وكبر وعناد ومرارة ، حتى ملّ وكاد يستريح إلى اليأس ، فإذا به يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته وقد أخذ يرثى للمتفلسفين ؟ ذلك ما نكاد نجزم به ولنا أدلة كثيرة نكتفى بأقواها ، وهو ذلك السرور الذى يقطر من أطراف أصابعه كالعرق : سرور مِلح ؛ ابتسامة مرة ؛ عالم يراه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء فى إعادة خلقه ؛ نفس أَلِت حتى اليأس ، واستغرقت فى الحياة حتى مجتها ؛ ومن كان هذا شأنه لا نحسبه يصير رماداً كله . فتش تجد تحت الرماد ناراً .

وفى الحق أن إبراهيم المازنى رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسعة ، اتسعت حتى احتوت الأضداد . ولوأنك سألتنى أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيراً من أن أجمع مميزات الإبراهيمين قائلا : هذا هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة فكما أن الرجل استمرار للطفل ، وإن تغيرت القسمات ، كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين فى ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرقا . ولقد كان فى المرارة شعر كما ترى فى الابتسامة سخرية ، وما مات الشعر وأن نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد إليهما بحق چورچ ديهامل سر نبوغ الكتاب ، مؤكداً أنه إذا أخلى الرجل منهما فقد خلا من كل شيء وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفضلنا غلافه . ونحن بعد لا نستطيع أن نتتبع تاريخ تلك الظاهرة فى حياة رجلنا ، لأننا لا نعرف قصته ، وإنما نعرف منها مرحلة قصيرة تذكرنا بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك فى أزمتها وفقاً لطبائعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة ماتت مخلفة له ولداً ، وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف

عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها سميحة العاثرة الحظ ، التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأخد أقاربها ، وأخيراً نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التى نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيراً مع بنات خالته ، ولكم داعب شوشو وهى طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبا كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه ، وحاول أن يقاوم ذلك الحب فلم يستطع ، فود أن يتزوجها ، ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل سميحة الأكبر منها سنا ، وأصرت على أن تكون سميحة لإبراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ « على » الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شيء . وجرحت كبرياء إبراهيم إذ رفضت نجية أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهباً » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت فى الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ «على» والدكتور محمود ، وشفى وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئاً .

هذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلقط قسماته التى تجعل منه أنموذجا بشريا لا شك فى صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالمحك الذى يكشف فى الرخام عن تجاذيعه .

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لعدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التى كيفت تلك الاستجابات . نلمحه فى أول أزمته مريضاً ، ونراه فى آخرها مريضاً . ولعله غذى ألمه أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل المتشائم ، شعر الكتاب المقدس . ألا تراه يستهل قصته بإحدى آياته : « كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن . . . » ، بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء وكان صباح يوما واحداً » ، « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » ، « ارجعى ! ارجعى يا شوليت ! ارجعى ! ارجعى فننظر إليك » ، « أيتها الجالسة فى الجنات ! الأصحاب يسمعون صوتك فاسمعينى » . . . الخ الخ ، مما يفوح حزناً رقيقاً كم شعت به عبقريات منذ دانتى إلى ملتن وڤنى . لقد أشربت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التى تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما نتعلق به باطلا ، و « قبض الريح » ؛ ألا تراه

يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد الهشيم » ؟ ولا يغرنك منه تلك الفلسفة ، فالحياة كالمرأة الجميلة كلما أعرضنا عنها اشتدت وراءنا طلباً ، وإن فى إعراضنا للهفة ، وإن فى استهانتنا الظاهرة لحرصاً لصيقاً بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه : « ولكنك عبد الحياة ، عبدها الباكى الشاكى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء . وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى فى سجنك . لا بأس ! أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعاً . نعم ، غنِّ وتسلَّ كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب . . . لا أدرى ماذا أيضاً ! ولكن ألا تسمح لى أن أسألك : ما وحى الأزاهير الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس ! غنِّ يا عبد الأيام وأُلعوبة الليالى » (ص ١٨٨) أو لا ترى فى تلك النجوى صراع روح تودّ لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة ومغريات الحياة فلا تستطيع ؟ روح تهفو إلى أنْ يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد وحيها من أحد ولا من شىء ، كالزهر يرسل عطره ، والشجر يؤتى ثماره ، والينبوع يصدح خريره . وأنَّى لها بذلك وهى لم تر الحياة إلا سجينة ؟

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العضل حتى أصبح يحذرها فى يقظة مستمرة فلا يستجيب لندائها أو يحاطَ به . ماتت زوجته فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ، وفى معاودة الذكرى وإلحاحها ما يضنى . وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ على فأدهشتنى لأنها بإبراهيم أليق ، وفى لفتات ذهنه أدخل ! قال : « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما بقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجوداً منه بأن يكون حياة — استمراراً ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه . . . عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح يخفق بلا احتفال ولا يخرج من دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها . . . وتتعرى زهراتها من أوراقها ، وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ، ويطيرها النسيم هنا وهاهنا » (ص ١٦٤) . هذه هواجس ما أظنها تخطر لرجل كالشيخ على ببال ، وذلك لأنه — فيما أعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هى فلسفة إبراهيم التى لا أدرى سر نسبتها إلى الشيخ على ؛ وفيها لوعة تحدثنا بأن سخرية إبراهيم وجفافه الإرادى تعمية

تنشرها الروح بحركة آلية لتخفى ما فيها من حزن ومرارة . ولكم من مرة تتسقط نجوى إبراهيم القلبية فإذا هى : « إن السعادة لا تجنى فى الحياة بأن يرد المرء يده ، بل بأن يمدها إلى الثمار ليجنيها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم نقل إن تحت الرماد ناراً ، وإن فى تضاعيف السخرية شعراً ؟!

إبراهيم الكاتب نفس لا تزال تعرف الحماسة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بلبلتها المرارة فسخرت ! وكأنى بها تحن إلى أن تتعلق بشىء يملأ ما بها من فراغ يزيد هوته ما انساقت إليه من إعراض عن الحياة . نفس تود لو استغرقها شعور قوى . وهذا ما نلمحه فى تعلقه بمارى وشوشو وليلى ، على تفاوت فى النوع والنسب . تعلق بمارى وقد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وآخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياته الراحل . ثم انعقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها تفتح قلبها البكر كما تتفتح الزهرة لندى الصباح . وكان فى جرأة ليلى وقوة نفسها ونضوج أنوثتها ما جذبه وأوشك أن يعزيه عن شوشو بعض العزاء أو على الأقل أن يلهيه عن بعض ألمه . وإبراهيم نفس غنية كثيرة الحنايا .

إبراهيم الكاتب أنموذج بشرى لذلك النوع من الناس الذين يطول تفكيرهم فى أنفسهم وفى الحياة ثم لا يهتدون إلى فهم يرتضونه ، فينتهى بهم الأمر إلى التجرد من أنفسهم ومن الحياة يضعونهما أمامهم ليحدقوا فيهما بنظرة ساخرة مؤثرة وإن لم يعدموا أن تثور بهم من حين إلى حين موجة تأتى من القاع ، فإذا بهم يزبدون وإذا بالابتسامة تقطر مرارة ، وإذا بالسرور يتساقط من أطراف أصابعهم كالعرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر ، ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فيرى ما حوله من جمال الطبيعة يفطن لدقائقها ، « وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء ، فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيراً ؛ وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى أجوازها الرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا » .

والآن ترى أصحيح ما زعمه المازنى عندما قال عن إبراهيم الكاتب : « ليس بيننا من تشابه سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى ! » . وأنا بعد لا أدعى أن أزمة إبراهيم الكاتب قد اتفقت لإبراهيم المازنى ، فهذا لا يعنينى ، ولكننى أحس بوشائج روحية بين الرجلين . أو لا ترى أن لنفسهما لوناً وأن لحياتهما فلسفة ؟ كم تهزنى روحهما اللطيفة النافذة ! !

فيليسيتيه

Félicité

فيليستيه بطلة لقصة صغيرة للروائى الفرنسى الكبير فلوبير عنوانها « قلب ساذج » . كتبها المؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث أقاصيص » .

فى عنوان القصة وفى اسم البطلة مايشخص هذا الأنموذج المؤثر . ولو أنك طلبت إلىّ أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حق لما وجدت خيراً من « أم السعد » ، فإنا نحس فى هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليُستيه خادمة من خدم الريف : عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة يشع نبل حياتها المتواضعة الحزينة ، فلقد تراها تأتى من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة إلا هى ؛ وذلك لأنها لا تدرى ما البطولة ، بل ولا تفكر فيما تأتى . مثلها مثل كلب أمين ، لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لايذكر إلاما به من جراح يحييها ألمه . ولقد تنزل بها المحن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة معولة ، ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لذكيات العقل الذى ما يزال يلوك بلوانا حتى يجعل من التوافه جلائل الأمور . فيليستيه مثل حى للملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركتها كما هى بما تحمل من عظمة وبؤس ، وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف عند رأى ، وإنما هى سلسلة من الوقائع لا تخلف بنفس خادمتنا المسكينة غير الإحساس ؛ وأما التفكير فى معنى تلك الوقائع فذلك مالا تعرفه . فيليسيتيه تحيا الحياة دون أن تفكر فيها ، ولكم تذكرنى حياتها بقول المسيحية : « انس نفسك كى لاتعوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلا وصوتها حاداً . فى الخامسة والعشرين كانت تلوح فى الأربعين ، وعند ماوصلت إلى الخمسين لم تعد تنم عن أى سن . كنت تراها صامتة دائماً ، منصوبة القد متزنة الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آلية . فى كل فصول السنة كانت تلبس منديلا هنديا تشجبه بدبوس إلى ظهرها ، و « بيريه » تخفى شعرها ، وجوارب رمادية ، ثم « جونلة » حمراء ، وفوق قميصها « مريلة » كممرضات المستشفى .

ولقد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بنّاءً قتل فى سقطة من « السقالة » ، ثم ماتت أمها وتشتت أخواتها ، فآواها رجل فى عزبته واستخدمها صغيرة فى

حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترتعد من البرد تحت أسمالها ، وتشرب الماء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوهى الأسباب ؛ وأخيراً طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هى سارقته . والتحقت بعزبة أخرى عملت فيها كحارس « لحوشة » الدجاج ، ولكن زملاءها أخذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسيادها .

وفى مساء أحد أيام أغسطس (وهى عندئذ فى الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيد كولڤيل ، وإذا بلبها يطير لضوضاء لاعبى القيثارة وللأضواء المثبتة فى الأشجار ، ولألوان الملابس الزاهية ؛ للدنتلا والصلبان الذهبية وتلك الكتلة البشرية التى تقفز راقصة دفعة واحدة . هنالك انتحت فى تواضع ركناً ، وإذا بشاب ثرى المظهر يدخن البيبة وهو متكىء بمرفقيه على مجر عربة صغيرة يأتى يدعوها إلى الرقص ، ثم يقدم لها كوبا من عصير التفاح المخمر ، وفنجانا من القهوة ، وقطعة من الفطير ، ويشترى لها « كوفية » ، وكأنه أحس برغبة نفسها فعرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى يغادرها مسرعا .

وفى مساء آخر وهى فى طريق « بومون » أرادت أن تسبق عربة محملة بالشوفان كانت تسير أمامها فى بطء ، وبينما هى تمر ملامسة عجلات العربة لمحت «تيودور» الذى تقدم نحوها فى مظهر هادىء طالباً إليها أن تغتفر ما كان ، لأن الخطأ لم يكن منه وإنما كان من الشراب ؛ فلم تعرف بم تجيب وإن أحست برغبة قوية فى الهرب . ولفوره أخذ يتحدث عن المحصول وعن أعيان الناحية ، لأن أباه كان قد ترك كولڤيل وذهب إلى عزبة « الأيكو » ، وبذلك أصبحا جيرانا . أجابت : آه ! وأضاف أنهم يريدون منه أن يستقر وإن لم يكن هو فى عجلة ، وكان يفضل أن ينتظر حتى يعثر بامرأة على هواه ؛ فطأطأت رأسها . وسألها . هل تفكر فى الزواج فابتسمت قائلة : إنه ليس من الخير السخرية من الناس . كلا ! أقسم لك . وبذراعه الأيسر طوق خصرها فسارت مستندة إلى ضمته وتباطأت خطاها . لقد كانت الريح رخوة والنجوم تلمع ، وحمل الشوفان الضخم يترنح أمامهما على العربة ، والخيل الأربعة تجر أرجلها مثيرة التراب ، وعرجت الخيل إلى اليمين دون أن تؤمر ، وقبلها مرة أخرى ثم اختفت فى الظلال .

فى الأسبوع التالى حصل منها تيودور على موعد والتقيا بأقصى « الحوش » خلف حائط تحت شجرة منعزلة . إنها لم تكن فى سذاجة الآنسات ، إذ كانت الحيوانات قد علمتها ، ولكن العقل وغريزة الشرف منعاها من أن تسقط . وكان فى مقاومتها ما هيج

حب تيودور حتى اضطر لـكى يرضى ذلك الحب أو . . . لسذاجته أن يعرض عليها الزواج ، فترددت أن تصدقه ، ولـكنه أقسم أغلظ الإيمان . وبعد أيام اعترف لها بشيء معرقل ، ذلك أن أهله كانوا فى العام الماضى قد اشتروا له رجلا يذهب بدلا منه إلى الجندية ولـكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى آخر ، وكان فى هذه الفكرة ما يخفيه . ورأت فيليسيتيه فى هذا الجبن مظهراً من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتها نحوه . وأفلتت فى الليل لتأتى للموعـد وإذا بتيودور يعذبها بقلقه وإلحاحه ؛ وأخيراً أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقر العمدة ليسأل عن الإجراءات ويأتيها بالأخبار يوم الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهر . وعندما حانت تلك الساعة أسرعت فيليسيتيه إلى الموعد ، ولـكنها وجدت مكانه أحد أصدقائه ؛ وأخبرها ذلك الصديق أنها لن ترى تيودور بعد اليوم ، لأنه كى يأمن التجنيد قد تزوج بامرأة عجوز عظيمة الثراء هى مدام « ليهوسيه » من قرية « توك » .

لقد كان ألمها ألما مضطربا لا نظام فيه . ألقت بنفسها على الأرض وأطلقت صيحاتها ، ونادت الله الرحيم ، وأنّت وحيدة فى الحقل طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العزبة وأعلنت رغبتها فى الرحيل . وبعد شهر أخذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها فى منديل وذهبت إلى « بون لڤك » .

هنالك أمام الفندق عثرت باحدى نساء الأعيان ، امرأة فى ثوب الحداد اتفق أن كانت تبحث عن طباخة ؛ ولم يكن يلوح على الفتاة أنها تعرف شيئاً ، ولـكن مظهر الاستعداد الطيب والتسامح فى أجرها كان باديا عليها ، حتى إن مدام أوبان انتهت بأن قالت لها سآخذك عندى ؛ وبعد ربع ساعة كانت فيليسيتيه عند مدام أوبان .

ومكثت فيليستيه نصف قرن عند مدام أوبان ، وكانت نساء أعيان بون لڤك يحسدنها من أجل تلك الخادمة التى كانت تطبخ وتنظف المنزل وتخيط وتغسل وتـكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصان وتضرب الزبد و « تظغط » الطيور ، كل هذا مقابل مائة فرنك فى العام ، وفوق ذلك كانت وفية لسيدتها مع أنها لم تـكن سيدة طيبة .

كانت تستيقظ منذ الفجر حتى لا تفوتها الصلاة فى الـكنيسة ، وكانت تعمل حتى المساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهى العشاء وأعادت الأطباق المغسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها ومسبحتها بيدها . ثم إنها فى مساومة الباعة لم يكن أحد أشد منها عناداً ، أما عن النظافة فقد كان بريق أوانيها مصدر يأس للخادمات الأخريات . ولحرصها على الاقتصاد كانت تأكل فى بطءٍ ، وتلم بأصابعها فتات الخبز الذى يتساقط على

المائدة ، ذلك الخبز السميك الذى كان يصنع لها خاصة ، كل رغيف اثنا عشر رطلا تأكل منه عشرين يوماً كاملة .

أما مدام أوبان فكانت أيما ، إذ أنها تزوجت صغيرة بشاب جميل رزقت منه بولد هو پول وببنت هى فرچينيا . ثم مات زوجها فعاشت الأيم بعده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تحلق فوق كل شىء ؛ فالصالون مسجى بالحداد وقد أغلقته إلى الأبد ، والبيان متروك بالصالة ومن فوقه أعمدة من صناديق الورق ، وصورة «المرحوم» بالحائط تشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسى من القش وضعته أمام المدفأة التى كنت ترى على جانبها مقعدين آخرين من القماش لا يغادران موضعهما ، وفى المنزل كله رائحة تشبه العفونة تقطر حزناً .

وتتابعت السنون والأيام متشابهة إلا أن تكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ؛ ففى عام كذا أحضرت عاملا أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كذا سقط جزء من سقف الحوش فكاد يقتل رجلا ، وبعد ذلك بسنين ماتت إحدى صديقاتها أو انتقل أحد معارفها إلى بلدة أخرى .

ومع ذلك فقد جدت حوادث أعظم من كل ذلك خطراً . ففى ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتها ومعها فيليسيتيه إلى إحدى عزبتها ، وكان اليوم كثير الضباب ، وإذا بثور هائج يغير عليهم ، ولولا خادمتهم الشجاعة لافترسهم ؛ وذلك أنها أخذت تتناول قطع الطمى والأعشاب تلقيها فى وجه الثور متراجعة بظهرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجاة وأخيراً وصلت إلى سياج والثور يطاردها ، وبحسن توفيق تسللت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقد بطنها . وبهذا اليوم تحادث جميع الناس ، وأما هى فلم يخطر ببالها أنها قد أتت عملا نبيلا . وكان من أثر الخوف الذى نزل بهم جميعاً أن مرضت فرچينيا بأعصابها ، ولم يزل الداء يلح عليها حتى ماتت فكان حزن فيليسيتيه لموتها لا يقل عن حزن أمها ، وذلك لأنها كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرچينيا وپول على ظهرها كأنها حصان . ولئن كانت تلك الخادمة المسكينة قد وجدت شيئاً من العزاء ، فإن ذلك لم يكن إلا فى الخصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتكالبت المحن على فليسيتيه ، إذ أنها لم تكد تهتدى إلى مكان إحدى أخواتها وتتعرف إلى ابن أختها ڤكتور الذى كان يافعاً جميلا حتى سافر المسكين فى رحلة بحرية مع السفينة

التى كان يعمل بها بحاراً ، وكان سفراً مشئوماً ، إذ لم يعد منه . ولكم سألت فيليسيتيه عن تلك الجزر النائية التى قصد إليها ، ولقد أروها فعلا جزيرة هاقانا على الخريطة ، ولكنها لم تقنع بذلك بل ودت أن لو أروها — على الخريطة أيضاً — المنزل الذى سيسكنه فكتور عند وصوله ! ولكم كان حزنها مراً عند ما علمت بوفاته .

وكانت فيليسيتيه صادقة الإيمان بالدين إيماناً ساذجاً ؛ كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها والله يعلم أنها كانت خطايا هينة لا يحمر لها وجه عذراء . وأخذ خيالها الفطرى يرى مظاهر الله فى كل شىء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن الله فتود لو تصورت شخصه ، ولكنها لا تصل إلى ما تريد ، فهو أحياناً طائر وأحياناً قبس من النور ، وأحياناً نسمة من الريح . ومن يدريها لعله الضوء الذى يهفو فى الليل على حافة الغدران أو الريح التى تسوق السحب ، ولعل صوته هو الذى يتردد فى النواقيس نغمات منسجمة . بل لقد أحبت كل حَمَل بسبب الحَمَل المقدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس فى نفسها أثر عجيب ، ولذلك حكاية تستحق أن تروى .

فقد حدث أن إحدى صديقات مدام أوبان أهدت إليها ببغاء ، ولم تدر السيدة ماذا تفعل به ، فتركته لفيليسيتيه التى تعلقت به تعلقاً شديداً ، وبعلاقة ساذجة جمعت بين محبتها لله ومحبتها لذلك الطائر . أو ما يشبه الحمامة ، رمز الروح المقدسة ؟ وازداد إحساسها هذا تجسما عند ما مات الببغاء وحنطته محتفظة به فى حجرتها ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت تعبد الله جاثية أمامه .

وماتت مدام أوبان ، فتساءلت فيليسيتيه ، كيف يجوز أن تموت سيدتها قبلها . وكان بول قد تزوج ، فأتت زوجته لتأخذ من الأثاث ما يصلح للبيع ، ولكم كان حزن فيليسيتيه عميقاً عند ما رأت زوجة الابن تنثر ملابس فرچينيا التى احتفظت بها مدام أوبان فى (الدولاب) كآثار مقدسة . وكانت الخادمة المسكينة قد ترفق بها القضاء ، فأصابها الصمم وفقدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئاً مما قيل أو فعل ، إلا القليل الذى أدركته بالحدس . وكانت سيدتها قد وقفت عليها معاشاً صغيراً استطاعت أن تقتات به أياماً قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك فى يوم عيد دينى ، فلم تحزن فيليسيتيه لمغادرة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة فى ذلك العيد الذى طالما فرحت بقدومه .

هذه حياة فيليسيتيه . حياة حزينة مؤثرة ، حياة محبة وإيثار ؛ لقد أحبت بول وفرچينيا

طفلين ، ولم يكن يحز فى قلبها شيء مثـل حظر مدام أوبان عليها أن تقبلهما فى كل حين ؛ ومن قبل أحبت تيودر وحسبت أنهـا ستتزوج كغيرها من الفتيات فخانها تيودور وخانتها الأيام ؛ ومن بعد فرحت بفـكتور ففات فـكتور وبنفسها حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله على الخريطة بتلك الجزر النائية التى أبحر إليها . ولـكنها قد وجدت فى محبتها لله عزاء عن كل المحن ، وما عليها أن ترى الله فى طائر أو فى مظاهر الوجود ، والله روح بكل مكان وكل نفس ، ولربما كان هذا التجسيم الساذج سبباً فى قوة إيمانها ، ولعل الله قد تقبلها قبولا حسناً فقد كانت حياتها بطولة صامتة ، بطولة عظيمة لأنها تجهل نفسها .

الأستاذ پتلان

Maître Pathelin

الأستاذ پتلان بطل مهزلة "Farce" ظهرت بفرنسا فى أواخر القرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م . ونشرت سنة ١٤٨٠ . وأما مؤلفها فقد تضاربت بشأنه الآراء : فمن قائل إنه « فرانسوا ڤيون » F. Villon ؛ ومن قائل إنه جيوم دى لوريس Guillaume de Lorris ؛ ومن قائل إنه أنتوان دى لاسال Antoine de La Salle ؛ ومن قائل إنه پيير بلانشيه Pierre Blanchet ؛ ولكنها كلها فروض لا تفيد يقيناً بحيث يصبح من الخير أن نعترف بأننا لا نعرف ذلك المؤلف .

ولقد لاقت تلك المهزلة نجاحا عظيما عند ظهورها ، فمثلت مرات كثيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل فى الجامعات الفرنسية ، ولا تزال تقرأ رغم صعوبة لغتها القديمة ، التى تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة الفرنسية الحديثة . ولما كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطلها قد أصبح فى شهرة أكبر الشخصيات الروائية ، فما من فرنسى يجهل الأستاذ پتلان ، بل قلّ أن يجهله أوربى مثقف .

ولا أدل على نجاح الأستاذ پتلان من أن يصبح اسمه من مفردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « پتلان » C'est un Pathelin أى « ماكر » ، ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصدر ، فيقال Patheliner (پيتلن) ، كما يقال Pathelinage «پتلنة» بمعنى: «يمكر» و«مكر».

« الأستاذ پتلان » المحامى أنموذج خالد للمكر الذى يعرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة ، وإنما هو وليد لمركب عجيب من قوى النفس . المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة ؛ والمكر إحساس باطنى بالنسب ؛ إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعى ما يفعل ؛ والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح فى الحياة . صفة لازمة لا لرجال العمل بحسب ، بل لرجال الفكر أيضاً ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتذليل تلك النفوس ؛ وإذن

فالمكر ليس شراً فى ذاته ، وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود .

ومع هذا فالأستاذ بتلان مثل للمكر السيىء الذى يحيق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه حمق البشر أو شرهم ، بل يستخدمه فى اختلاس مال غيره أو تضييع حقوقهم .

نراه فى أول المسرحية وكأن الملل قد أخذ بملكاته فغفت ، فأتته امرأته « جيمت » Guillemette تستنهضه بصوتها الحاد كالصرير : « يا صلاة النبى ! لا قشة بالدار ! سيفنينا القحط ! لقد تأكلت ملابسنا حتى لم تعد إلا أسمالا ، وما ندرى كيف السبيل إلى تعويضها . إيه ! قل لى ماذا أفدنا من علمك ؟ ! » . وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ — إذ تحدثت عن علمه — حتى استيقظ من سنته صائحاً بها : « اخرسى ! وذمتى لو أننى أردت أن أستخدم ذكائى لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات . وبعون الله سنفلت من الضيق ونرتفع لساعتنا . نعم ، من دقيقة إلى أخرى يأتى الله بالفرج . وعندما آخذ فى استغلال مهارتى لن ترى لى مثيلا » . وانطلق بتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم جوكوم Maître Guillaume Jocaume بائع الأقمشة المشهور بالحذر والبخل . والأستاذ بتلان رجل معتز بملكاته ، ولهذا يروقه أن يستغفل السيد جيوم ، فيرضى فى نفسه كبرياء الفنان الذى يهزه التغلب على الصعوبات الحقيقية .

وسبيل بتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من فن المكر . عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم . وهو لا يخترع شيئاً ، وإنما يستخدم الطريقة التى يحذقها حتى اليوم ملايين البشر : « آه ! إننى مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك ؟ هيا ! اعطنى يدك . لعلك فى صحة طيبة . والتجارة ، كيف حالها ؟ . . . الخ » . وأحس الأستاذ بتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل فى غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والدك يا سيد جيوم رجلا طيباً . كان تاجراً ماهراً . كم من مرة حدثنى متنبئاً بما نرى اليوم » . وسكن السيد جيوم إلى الأستاذ بتلان ، إذ تحركت نفسه وقد رأى رجلا من رفاق أبيه القدماء ، فطلب إليه أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ .

جلس بتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحدق فى وجه السيد جيوم ثم قال : « يا لله ! إننى ما رأيت قط ابناً يشبه أباه إلى هذا الحد ! العينان والأنف والفم كلها من المرحوم . وعرض الذقن ، حقاً إنك هو بقضه وقضيضه . يا للعجب ! كيف تخلق الطبيعة وجهين

متشابهين هذا التشابه التام ؟ ! » . ومر بتلان من الحديث عن أبى جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ، ملاحظاً أنه يشبهها أيضاً بجسمه . وعاد من العمة إلى الأب ، الأب الهمام ، الخبير بأسرار التجارة . لقد كان — رحمه الله — لا يتردد فى أن يقرض ماله من يريد . وأحس بتلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظه من أن السيد جيوم قد نام حذره ، فأخذ يبتسم ويتلطف ؛ وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة . وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى الثوب ، فقطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمله قماشاً ! ليناً ؛ رقيقاً ؛ مُخَمَّلا » . وفى سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ؛ ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات بتلان العابرة غريزة الكسب فى نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ بتلان بالسذاجة حتى أوهم الرجل بأنه سينجح فى إغرائه بالشراء .

« آه ! حقا . لقد أغريتنى . والواقع أنه لم يكن فى عزمى أن أشترى قماشاً فى هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مغادرة المنزل ثمانين جنيهاً فى الخزانة لأدفعها تسوية لمعاشى مدى الحياة . ولكن يظهر أنك ستأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لى ، فاللون قد أعجبنى إعجاباً خالصاً حتى ليؤلمنى أن أحرم من قماش كهذا » .

بذلك تهيأت الصفقة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ؛ وهنا تظهر مهارة بتلان فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول الغداء معه ، وبخاصة لأن مدام بتلان فى ذلك اليوم كانت تشوى إوزة سمينة ، وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد المعتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع بتلان ، ثم يأخذ جنيهاته ويعود إلى حانوته مشكوراً . وأغرت الإوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت الغداء ويأتى إلى منزل بتلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولا بد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلا بد له من حيلة جديدة يتم بها ما بدأه ، والأمر سهل ، فهو لا يقبل أن يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الأب الكريم الذى تشرف بمعرفته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح فى أن يحمله هو ؛ فينتفض بتلان رافضاً رفضاً باتاً أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم المرحوم فى الحديث من جديد ، ذاكراً ما كان بينهما من ود وتزاور . ويتورط جيوم ، فلا

يرى بداً من التسليم للأستاذ بما يريد ، ويأخذ پتلان القماش ويعود إلى منزله بعـد أن تواعدا على المـائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ پتلان فى النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشاً واحداً ، وكان سر نجاحه فى علاجه لنفسية جيوم : فقد عرف كيف يحادثه فيما يهمه ، وكيف يتدرج فى ذلك الحديث كلما ازداد الخصم إقبالا واستنامة ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائماً أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ؛ فهو لم يذكر القماش إلا عرضاً وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ؛ وعند ما عاد إليه تظاهر بأن الخصم هو الذى يقوده ويغريه وهو يكبت رغبته الخفية ، حتى لـكأن الصفقة فى مصلحة الخصم وما صاحبنا إلا فريسة ؛ وفى النهاية «يكلفت» السيد جيوم ، كما يقول العوام ، فى فيض من الأقوال المعسولة التى تورط الرجل . وتلك لا ريب مهارة دقيقة ، فيها مزيج من التملق اللبق ، ومن التظاهر بالسذاجة ، كما فيها فطنة إلى أهواء الخصم واتجاهات نفسه ، ومواضع ضعفه ، واستغلال لـكل ذلك على نحو لا يكاد يلحظ .

ولـكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فـكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟

هنا تنكشف نفس پتلان عن قوى جديدة ، أخصها الجرأة ، الجرأة الصفيقة . فهو يتفق مع زوجته على أن يتصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يغادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا الدور معاً بحيث يوهمان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنيهات ، والإوزة والنبيذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفعلا يرقد پتلان فى السرير ، وما يكاد جيوم يدق على الباب حتى تخف إليه « جيمت » على أطراف أصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويجرى حوار مضحك بين جيوم وجيمت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيمت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئاً ممـا تسمع ، وهمها الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفائه ، ويطول الجدال ، فيصيح پتلان من فراشه : «جيمت ! جيمت ! قليلا من ماء الورد ، ارفعينى ! دثرينى ! حـكى مسطح قدمى » . وتدخل جيمت إلى المريض فيتبعها جيوم ، ويطالب الرجل بدينه ، بينما پتلان يخاطبه كأنه الطبيب المداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزعجة . ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعاً . وهنا تقرر جيمت إخراجه ، وتعنفه أشد تعنيف لإقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها . وعندئذ لا يرى السيد جيوم بداً من

التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن أنه مخبول ، وأنه فى حلم يقظة فقرر أن يعود إلى حانوته ليقيس ثوب القماش كاملا ، ويتأكد من أنه قطع منه ستة أذرع .

انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد . ولكن بتلان لم يكن بالرجل الذى تنفد حيله . عاد جيوم يهدد بإحضار البوليس إن لم يُرد إليه القماش أو يعطى جنيهاته ، فاضطربت جيمت ؛ وأما الأستاذ فقد كانت أثبت من ذلك قلباً ، فأخذ يهذى بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفدها هذى باللاتينية ، وسخر من جيوم فى تلك اللغة التى يجهلها بائع القماش . وينجح الأستاذ فى تمثيل الدور نجاحاً ينسى معه جيوم قماشه ولا يعود يذكر إلا أنه فى حجرة رجل يحتضر ؛ وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا ألعوبة من ألاعيب الشيطان الذى تنكر فى هيئة بتلان ليسلبه قماشه ؛ وإذ وصل إلى هذا الإحساس لم ير خيراً من أن ينسحب فى سلام .

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استخار الله ، وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قماشه ، ولقد رسم الصليب على جبهته وجانبى صدره ، ثم همّ بالعودة إلى منزله مستعيذاً من الشيطان الرجيم . ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، وبذلك جرت حكمته المأثورة منذ آلاف السنين . وإذن فلا بد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها بتلان جزاءه . ومن ثم تصور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تكون قصة بذاتها ، واتخذ منها خاتمة لقصة بتلان وجزاء لمكره السحيق .

وذلك أن جيوم لم يكد يغادر الباب حتى وجد نفسه أمام راعى غنمه توما الحُمَيل « مصغر حَمَل » ، وكان توما هو الآخر راعياً ماكراً ، كم من مرة ذبح خراف جيوم ثم ادعى أنها قد ماتت بالحمى ؛ ولكن السيد جيوم قد أخذه فى المرة الأخيرة متلبساً بجريمته ، وها هو الحميل يأتى إلى الأستاذ بتلان ليوكله فى الدفاع عنه أمام القضاء . ونظر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولكن انتصاره على جيوم أغراه بانتصار جديد ، فقبل الوكالة : وكانت خطة دفاعه بالغة البساطة ؛ فقد اتفق مع الحميل على أن يلعب راعينا دور الأبله ، فيجيب على كافة الأسئلة التى توجه إليه بجواب واحد هو : « بآ » كحميل حقيقى ، وهذا ما كان . فقد تقدم الخصمان إلى المحكمة ، وكان القاضى لا يخلو من بله ، وتقدم الأستاذ بتلان كمدافع عن الحميل ، ولكن جيوم لم يكد يرى الأستاذ حتى جن جنونه ، فقد تركه لتوه مريضاً بمنزله ، وها هو الآن فى ساحة القضاء ! واحتدم الغيظ فى نفس الرجل فنسى دعوى الغنم ، وأخذ يهاجم بتلان مطالباً

إياه بالقماش أو الجنيهات ، والقاضى لا يفهم شيئاً ممـا يسمع ؛ فالقضية قضية غنم ، والغنم لا ذكر لها ، والجميل لا يجيب بغير « بآ » ! واستمر السيد جيوم يقفز من الغنم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغنم ، حتى ضجر القاضى ، وتهيأت لبتلان الفرصة ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعى ، والحكم على المدعى بالمصاريف ؛ وهذا ما كان . بل لقد بلغ الأمر ببتلان أن نال ثقة القاضى نفسه ، فدعاه حضرته إلى تناول الغداء معـه . وهنا يطير عقل جيوم ، فيسرع إلى بيت بتـلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانياً ، وليستوثق من أن بتلان قد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة .

على هذا النحو يكون المكر قد انتصر مرة أخرى ، وبذلك تظل غريزة العدل غير راضية . والشعب حريص على العدل حتى فى مهازل المسرح . ومع ذلك فها هو ذا الجميل يهم بمغادرة المحكمة ، وهو يتوثب سروراً بعد أن فاه بآخر « بآ » ، وها هو ذا بتلان قد كسب القاضى والقضية ، فأين إذن عقاب المكر الخبيث ؟!

لقد تلقى بتلان عقابه من الجميل ، وذلك لأنه لم يكد يوقفه بباب المحكمة طالباً إليه أجر الدفاع حتى أجابه جميلنا بـ « بآ » ، وعبثاً حاول الأستاذ أن يقنع الجميل بأنه لم يعد فى حاجة إلى « بآ » ، وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله . ويعود يطلب أجره ، فلا يجيب الجميل بغير « بآ » ، حتى انتهى الأمر بأن يئس بتلان نفسه ، بتلان الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم ها هو الجميل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم بتلان درساً صفق له الشعب أشد تصفيق ، إذ وجد الماكر من يمكر به ؛ وقد تلخص مكر الجميل فى كلمة واحدة ألقت بأسلحة بتلان كلها إلى الأرض .

هذه هى قصة الأستاذ بتلان الذى أصبح مضرب الأمثال فى الدهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة ؛ فبتلان الذى نلقاه فى الحياة فنشق به ، هو بتلان الذى عرف كيف يحتال فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هذا الجزء من القصة لا نبـالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات فى اليوم الواحد فى بقاع الأرض كافة . وأما الأحداث التالية ، كتمارض الأستاذ ورطانته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجيوم إلى الإيمان برجس الشيطان ، وحادثة الجميل « بآ » ، فمواقف مسرحية تثير الضحك ، ولـكنها لا تكشف من أسرار الحياة شيئاً وهى أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ونحن بعد لا نذيع سراً إذا قلنا إننـا محاطون من كل جانب بأنواع من بتلان ؛ وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الجميل » . ورحم الله من قال :

« إنى لستُ بخبٍّ ولـكنْ الخِبُّ لا يخدَعُنى » .

راستنياك

Rastignac

إيوچين دى راستنياك ، شخصية روائية ضخمة من شخصيات هونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) الكاتب الفرنسى الشهير . وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الكثير من القراء ، وذلك لأن بلزاك قد تحدث عنه فى عدد كبير من رواياته ، حتى لنحسبه قد بلغ من نباهة الذكر ما بلغه كبار رجال التاريخ . لقد ملأ راستنياك « الكوميديا البشرية »[1] بوجوده الصاخب ، بل لقد أفلت منها ليجوب الحياة ، وهو لا شك حىٌّ بيننا ، يجده كل من يمعن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حياة راستنياك منذ البدء إلى النهاية . وبلزاك نفسه لم يجمع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعاً تاريخياً ؛ وهو القائل فى مقدمة روايته « إحدى بنات حواء » فى صدد الحديث عن راستنياك : إنه كثيراً ما يحدث « أن نعرف وسط حياة شخص قبل أن نعرف بدأها ، وبدأها بعد خاتمتها ، وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عندما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التى يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور — مازحا — أن يتولى أحد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيه حياة كل شخصية ، مشيراً إلى مظان تلك الحياة من « الكوميديا البشرية » . وهذا ما كان فعلا ؛ فقد كتب الأستاذان أناتول سرفبير وچيل كرستوف « فهرساً تحليلياً للكوميديا البشرية »[2] ، وباستطاعة القارىء الباحث أن يعود إلى هذا الفهرس ليجد كل ما يريد معرفته عن راستنياك منذ ميلاده إلى أن أصبح وزيراً خطيراً ، وثرياً من كبار الأثرياء .

---

(١) من المعلوم أن هونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته فى آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ، ثم قسمها إلى مجموعات هى : ١ — مناظر من الحياة الخاصة ، ٢ — مناظر من حياة الأقاليم ، ٣ — مناظر من الحياة الباريسية ، ٤ — مناظر من الحياة السياسية ، ٥ — مناظر من الحياة الحربية ، ٦ — مناظر من حياة الريف . ثم أضاف إلى هذه المجموعات : ١ — دراسات فلسفية ، ٢ — دراسات تحليلية ..

(٢) Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac par H. Cerfbeer et J. Cristophe

أما نحن فيكفينا أن نعود إلى مقدمة « إحدى بنات حواء » التى أشرنا إليها فيما سبق ، لنرى بلزاك نفسه يلخص لنا جانباً كبيراً من حياة بطلنا . فهو يحدثنا أنه قد ولد سنة ١٧٩٩ فى راستنياك بمقاطعة شارانت ، وأنه ابن للبارون والبارونة دى راستنياك ، وأنه قد أتى إلى باريس سنة ١٨١٩ ليدرس القانون بالجامعة ، وسكن فى پنسيون مدام ڤوكير (Vauquer) حيث تعرف بجاك كولان (Jacques Collin) المشهور باسم ڤوتران (Vaütrin) ، كما تعرف بهوراس بيانشو (H. Bianchon) الطالب الذى سيصبح فيما بعد طبيباً عظيما ؛ وأنه قد أحب مدام دى نوسنجان (Mme de Nucingen) بعد أن تخلى عنها عشيقها الأول دى مارسيه (De Marsay) . وكانت مدام دى نوسنجان هذه بنتاً لرجل يسمى «جوريو» يسكن مع راستنياك فى نفس البنسيون ، وكان السيد جوريو المذكور فيما مضى تاجر مكرونة وقد جمع ثروة طائلة من تجارته ، ولكنه أعطى كل ثروته لبنتيه « دوطة » حتى تتزوجا ، الأولى بأحد أبناء أرستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنك من أرستقراطية المال وهى مدام دى نوسنجان . ولما رأت البنتان أن أباهما لم يعد يملك شيئاً ، وأنه لا يصيبهما منه غير العار أهملتاه ، بل وتجنبتا لقاءه ، حتى مات الرجل ميتة مخزية بالبنسيون ، وتولى راستنياك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقات ذلك الدفن .

هذه المعلومات يستطيع القارئ أن يجدها فى رواية « الأب جوريو » ، وهى الرواية التى سنتخذها مرجعنا الأساسى فى تحليل المرحلة التى نريد أن نقف عندها اليوم من حياة راستنياك ، أعنى مرحلة انزلاقه من الحياة الريفية المتينة الخلق السليمة البادىء ، إلى حياة المدن التى يسكت فيها صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافها دون أن يردها شيء ؛ ومنذ أن اجتاز راستنياك تلك المرحلة الشاقة ، لم تعد حياته غير حياة رجل مغامر ، حياة مبتذلة الأحداث . ومن السهل على القارىء أن يعود إلى رواية «بيت نوسنجان» ليعرف كيف أصبح راستنياك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقد تزوج فى سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دى نوسنجان عشيقته القديمة التى تركها منذ خمس سنوات . وفى سنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية . وأما بقية مغامراته فمنثورة فى عدة روايات ، وكلها فى ابتذال ما ذكرنا من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنها راستنياك غالياً من مبادىء الخلق وكرامة الإنسان .

راستنياك الذى يستوقف الباحث ، هو راستنياك الطالب ، كما نجده فى رواية « الأب جوريو » ، فهنا تقع المأساة البشرية ، مأساة الصراع فى نفس البطل بين نشأته الأولى

الشريفة ، وبين مغامرات الحياة الباريسية ووسائل تلك الحياة المعيبة . ولنترك لبلزاك مهمة تقديمه للقارىء بعد السنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخذ الطموح يدب فى نفسه ، « وكما يتفق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنياك أن يدين بشىء لغير مواهبه ، ولكن نفسه كانت من نفوس أهل الجنوب ، تلك التى ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيذ حتى يضرب فى عزمها ذلك التردد الذى ينتاب الشبان عند ما يجدون أنفسهم فى وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أى جهة يوجهون قواهم ، ونحو أى صوب يرفعون قلاعهم » ؛ وإذا كان قد أراد فى أول الأمر أن يلقى بنفسه إلى العمل ، فإنه لم يلبث أن أغرته ضرورة التعرف بذوى المكانة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير فى الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقى ليجد فيه حماته منهن ، وهو واثق من أنه لن يعدم العثور على ما يريد ؛ وكيف لا يعثر بهن شاب مثله حار الدماء حاضر النكتة ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادهما قيمة من رشاقة سمت ، وجمال عصبى كم يحاو للنساء أن يقعن فى شراكه . ولقد هاجمت تلك الأفكار فتانا وسط الحقول ، وهو يتريض فى مرح مع أخواته اللاتى وجدنه قد تغير تغيراً واضحاً . وكانت خالته « مدام دى مارسياك » De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الأرستقراطية ، إذ كانت يوماً من بين من يترددن على البلاط وفجأة لمح فتانا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ، وهى لا تقل أهمية عن معارفه فى كلية الحقوق ؛ ولقد كان فى الذكريات التى رمحته بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التى يستطيع أن يعود فيصلها . وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأى السيدة العجوز على أن الفيكونتس «دى بوسيان» „De Beauseant“ ستكون من بين أقاربهم الأغنياء الأثرين أقلهم تلكأ فى خدمة ابن أختها . وفعلا كتبت خطاباً إلى هذه الفيكونتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لإيوجين قائلة إنه لو نجح مع الفيكونتس فإنها ستصله ببقية أقاربه . وبعد أيام قليلة من عودة راستنياك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مدام دى بوسيان ؛ وفى اليوم التالى أجابت الفيكونتس بدعوته إلى حفلة راقصة . وكان راستنياك شاباً حاد الذكاء عالماً بذكائه . وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس فى نفسه بتلك القوة ؛ ونظر فبدا له أنه لن يستطيع الرضا بالخمول المبتذل ، وهيهات له أن يقنع بما يعده له أهله من دراسة القانون دراسة جيدة والنجاح فى الامتحانات بتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيابة أو قاض بالأرياف . لقد كان راستنياك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف فتشرق شخصيته وتتحقق ملكاته ؛

كان يريد أن يعيش فى باريس وسط الأرستقراطية ؛ كان يريد الوصول .

وأول ما اتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لـكى يستطيع الظهور بين النبلاء ، فيلبس كما يلبسون ، وتقوده العربات كما تقودهم ؛ وبالجملة كان حريصاً على أن يظهر فى مظهر الأغنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان يعلم بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدن فى سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لإيوچين الذى تركزت فيه آمال الأسرة لعله ينتهى من دراسته بنجاح . ولـكنه رغم علمه بضيقهن المادى ، لا يتردد فى أن يطلب إليهن المـال ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الڤيكونتس » ؛ ولقد أرسلن إليه ألفاً وخمسمائة فرنك مع توصياتهن الحارة ؛ فانتزعت التوصيات من عينيه بعض الدموع . ولـكن الألف والخمسمائة فرنك نفخت أوداجه وملأته إحساساً بالانتصار ؛ وسرعان ما استدعى الترزى واتفق معه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنها أقساطاً مبتدئاً بقسط كبير . « عندئذ لم يعد فتانا الهمام يحس بشىء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون فى تلك الهيئة الفريدة التى تخلعها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تـكاد النقود تستقر بجيب أحد الطلبة حتى يستشعر جرأة عجيبة . فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه وكأنه قد وضع يده على رافعة الأثقال ، وتصبح نظراته مليئة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حيياً متواضعاً قد يُضرَب فلا يحرك ساكناً ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ؛ تمر بنفسه ظواهر عجيبة ، فهو يريد كل شىء ، وهو يستطيع كل شىء ؛ يريد هذا وذاك دون بينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفى كلمة واحدة : لقد استرد الطائر المهيض جناحيه القويين . الطالب الذى لا نقود معه يخطف (نتفة) من اللذة ، كالـكلب الذى يسرق (عظمة) تحفها المخاطر من كل جانب ، ثم يكسرها ويمص نخاعها ، ويستمر فى العدو . وأما الشـاب الذى توسوس فى جيبه النقود ، فإنه يتذوق لذاته ويجزئها ويتمهل فيها . إنه يتأرجح فى السماء ولا يعود يذكر لـكلمة البؤس مغنى . باريس كلها ملك له ؛ ذلك هو السن الذى يلمع فيه كل شىء ويتقد ، سن القوة المرحة الذى لا يعرف أحد كيف يستفيد منه ، لا الرجال ولا النساء ؛ سن الديون والمخاوف الـكاذبة التى تزيد من طعم اللذات . إن من لم يعش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان چاك وشارع سان پيير لا يعرف شيئاً عن الحياة البشرية » .

فى هذه الصفحة التى تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة فى شخصية راستنياك ؛ فلـكم حلم بلزاك الذى ولد مع راستنياك فى نفس العام بأن يبهر العـالم ببذخ ملابسه

وأحصنته ؛ ولقد أعوزه المال دائماً ، ولذلك كان لمسه إياه قشعريرة نفسية ، هي تلك التي ترتعد في الصفحة الماضية .

وذهب راستنياك إلى الحفلة ، وقد اتخذ له أستاذاً في فهم الحياة مدام دي بوسيان . وما نظننا في حاجة إلى تفصيل مبادئ الوصول ، فتلك الخسائس تقع تحت أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا تظاهر بالسمو عن الغير ، سمواً سبيله احتقار كل من عدانا ، وتبجح بملل متسام مثير ، ثم قتل لصوت الضمير في النفس ، وإسكات للمُثل التي تصرفنا عن اغتنام الفرص ، وإعراض عن الرحمة التي تردنا عن القسوة ، وهي أخيراً ألاّ نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئاً إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحي بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نملي أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الإملاء من جروح ؛ وهذه هي المبادئ التي تلقاها راستنياك عن الفيكونتس . ونحن نجتزئ ببعض ما سمع عندها من درر مريعة مثل : « إن القلب البشرى كالكنز . استنفده في غرفة واحدة تجد نفسك مفلساً . إن الناس لا يغتفرون لمن يظهر شعوره كله دفعة واحدة أكثر مما يغتفرون لمن لا يملك فلساً واحداً » . وقولها : « كلما ازددت برودا في تقديراتك ازددت تقدماً إلى الأمام ، اضرب بغير شفقة يخشك الناس . لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيل البريد التي تتركها تنفق عند نهاية الشوط ، وبذلك تصل إلى أسمى ما ترتفع إليه رغباتك » .

وعاد راستنياك من الحفلة إلى البنسيون ، بعد أن أمعن النظر في أرستقراطية باريس . وفي البنسيون وجد أستاذه الفحل چاك كولان المعروف بڤوتران : مجرم قديم ، أعيى رجال الأمن أمره ، وقد أفلت من السجن حيث كان مقضياً عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيون مدام ڤوكير متنكراً . وقد أحس راستنياك في خلق الرجل جرأة ، وفي حديثه سلطة أثارته حتى أوشك أن يقاتله في مبارزة ؛ ولكن ڤوتران أوقفه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت إحدى شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التي ترتعد لها الفرائص ، قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعل ؟ حقاً إنك يا بنى لمسرف في حب الاستطلاع . آه ! هدوءاً هدوءاً أيها الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك ، لقد ابتلتني الحياة . استمع إليّ قبل أن ترد . ها هي حياتي السابقة في ثلاث كلمات : من أنا ؟ ڤوتران . ماذا أفعل ؟ ما يحلو لي .

سأوضح لك أنا الوضع الذي أنت فيه ، ولكنني سأفعل ذلك في تفوق الرجل الذي اختبر أمور الحياة ، فرأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة ، وأنا

ملا أن أطلع الشيء .. أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت فى حاجة إليه لتسير فى الحياة كما تريد الآن ؟ إنك فى حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعاً ، وإلا قادك رأسك الصغير إلى شباك « ميلان كلو » (السجن) ، لتبحث هناك عن الكائن الأسمى : هذا المليون سأعطيه أنا لك » . ولمسك فوتران عن الحديث هنيهة ناظراً إلى راستنياك ، ثم استأنف : « ها ها ! إنك لتنظر الآن إلى عمك فوتران نظرة أرفق من ذى قبل — ها هو موقفك أيها الشاب : لدينا هناك أب وأم ، وخالة وأختان « فى الثامنة عشرة والسابعة عشرة » ، وأخوان صغيران « فى الخامسة عشرة والعاشرة » ، هذا عدد الجوقة . الخالة تربى البنات ، والقسيس يعلم اللاتينية للأخين ، والعائلة تأكل من عصيدة أبى فروة أكثر مما تأكل من الخبز الأبيض ، الأب يحافظ على منزله ، والأم تقنع بثوب للشتاء وآخر للصيف ، والأختان تدبران ملبسهما كما تستطيعان ، وأما نحن فلدينا الطموح . نحن أقرباء بوسيان ، ثم نذهب إليهم على الأقدام ؟ نريد الثروة وليس لدينا سحتوت ، نأكل من « عك » الأم فوكير ، ولكننا نحب الغذاء الفخم فى فوبورز سان جرمان ، تنام على سرير كالمشلحة ، ونريد أن نسكن قصراً ! إننى لا ألوم نزعاتك ، فليس باستطاعة كل إنسان — أيها الطفل العزيز — أن يكون طموحاً . لقد أحصيت رغباتك لكى أسألك السؤال الآتى : نحن جياع كالذئاب الضارية وقواضبنا ماضية ، فكيف السبيل إلى ملء القدر ؟ ليس لدينا ما نأكله غير مجموعات القوانين وهذه لا فائدة منها ، ولكنه الواجب ، فليكن ، ثم نشتغل بالمحاماة لنصبح رؤساء لمحكمة الجنايات ، فترسل إلى السجن شياطين المجرمين مع أنهم خير منا ، وذلك لكى نثبت للأغنياء أنهم يستطيعون أن يناموا هادئين . هذا عمل لا بهجة له ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التصعلك بسنتين بباريس ، ننظر إلى النقود دون أن نستطيع مسها مع رغبتنا فيها ، وإنه لأمر مضن أن نستشعر دائماً الرغبة دون أن نستطيع إشباعها . ولو أننا كنا شاحبين وكنا من طبيعة الزواحف لما خشينا شيئاً ، ولكن دماءنا من دماء الأسود ، وفى شهيتنا قابلية لارتكاب عشرين حماقة فى اليوم .

هذا أيها الشاب هو مفترق الحياة ، ولقد اخترت ، فذهبت عند بوسيان من بنى عمومتك ، ولقد أحسست هناك بالبذخ ، كما ذهبت إلى مدام دى رستو De Restaud بنت الأب جوريو ، فشممت فيها رائحة المرأة الباريسية ؛ ولقد عدت ذلك اليوم وعلى جبينك كلمة تقرأها فى وضوح ، هى : الوصول ! الوصول بأى ثمن ! فصحت : براقو ! هذا عملاق يلائمنى ! ولقد شعرت بالحاجة إلى المال ، فأين تجده ؟ لقد نزفت دماء أخواتك فاستلبت

منهن ألفاً وخمسمائة فرنك بطريقة يعلمها الله ، وهن فى بلاد قد تجود بأبى فروة أكثر مما تجود بقطع النقود ، ولكنك تسللت كالهارب فى الظلام . والآن ماذا تفعل بعد ذلك ؟ أتجد فى العمل ، والعمل لا يغنى فقيراً ، والثروة العاجلة هى المشكلة التى تعرض لخمسين ألف شاب مثلك ممن يجدون أنفسهم فى موقفك الحالى ، وأنت واحد من هذا العدد ؟ فكر فى المجهود الذى يجب أن تبذله ، وفى عنف المعركة التى ستخوضها . لا بد أنكم ستأكلون بعضكم بعضاً كالعنكبوت الذى يجتمع فى زهرية واحدة ، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنالك خمسون ألف مركز كبير . أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا ؟ يشقونه ببريق العبقرية ، أو بالمهارة فى الخسة . يجب أن تسقط فى صفوف البشر كقنبلة ، أو أن تتسلل بينها كوباء ؛ أما الشرف فلا فائدة فيه . إن الناس ينحنون أمام قوة العبقرية ، وهم يكرهونها ، ويحاولون النيل منها بأقوال السوء ، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقتسم ، ولكنهم ينحنون إذا ثابرت . وفى كلمة واحدة ، الناس يعبدونها جاثين عندما يعجزون عن جرها فى الأوحال . وكذلك الخسة ، فهى قوة ؛ الخسة سلاح الضعفاء الذين علأون الأرض ، وسوف تحس بوخزاتها فى كل مكان . إذا كنت تريد أن تثرى سريعاً ، فمن الواجب أن تملك شيئاً ، أو تتظاهر بأنك تملك شيئاً . لكى تثرى يجب أن تغامر بضربات قوية ، وإلا أضعت وقتك فى الجبو ثم هيهات . . وفى المائة مهنة التى تستطيع أن تزاولها سترى الجمهور يسمى العشرة أشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصاً . استخلص الرأى . هذه هى الحياة ، فهى ليست أجمل من « الطبيخ » ، ورائحتها رائحته . يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى ، ولكن يجب أن تعرف كيف « تشطفها » بعد ذلك ، فى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا . وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو فذلك من حقى بحكم أنى أعرفها . وهل تظن أنى أجنى عليها باللوم ؟ أبداً ، فقد كانت دائماً كذلك ، ولن يستطيع الوعاظ تغييرها . الإنسان كائن غير كامل ، وهو — إلى حد ما — منافق ، ولهذا يرى الحمقى أنه عديم الأخلاق . وأنا لا أتهم الأغنياء لمصلحة الفقراء ، فالإنسان هو هو فى أعلى وفى أسفل وفى الوسط . وفى كل مليون من هذه الحيوانات الرفيعة قد تجد عشرة لصوص يضعون أنفسهم فوق كل شىء ، فوق القوانين ذاتها ، وأنا واحد من هؤلاء . أما أنت فإذا كنت رجلا سامياً فلتسر فى خط مستقيم مرفوع الرأس ، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والنميمة والحقارة ، ستقاتل جميع الناس . لقد لاقى نابليون وزيراً للحربية اسمه أوبرى Aubry ، ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات . تحسس موضع قوتك ، وانظر هل

تستطيع أن تستيقظ كل صباح بإرادة أقوى من إرادتك بالأمس ؟ وإذا كانت لى نصيحة أهديها إليك — أيها المَـلَك — فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك ، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له . والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائماً فى طريق مستقيم ؛ هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ . وليست هناك مبادىء وإنما هناك أحداث ؛ ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف ، والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكى يسيرها » .

سمع راستنياك هـذه الآراء المخيفة ، فنفرت نفسه نفوراً شديداً ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف ، ولذا صاح عند ما رأى ڤوتران يغادره فى هدوء واضعاً عصاه تحت إبطه : « اى رأس صلدة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى فجاجة ما قالته مدام دى بوسيان بلباقة . لقد مزق قلبى بمخالبه الفولاذية . لمـاذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافعى كما تحركت فى نفسى . لقد حدثنى ذلك المجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والـكتب كافة . وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهادنة فلا شك أننى قد سرقت أخواتى » . قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة . وبعد برهة عاد يناجى نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا له من استشهاد نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولـكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تعبد الحرية ، ولـكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسماء التى لا سحب فيها . وإذا كنت أريد أن أصبح رجلا عظيما أو رجلا ثريا ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ثم أنهض وأتملق وأنافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادماً لمن كذب وانحنى وزحف . لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكا لهم . آه ! لا . إننى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة . أريد أن أعمل ليل نهـار ، وألا أدين بشىء لغير اجتهادى » . وهنا نلمس الصراع النفسى الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفاً لتلك النفس التى لا تزال تجالد الشر بفضل ما اختزنت فى صباها من مثل الخير . ونحن لا يعنينا ما سيؤول إليه راستنياك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده يرفض التورط فى الإجرام مع ڤوتران ؛ ونحن ندع جانباً ما كان له من مغامرات فى الأوساط الباريسـية ، مكتفين بالإشارة إلى أهم تلك المغامرات وهى : عشقه لمدام دى نوسنجان . وموضع الخطر على فتانا لم يكن فى ذلك العشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم . بل إننا نعتقد أن بلزاك قد

أسرف وأحال فى تصوير ذلك العقوق ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب فى حبه لابنتيه كلما زادتاه نكالا . ولهذا نرى قيمة تلك الرواية الشهيرة فى شخصية راستنياك ، لا فى شخصية « الأب جوريو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن نتتبع راستنياك فى محاولاته المختلفة ، وأن نرى إرادته تصلب كلما تناوبه النجاح والفشل ؛ ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بغير الصدمات . وهو رغم استحصاد إرادته لا يستطيع أن يسكت فى نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون فى موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ؛ ولكنه على أى حال لم يكن ميت القلب ؛ نراه يبكى عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لا ريب أمر سهل أن نبكى قليلا ثم نعود إلى رأس أمرنا ، ولكن أليس عدم البكاء إطلاقا أسهل من البكاء ؟ وهو أخيراً قد تعلق بالأب « جوريو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطلب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، ولربما كان هذا صحيحاً ، ولكنه مما لا شك فيه أن راستنياك الشاب المحب لأهله قد قدر فى الأب «جوريو» طيبته ومحبته لبنتيه ، دون أن يرى ما فى تلك المحبة الشاذة من حماقة . لقد أرسلت إليه مدام دى نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأبيها خطاباً صغيراً تقول فيه : « إننى أنتظرك للذهاب إلى حفلة الرقص ، فإذا لم أرك بجوارى بعد ساعتين ، لست أدرى هل سأستطيع بعد ذلك أن أغتفر لك تلك الخيانة » . ولكنه لم يكد يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلمه ليرد لفوره : « إننى أنتظر الطبيب لأعرف هل سيعيش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سآتيك حاملا الخبر ، وإننى لأخشى أن يكون خبر الموت . سوف تنظرين عندئذ : هل تستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟! » . نعم إن إرادة مدام دى نوسنجان قد تغلبت فى آخر الأمر ، فذهب راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ؛ ولكن كم كان صمته لاذعا وهو إلى جوارها بالعربة ! لقد لزم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دى نوسنجان فسألته : «ما بك إذن ؟» ، وإذا به يجيب : « إننى أسمع حشرجة أبيك ! » .

هذا هو راستنياك : شخصية مركبة معقدة ، شخصية نميل إلى اعتبارها حيّرة . وأما إذا أردتنى أن أدل على سبب انزلاقها إلى الشر فى مستقبل أيامها ، فلست أراه إلا فى أمرين : أولهما أن رغبات هذا الشاب كانت تنبعث فى نفسه قوية لا تدفع ، ثم تملأ وجدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به مندفع لا يلوى على شىء ؛ وهو إذا كانت رغباته تثور من داخل نفسه ، فإن شجاعته كانت تأتيه من الخارج . إنه لم يكن له بد من النجاح لكى تتحقق ملكاته

وتنشط ؛ بل نستطيع أن نقول إن النجاح كان أول وسائله للوصول . والذي لا شك فيه أنه قد وجد في مغامراته المختلفة ما يرضي تلك الحاجة إلى النجاح . وثاني الأمرين فساد ما رأى من حياة معظم الناس ؛ ولقد كان في موقف بنتي جوريو وصهريه من ذلك الأب البائس ما حمله على مجابهة الهيئة الاجتماعية ومنازلتها بأسلحتها مهما بلغت تلك الأسلحة من الحقارة . وفي الصفحة الأخيرة من الرواية يصف بلزاك دفن الأب جوريو بقوله : « ومع ذلك فعندما وضع النعش على الناقلة ، قدمت عربتان تحمل إحداهما شارة الكونت دي رستو ، والأخرى شارة البارون دي نوسنجان ، ولكنهما خاليتان ، ثم تبعتا النعش إلى المقبرة . وفي الساعة السادسة أنزل جسم الأب جوريو إلى الحفرة ، ومن حوله خدم بنتيه الذين اختفوا مع القسيس بمجرد الفراغ من الصلاة التي دفع ثمنها الطالب راستنياك . وبمجرد أن انتهى الحفاران من رد بعض حفنات من التراب لتغطية الجسم ، لم يلبث الرجلان أن نهضا وقد اتجه أحدهما إلى الطالب يسأله « البقشيش » ؛ وفتش إوجين في جيبه فلم يجد شيئاً ، فاضطر إلى أن يستلف فرنكاً من كرستوف خادم البنسيون . ولقد نشرت هذه الحادثة الصغيرة في نفس راستنياك حزناً مظلماً ؛ وكان النهار قد آذن بالأفول ، وأخذ الشفق الرطب يثير الأعصاب ، فنظر الشاب إلى القبر ودفن فيه آخر دمعة من دموع صباه ، وكانت دمعة فاضت بها عاطفة مقدسة من قلب طاهر ؛ دمعة من تلك الدموع التي ما تكاد تسقط إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء ، ثم ربع ذراعيه إلى صدره ، وأخذ يتأمل السحاب ؛ ورآه كريستوف في هذا الموقف فتركه عائداً .

ووجد راستنياك نفسه وحيداً فخطا بضع خطوات نحو أعلى المقبرة حيث رأى باريس راقدة في التواء على ضفتي السين ، وقد أخذت الأنوار تسطع ، فاستقرت عيناه فيما يشبه النهم بين عمود فندوم وقبة الأنفاليد ؛ وبين هذين الموضعين يقع حي تلك الطبقة الراقية التي أراد أن يختلط بأفرادها . وأرسل إلى تلك الخلية الطنانة نظرة تكاد تمتص ما فيها من رحيق ، ثم قال هذه الكلمات الرائعة : والآن فلأتخل لك ! . وكان أول عمل من أعمال التحدي الذي أعلنه راستنياك للهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند مدام دي نوسنجان » .

لقد كان في ذهابه إلى العشاء مع تلك العشيقة الفاقدة آخر عهده بالحياة الشريفة ، بعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصمد له المثل العليا التي ألفها في صباه ، ولكن هل تراه محقاً ؟!

أوليس

(١)

في الإليـاذة

أوليس أحد أبطال هوميروس . رأيناه للمرة الأولى في الإلياذة على رأس جنده الذين جمعهم من مملكته بجزيرة كورفو ، التي لا تزال الأمواج تلطم صخورها إلى اليوم ؛ وذلك لكي يساهم مع بلاد اليونان الأخرى في حملتها الشهيرة على طروادة إحدى مدن آسيا الصغرى .

وكلنا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس وأصداءها التي سجلها شاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان . ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، مضرب الأمثال في الجمال ، وإن كانت السبب في تلك المحنة التي أثارت الغرب ضد الشرق عشر سنين متواليات ؟ قالوا : إن باريس أحد أمراء طروادة أتى يوماً في تجارة إلى شواطئ البلوبونيز ، وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطئ مع رفقة لها ، فهاله جمالها ؛ وكان الأمير مشرق الطلعة ، فوقع هو أيضاً بقلبها ، وكان لما شاءت الأقدار ، فتواعدا على الهرب . هربا ونشرا القلاع إلى طروادة [illegible] حين علم زوجها بالخبر ، فأخذته شهامة الرجال ، واستنفرت مدن اليونان كافة إلى نجدته للأخذ بثأر شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجاممنون أخو منيلاس ، وأعدوا الحملة ، وأبحرت المراكب وأرست حيث ضرب الجند حول طروادة الحصار ، وكانت معارك تبيض لهولها الشعور إذا صح أنها كانت كلها في قسوة ملاحم السنة العاشرة التي اكتفى هوميروس بأن يصور لنا جزءاً منها . وكم من أبطال تميزوا في تلك الميادين الساحقة : أخيل أشجع من ولدت الأمهات وأصلب الرجال عزماً ؛ وإياس ذو الحول والطول ؛ وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلصهم وأذكرهم ؛ ثم أوليس .

وفي الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنه أعمق تغلغلاً والصق بالإغريقي العادي ربما من الجميع . فأوليس أنموذج للشعب اليوناني ذاته بما فيه من قوة وضعف ، وهو تصوير [illegible] للأخلاق اليونانية وللملكات اليونانية [illegible] الإغريق كافة ، الفطن منهم [illegible]

المغامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والإقدام على المخاطرات مع القدرة على ملابسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة فى معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحياناً الى إسكات صوت الضمير ، والتعلق بالهدف دون نظر إلى الوسائل ومدى ما فيها من قسوة . وتلك كلها صفات سنراها عند أوليس فى تاريخه الطويل على تفاوت فى النسب ، وتطور فى الاتجاه وفقاً لسير الزمن وتقدم الحضارة .

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليونانى الذى اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحى ، وإذا به يتطور بتطوره ؛ فلم تكد عصور البطولة تنقضى ويأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وارتياد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماساً للعيش ووجاهة المال ، حتى رأينا بطلنا يحتل المكان الأول فى الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هى إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسيس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار . ونظر الشعب الإغريقى فرأى أنموذجه يسايره فى تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقاً ؛ حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفكليس المؤلف المسرحى الذائع الصيت يتخذ منه بطلا لروايته الخالدة « فيلوكتيت » Philoctète وقد عمل الزمن فيه عمله فأصبح الماكر الذى لا يتورع عن شىء فى سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأوديسا ، ثم ينتهى بخبث « فيلوكتيت » وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية .

فلنتتبع إذن بطلنا نلتمس فيه صورة الشعب اليونانى بأكمله خلال مراحله التاريخية ، ولنبدأ حديثنا بأوليس الإلياذة ، ففيه حقيقة نفسه فى ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد .

وكان يوماً مشهوداً يوم رأينا أوليس لأول مرة ، فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس .

ذلك أن أخيل العاتى النفس — غضب من أجاممنون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسراً أسيرة جميلة كانت من أسلابه ، فتخلى عن القتال ؛ وكل من يذكر شجاعة أخيل التى لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الإغريق إذ ذاك من أخطار ، وخصومهم

رجال ذوو بأس . وهذا ما كان ، فقد انهزم الإغريق وانسحبوا إلى الشاطىء يعدُّون سفنهم للإقلاع وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « پالاس » ربة الذكاء وحامية الأغريق .

« فانطلقت من أعلى الأولمب بأجنحة حثيثة إلى حيث ترسو السفن ، وهنالك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس ، وجدته جامداً فى مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقفت الإلهة وخاطبته قائلة : يابن لايرت ! أيها الإلهى ! أى أوليس الحكيم ! أتنطوون بصدر وطنكم وتتركون لبريام وأهل طروادة ثمناً لنصرهم هيلانة الإغريقية ؟ ! وببلاد الأغريق ولدت ، ومن أجلها هلك كل من استشهد من إغريق حول طروادة بعيدين عن وطنهم ؟ ! هيا ! بلا مهل! إلى صفوف الجند ! بقولك المقنع أمسكهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فإذا بها پالاس التى تتجه إليه بالحديث ، وهو الإغريقى الصميم الذى يعرف كيف يجل إلهة الذكاء وبين أحضانها نما ، وبإشعاع منها متَّ إلى المجد بسبب . وهاله الموقف وقد هلعت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجاة . وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصاً عليها . فكيف له أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمله وقد ذهب الخوف بلب الهاربين ! وهبه فعل، أو لا ترى أنه هالك لا محالة ؟ ! قد تستطيع شجاعة حمقاء أن تجازف بحياة صاحبها فى يوم كهذا دون أن تصل إلى شىء . وأما أوليس فقد كان أحكم من الحق ، وأشجع من الإحجام ؛ كان ذا قلب يفكر . ولذا أقدم فى حزم المستنير ، فألقى بمعطفه وأخذ من أجاممنون صولجان الملك ليكون له الحق فى مخاطبة الجند ، ثم التأثير فيهم بما يحمل فى يده من رمز الولاية . ولعله كان يدرك بفطرته السليمة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيه لحديثه ، على نحو ما كانت الألفاظ تستطيعه بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظاهر التى تفعل فى جماهير الناس ، بل وخاصتهم فعلها العجيب . ثم سار ، «وكلما لقى أحد الملوك أو القادة أوقفه بقوله المعسول : أيها البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفا ؟ ! أثبت وثبِّت جندك . وأما إذا لقى جنديا مغموراً يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفه بأمرّ القول : أيها الشقى ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيها الجندى الخائر القوى ، المنحل العزم . يا من لا اعتبار له فى صفوف قتال ولا مجلس مشورة»!

وهكذا تهيىء الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز . ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعاً ، بتحريك معانى القوة

والكبرياء فى القلوب التى تستشعرها ، والخوف والخضوع عند من ألفوها . وهذه أدلة الذكاء الذى ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يعوق الإقدام بل ينير خطواته .

وانتهى به المسير إلى موضع الجمعية التى انعقدت للتشاور فى الأمر ، وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله الغادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان ترسيت هذا ثرثاراً مسرفاً ، خصب التفنن فى الوقاحة والجرأة ومجابهة كل مخزى ؛ كان يحذق تجريح الملوك يثير بها ضحكات الجماهير وسخريتها ، وهو أخس المحاربين . رجل أعمش أعرج ضيق كتفاه المقوستان من صدره ، وعلى رأسه المدبب كانت تتأرجح بضع شعرات شتيتة . وفطن أوليس لساعته أنه لا بد له من تغيير الجو المسيطر لتهدأ النفوس من توترها ، وتعود عن الاتجاه الذى انصرفت إليه . فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة تركت بظهره سنامًا كسنام النوق ؛ تخر باكيًا معسولا بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والفهاهة ، فعلت أصواتهم بالضحك . وهذا ما قصد إليه أوليس الذى كسب المعركة ، إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا علا المنصة وما زال بالهاربين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه ؛ وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم ؛ وهم الرجال الفطريون الذين تحركهم الكبرياء ، كما يقودهم الجشع المادى والطمع فى الأسلاب ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ؛ وقد قضت تلك الإرادة أن يحاربوا وأن ينتصروا . ففيم التراجع ؟! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة .

وكان هذا من أجمل ما نعرف فى حياة أوليس من مواقف ، وفيه تجلت صفاته النفسية : إقدام فى حكمة ، وخبرة بدخائل النفوس ، وذكاء نافذ ، وثقة بالنفس .

وتقدم الإغريق إلى أسوار طروادة يشددون عليها الحصار ، وبرز لهم أبطال المدينة يدفعونهم عنها . وأما الشيوخ فكنت تراهم يتربعون بأعلى الأسيجة حيث اتخذوا أماكنهم ليشهدوا القتال « كتلك العصافير التى تزقزق فوق الأغصان ، بينما الحصاد يعملون مناجلهم فى حقول الغلال » . وتمر بهم هيلانة فيروقهم جمالها ، ويذكرون أن امرأة كهذه تستحق أن يقتتل من أجلها الرجال . وثارت بريام رغبة الاستطلاع ، فأوقف الفتاة يسألها : « حدثينى يا بنيتى عن هذا البطل ، هذا الذى يقصر عن أجاممنون بمدى رأسه ، وإن يكن صدرًا وكتفاه أعرض منه ، وسلاحه راقد إلى الأرض الخصبة ! وأما هو فيلسير بين جنده

كما يسير الكبش غنى الجزة بين نعاجه البضة » . وأجابته هيلانة : « هذا ابن لايرت ، أوليس الحكيم . غذته أرض أيتاكا التى تمزقها الصخور الجدباء . بطل واسع الحيل ، حكيم المشورة » .

هذا هو الرجل : أبى كالكبش ، حكيم كزيس .

وكم كانت له فى الإلياذة من بطولة . ومن العدل أن نذكر سيره فى ظلام الليل مع ديوميد ليتعرف على مواقع العدو ، وما كانت لهما من مخاطرات جنونية . وفى اختيار ديوميد له أكبر دليل على أنه كان معروفا بالشجاعة المتدفقة إلى جانب أصالة الرأى . ولقد جرح ديوميد فى تلك الليلة القاتمة وأحاط به العدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيداً ، بل ضمد جروحه وعاد به .

ولم تكن شجاعة أوليس جسارة قلب فحسب ، بل شجاعة حقيقية ؛ فهو قوى الجسم قصير صلب متين . ألا ترى كيف أنه لم يخش إياس نفسه ، بل نازله فى السباق ، وانتصر عليه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعة احتفالا بدفن صديقه العزيز بتروكل ؟!

ولكنها بعد شجاعة تتميز عما سواها ؛ فهو يخضع فى الأغلب وثباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالممكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعه إلى المداراة والدهاء . ولهذا اختير على رأس وفد ذهب إلى أخيل ليثنيه عن عناده ، وهنالك وجه إلى البطل خطبة تكاد تطير بأجنحة حقيقية ، خطبة مؤثرة نافذة قوية ، ولكنه أمام عناد أخيل لا يلح ، بل يتركه بابتسامة حزينة .

ومن ثم نراه رغم شجاعته لا يحجم عن الهرب إذا قضت الضرورة . أو لم يرفض أن يعود إلى القتال مع أخيل بعد موت بتروكل ؟ « أخيل ! يا ابن الآلهة ! إنى أعرف شجاعتك ، ولكن الجند جياع ، فلا تزجهم الآن إلى القتال ليطاردوا العدو إلى مدينته . مر الجند يتغذون بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيذ فتتجدد قواهم . وما يستطيع المقاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلا بد — مهما كانت حرارة قلبه — أن يثقل التعب قليلا قليلا جسمه المنهك ، يهاجمه الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتال » .

وأما أخيل فما يريد أن يستمع لقول ، وكيف يتحدث عن ولائم وراحة وقد مات صديقه بتروكل ، وما يزال دمه يطلب الانتقام ، وقد تخلل الأسى قلوب الرجال ؟ ولكن أوليس يرد عليه فى شىء من الحكمة تملؤه المرارة : « يا ابن بيليه ، أيها البطل الذى لا يقهر !

لست أشك أنك تفوقنى قوة إذا أخذت بسلاحك ، ولـكنى أعتقد أننى أفوقك حكمة ، فسنّى فوق سنك . لقد توفرت لى الأعوام فأخذت عنها خبرة تنير لى الطريق . لتدع إذن مشورتى تطامن من حدة نفسك . لقد مل الجند الذابح بعد أن غطت السيوف منبسط الريف بالقش وضعف المحصول ، وقد مال زيس — فيصل الحرب — بالميزان . وما بالجوع يبجل الجند موتاهم . وفى كل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العدد . فمتى نضع حداً لآلامنا ؟ ! لنؤد واجب التحية لموتانا ، ولنستجمع عزمنا . لنسكب الدمع يوما على قبور من فقدنا ، ولنشبع جوعنا ، ولنرو عطشنا نحن الذين أفلتنا من الموت ، حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالا للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدثه خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شدائد الحرب بوجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيل نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثمة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن مادى النزعة ، إلا أنه قد عرف دائماً كيف يضع صالح الوطن فوق نفعه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعدُ ورع تقىٌّ يخشى الآلهة ويحترمها ، ولـكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « پالاس » إلـهة الذكاء ، فهو يخضع لها خضوعاً تاماً ، وذكاؤها صاف وحكمتها عملية يعتمد على الحظ ، ولـكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يُعدّ لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلا لصفات اليونان من أى بطل آخر من أبطال الإلياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الـكبرياء ، الغشوم الشجاعة . ولـكن الزمن سار سيرته ، فأخذت الحـكمة تطغى شيئاً فشيئاً على نفس أوليس ، وتتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » .

(٢)
فى الاودسا

يحتل أوليس فى الأودسا المـكان الذى يحتله أخيل فى الإلياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة « أودسا » مشتقة من « أودسيوس » كنية « أوليس » ؛ وأودسيوس باليونانية

هو « جوّاب الآفاق » الذى يقص هوميروس أنباء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنه إيتاكا بجزيرة كورفو الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعها على مقربة من شاطئ دلماسيا المصيف الأوروبى الجميل .

والحق إن فى اختيار هوميروس لأوليس كبطل لملحمته الثانية ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قد كان هناك أبطال آخرون من بينهم من انتهى إلى مصير جدير بأن يوحى أجمل الشعر كأياس مثلا . أياس الذى جن إذ آثر اليونان أوليس دونه بأسلحة أخيل عند موته ، مع أنه كان أعظم من أوليس إقداماً وأشد بطشاً . كان باعتراف الجميع « سياج اليونان » .

ولكن الواقع هو أن اليونانيين قد رأوا فى أوليس أنموذجا قوميا تتركز فيه صفاتهم ، وفى هذا ما يفسر اختيار هوميروس له دون كل الأبطال . لقد كان الشعب اليونانى حريصاً على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قد بنى مجده على خوض عباب اليم ، والتماس أسباب الحياة فى الأراضى النائية حيث الغنى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفة التى غلبت على أوليس فى الإلياذة هى الشجاعة المستنيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قد سار سيرته ، وأصبح الرجل اليونانى يجنح إلى تقدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ، لأنها صفاته التى يصدر عنها فى كل أموره ، ومن بينها الحنكة ، وحسن التقدير ، وفهم النفوس ، واللباقة فى معالجة المشاكل والتغلب على الصعوبات .

ولهذا عند ما نمر من الإلياذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطوراً لا ريب أنه قد ماشى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجد فى تصوير هوميروس له حقيقة الروح الإغريقية .

والذى لا شك فيه أن الأدب وبخاصة أدب شاعر واقعى كهوميروس أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر . فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قد يحدثوننا عن المثل الأعلى فى الأخلاق ؛ فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقاً لطبيعتنا البشرية ، فلا نقاوم غرائزنا ولا نحاول قتلها ، بل نتركها تنمو نمواً طبيعياً حتى لا نفسد حياتنا بكبتها ، مكتفين بأن نتخذ العقل رقيباً يحد من إسرافها ويلائم بين تنافرها . ولقد يدعونا الرواقيون إلى ألا نتأثر بالأحداث ، فلا تنخلع قلوبنا للحزن ، ولا تخف أحلامنا للطرب . ولكن هذه كلها مثل عليا ، والمثل الأعلى موضع رغبة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا .

والأدب ليس كذلك ، ففيه نجد حقيقة العقلية اليونانية كما كانت . وعند هوميروس ما يعيننا على فهمها ، فمن بين أبطاله العنيف الانفعال القاسى القلب فى نبل وإباء كأخيل ؛

ومنهم الشجاع فى روية ، الداهية عن ذكاء نافذ كأوليس .

والذى لا ريب فيه أن أوليس لم يفقد شيئاً من صفاته التى عرفناها عنه فى الإلياذة ، ولكن الأمر أمر نسب وتطور . والذى يبدو لنا فى الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قد ولى ، وكأن اليونان قد أنكروا ما فى خلق أبطالهم من إسراف ، فأصبح البطل كأوليس أقرب إلى البشر منه إلى الآلهة ، أقرب إلى الحياة منه إلى المثل الأعلى .

لم يعد أوليس البطل المقدام الذى يغامر فى حرب مثالية يبغى منها أن يستنقذ هيلانة رمز الجمال الكامل ، بل ذلك الداهية الخصب الذكاء ، ذلك السائح الطُّلَعة الذى يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعينى رأسه ويعلم عن تجربة ، فلا يعود إلى وطنه إلا وقد ملأ ناظريه بجمال ما شاهد ، وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص . وليس من شك فى أن ألزم الصفات لرجل يسعى إلى ما كان يسعى إليه أوليس هى القدرة على التمييز عن فطنة ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة حلاً موفقاً ، ولكل مأزق مخرجاً يسراً .

نعم إنه لا يزال يحتفظ فى الأودسا بصفاته الطبيعية وأخصها الشجاعة والصبر ، فقواه الجسمية لا تزال سليمة ، وإرادته القوية ما برحت فى قبضة يده يتصرف فيها كيفما شاء . ولكننا نحس أن قواه قد ازدادت خضوعاً لحكمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلا خارقاً بل بشراً كسائر البشر .

انظر إلى وصف لأوداموس Laodamos أحد أشراف الفياسيين Phéaciens له عندما ألقاه البحر بينهم : « أيها الأصدقاء ! دعونا نسأل هذه الأجنبى عما خاض من تلك المعارك المجيدة التى قوّم فيها جسمه . وفى منظره ما ينبىء بقوة الأبطال ، ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن فى منكبه صلابة ، وبأذرعه أعصاب تنبض . إن الشباب لم يفارقه وإن كانت المحن قد هدت من كيانه » .

وما إن وطئت قدماه أرض إيتاكا وطنه حتى بدا له أن يتنكر فى ملابس شحاذ كى لا ينكشف أمره وهو لا يعلم بعد إلام سار ملكه ، أو انتهى الأمر بزوجته النبيلة بنلوب وابنه الشجاع تلماك ؛ ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع الناظر . وهو يصف نفسه فيقول : « لقد صرت إلى خريف الحياة ، ولكن أليس فى قوة القش ما ينبىء بنوع الحصاد » .

وفى حرص هوميروس على أن يحتفظ لهذا الشيخ بقواه الجسمية ومظاهرها التى يصف فى دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ؛ فهم شعب كان يرى دائماً فى قوة الجسم أمارة

تفوّق ، وذلك لا فى عصور بداوتهم الأولى فحسب بل فى كل مراحل تاريخهم . وآية ذلك جزمهم المستمر على الرياضة البدنية . ألسنا نذكر أن أفلاطون نفسه قد حصر فيها هى والموسيقى والعلوم الرياضية مواد التربية بجمهوريته . والتربية عندهم لم تكن تحصيلا أو إعداداً للمهنة ، بل تكويناً للملكات جسمية كانت أو روحية . ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وجماله وقوته من أن نرى سقراط نفسه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليقلل من قبح جسمه المتبعج ويقوى من ضعفه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه وقد اجتمعوا يوماً بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد رياضة جسمى أن أتعهد صحتى ، فأتمتع بأكل هنىء ونوم سليم ؟ ! أتضحكون لأنكم تعتقدون أن شيخاً مثلى لن يصاحب مدرباً رياضياً إلى الخلاء فيعرى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هذا الغلام ؟ ! أتضحكون لأنى سأتمرن فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ؟ أم تضحكون لأننى رحت ببطن كبير إلى حد ما ، فأردت أن أرده إلى حجم معقول ؟ » . وفى هذا يقول شاعرهم أناكريون : « عند ما يرقص الشيخ لا ترى فيه عجوزاً غير شعره ، وأما روحه فلا تزال فتية » .

وفى كل هذا ما لا يدع مجالا للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل بعنايته جسمه صفة كان اليونان يحرصون عليها كل الحرص . والكثير من شعوب أوروبا لا يزالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، من أن قوة الجسم فضيلة لا تقل أهمية عن الفضائل الروحية ، وإنه لمن الحمق أن نحتقرها أو نرى فيها أمراً ثانوياً .

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعد شيئاً إلى جوار قوة إرادته ونفاذ ذكائه .

ولكم من مرة أوشك الموت أن يتلقفه لولا تملكه لنفسه . ونحن لا نعرف ملاحاً سواه مر بمضيق ميسينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين Sirénes الساحرات الصوت ثم صمد لإغرائهن . قالوا إنه أمر رجاله فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شداً كلما طلب إليهم أن يحلوه ، وما الوثاق إلا رمز لسيطرته على أهوائه . وهكذا مرت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها سفن أخذ ربانها بعذوبة الصوت فدنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضاً قاوم كاليبسو Calipso الإلهية الجمال ، عند ما أرادت أن تستبقيه فى كهفها بإحدى الجزر زوجاً لها ؛ كما انتصر على ترسيه Cercé وعلى السكلوب المخيف ، ثم على بوزيدون نفسه إله البحر القاسى . أوليس أقوى من أنصاف الآلهة بل ومن الآلهة ، لأنه قابض على زمام أمره ؛ وقد انعقد عزمه على أن يعود إلى مملكته

حيث زوجته الوفية بنلوب Penelope التي كانت تنتظره في صبر منذ سنين ، والتي لم تكن تقل عنه دهاء ، وقد رأت خطابها الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدتهم أن تختار لنفسها من بينهم زوجاً بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنها أخذت تنقض بالليل ما تعمله في النهار ، وبذلك لم تنته حتى عاد زوجها فأنقذها .

ثم أية مقدرة على كبت مشاعره وإخفاء ما يثور بنفسه من انفعال ! انظر إليه وقد عاد متنكراً إلى بيته وزوجته تجهل حقيقته ، فتتحدث عن أوليس الغائب أرق الحديث : « وعند ما رأى بكاء زوجته المر استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقة بجفنيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يحذق فن التصنع إلى حد يستطيع معه أن يحبس دموعه » .

وما هي إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذاً مزدرى يتلقى بقلب جريح من عشاق زوجته كل أهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيته من أذى ، « اهتز قلبه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباحها القوى وتتحرق للقتال إذا دنا غريب من أبنائها وهي تسير بينهم لحمايتهم ، كذلك زأر قلب البطل وقد أنهكه تحمل ما يرى من هوان . ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبات قلبه الفتى . هدوءاً أيها القلب ! لقد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن . لقد رأيت بعيني رأسك ذلك السكلوب الذي لا يقهر يفترس رفاقك الشجعان فثبت حتى استطعت بحكمتك أن تنجو من مغارته حيث كان الهلاك محققاً . هكذا زجر قلبه فسكن وكأنه قد أوثق فخمدت فيه كل نأمة » .

وتجلد بطلنا مشركا معه ابنه تليماك ، وقد عاد من رحلة قام بها بحثاً عن أبيه ، وأخذ يعد لهؤلاء العشاق الوقحين وسائل الهلاك في دهاء محكم ، قال لولده : « إنني أرى كل شيء وما يفلت مني شيء » . وتلك هي رؤية المكن وحدوده لا يعدوها عند وضع الخطط . وما إن علم بوفرة أعدائه حتى لزم التنكر . وهو في ذلك مثل الكثير من قادة اليونان ؛ وكلنا يذكر بلا ريب فيليب المقدوني الذي عرف كيف يكسو الأسد جلد الثعلب .

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعدُ خسة ، ومصدره فهم لنفوس البشر واستغلال لشهواتهم ، ولئن نصب شراكا فهو لم ينصبها إلا للحمقى . ومن الواضح أن هذا الدهاء هو الصفة التي تعلقت الأودسا بإظهارها . وفي أحد مواضعها تخبرنا هيلانة أصل البلاء ، « أنه قد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متنكراً في ثياب شحاذ (شنشنة قديمة ! !) فرأى كل شيء قبل أن يفطن إليه أحد ، ثم قتل نفراً من رؤساء المدينة وولى » . ونحن نعلم من

مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كمن ببطنه هو ونفر من الجند ، ثم تظاهر اليونان بالانسحاب مخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة ظانين أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانباً منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا فى قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ، وكر اليونان ، فاقتحموا على العدو مأواه ، وبذا سقطت طروادة ، وأصبح « حصانها » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدهاء هو نفسه الذى مكن لأوليس من رقاب الخُطَّاب ، فإنه لم يزل يعد العدة ، ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملابسات النجاح ، فأغلق باب القصر وفتك بأعدائه أشد فتك . وما إن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها فى الإلياذة . وأوضح ما نلمح من تلك القسوة هو شنقه للقوادات بسقف منزله ، فذلك منظر شابت لهوله النواصى . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « عُلِّقْن كالعصافير تهز أرجلها برهة ثم تفارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدهاء الماكر لا نستطيع أن نرى فى أوليس خلقاً ذميماً ، فقسوته لها ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا فى الحرب أو دفاعاً عن شرفه ، ورداً لحمق البشر وأذاهم . بل نحن لا نستطيع إلا أن نعجب لرقته فى حديث له بإحدى الجزر التى مر بها حيث لقى نوزيكا Nausica بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحييها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسية التى عرفناها فى القرون الوسطى منها بأخلاق البداوة الإغريقية التى كانت سائدة فى ذلك الحين .

ثم إنه كان يحب وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبل . استمع إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيتاكا الشهيرة التى تنظر إليها الشمس وقت الغروب . فيها ترف الأوراق الكثيفة على سطح النيرت Neiret عند الظهيرة ، وأما الفجر فينثر حولها عدداً وفيراً من الجزر الخصبة : دوليكيم Dulicheum وساميه Samé وزا كانت Zacintae الخضراء ؛ بلدى تقع على مقربة من أرض اليونان ، جزيرة تقطعها الصخور ولكنها منبت فتية بواسل . لا ! ليس فى الأرض مكان أحب إلى قلبى منها . عبثاً حاولت كاليسو أن تستبقينى بكهفها لتخصنى بشرف الزواج بها . عبثاً حاولت سرسية العالمة بكل ما يعرف السحر من حيل أن تعرض على العرض نفسه فتحتفظ بى موثقاً بحبائل الزواج . لقد تبددت جهودهن هباء ، فعجزن عن إمالة قلبى ، وذلك لأن أرض الوطن وما تقل من أهل وهبونا الحياة ،

واتصلت قلوبنا بقلوبهم ، قد أوحت إلى بحب رقيق لا يستطيع كل ما فى الأرض من مجد وخيرات أن يصرفنى عنه » .

ونحن نعلم أنه لم يكد يطأ أرض الوطن حتى قبّل ترابه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكراً أن قدنه إليه .

ذلك هو أوليس الأودسا : بقية من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثم عقل كبير ودهاء خصب ؛ قسوة حيث تغتفر القسوة ، ولين ورقة قلب حيث تهتز النفس ويثور الفؤاد . ولـكنه بلا ريب لم يعـد أوليس الإلياذة ؛ وأكبر دليل على ذلك أن نراه يوماً يستمع إلى شاعر متجوّل بإحدى الجزر فينصت ، وإذا بالشاعر يتغنى بحرب طروادة فيغطى بطلنا المغوار رأسه ويأخذ فى البكاء . ونحن على ثقة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإلياذة فى ذلك اليوم لأنـكروه .

لا . إن أوليس لم يعد من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفـكير يتغلب فى نفسه على خشونة البداوة . أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر . وهذا أمر لا عيب فيه ، ولـكن طريق الحضارة طريق زلق سوف نراه فى الحديث الآتى ينتهى برجلنا كما انتهى بالشعب اليونانى كله إلى بوادر انحلال خلق . ستـكون إحدى مظاهره ذلك الخبث القبيح الذى يصدر عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctète مسرحية سوفـكليس الروائى العظيم .

(٣)

فى فيلوكتت

تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الدهاء مما عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم فى فيلوكتت Philoctète مسرحية سوفوكليس الشاعر العظيم ؛ فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميـلاد ؛ وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعـدد السوفسطائيون فأخذت بوادر الانحلال تدب فى الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفـكير ملـكة خبيثة كثيراً ما تنتهى بالإنسان إلى تبرير كل الوسائل ، والتماس كافة السبل لما نسعى إليه من أهداف ، فيسكت صوت الضمير ، وتختفى من النفس معانى النبل التى تتوافر عادة فى البداوة .

وهذا ما كان من أمر أوليس رمز الشعب اليونانى كله ، فهو لم يعد الداهية الشجاع ، بل الخبيث الجبان الذى لا يتورع عن شىء ، ولا يقيم لمبادئ الخلق أى وزن . ولا أدل على ذلك من أن ننظر فى موقفه من فيلوكتت أحد أبطال تساليا الخالدى الذكر .

« فيلوكتت » بطل أبىّ النفس بعيد الهمة . لاقاء يوماً هرقل فاتخذ منه رفيقاً ، صاحبه فى كثير من أعمال بطولته التى خلدت ذكره ، إلى أن حم القضاء فمات هرقل برداء مسموم أعطته إياه زوجته « ديچانير » خطأ ، فى قصة طويلة مؤثرة . ولما كان هرقل يحب « فيلوكتت » ، فقد أعطاه عند احتضاره قوسه الشهيرة وأسهمه النافذة ، وأوصاه أن يقوم بنفسه على إحراق جثته كما جرت عادة القدماء .

وعند ما هم اليونان بالانتقام « لمينيلاس » ، ونادوا بإعداد السفن والرجال للإبحار إلى آسيا الصغرى ، لم يتخلف فيلوكتت ، بل قدم ست سفن كبيرة زودها بالجند ، وأبحر هو على رأسهم ، ولكن محن الأيام شاءت إلا أن تلدغه حية بإحدى الجزر التى أرسوا بها أثناء رحلتهم الطويلة . لدغته فى رجله ، فنغر الجرح واشتدت رائحته الكريهة . فتشاور الرؤساء فى أمره . ومن عجب أن نرى « أوليس » يدعوهم إلى تركه بجزيرة « لمنوس » تخلصاً منه إذ لم يعد صالحاً لشىء . وفى هذا ما يحزن . فقد سبق أن رأينا أوليس نفسه فى الإلياذة يحرص على ألا يتخلى عن زميله « ديوميد » عندما جرح فى الغزوة التى اشتركا فيها ، وقد أحاط بهما العدو والليل حالك الظلام . وهوميروس يحدثنا أنه قد أظهر عندئذ نبلا وشجاعة لا حد لجمالها ، إذ ضمد جراح رفيقه وعاد به سالماً . ولكن الزمن كما قلنا لم يعد زمن البطولة الكريمة ، بل زمن النفع المباشر الذى يستطيع كل فرد أن يجنيه من زميله .

ترك اليونان إذن « فيلوكتت » نزولا على إرادة أوليس الذى تولى بنفسه تنفيذ الجريمة . ووصلت الحملة إلى طروادة ، وكان ما كان من حصار المدينة عشر سنوات دون التمكن من أخذها ، حتى ملّ الجند وطلبوا إلى رؤسائهم أن يستشيروا عرافاً لعله يدلهم على سر أو ينبئهم بوسيلة . وقال العراف : « إن طروادة لن تسقط إلا على يد من يمتلك قوس هرقل وأسهمه » فسُقط فى يد الجميع وحارت الألباب ؛ إذ من يستطيع أن يعود إلى جزيرة لمنوس بعد عشر سنين ليطلب إلى فيلوكتت أن يعطيهم أسلحته أو أن يخف إلى نجدتهم ؟

***

وساءت الأمور ، فأخيل نفسه قد قتل ، وأعجب ما فى الأمر أن تكون وفاته بسهم يطلقه « باريس » حلس النساء فيصيب كعبه ، ويتساءل الناس جميعاً : كيف يموت بطل

— لم تر الأرض مثله — بإصابة فى كعبه ، ويستنكرون موتاً كهذا . ولكنهم يقتنعون بإرادة القضاء ، إذ يبحثون فيعلمون أن أخيل كان منيع الجسم كله ، وأنه لم يكن فيه موضع ضعف غير كعبه ؛ وذلك لأن « زيس » كان قد أوصى « تيتيس » ، ربة البحار وأم البطل ، أن تغمس ولدها عند ميلاده فى الماء عدة مرات حتى يبتل جسمه كله فيصبح فى مناعة تامة . ولكن الأم المسكينة نسيت أن تبلل الكعب أيضاً ، إذ كانت يدها تغطيه وهى تنكس ولدها فى البحر . وفى الحق إنها إرادة الآلهة ، فالخلود لم يكتب لأحد . وإلى اليوم لا يزال « كعب أخيل » مضرب الأمثال لموضع الضعف فى كل رجل مهما كانت قوته ومهما علا مجده .

مات إذن أخيل ، ولكنه خلف ولداً لا يقل عن أبيه شجاعة . خلف « نيوبتولم » Neoptolème أى « القائد الحديث » ، وقد رزقه من إحدى أميرات جزيرة سركوس Syrcos ، حيث قادته إرادة الآلهة قبل نشوب الحرب . وكان أوليس يعلم بوجود هذا الشبل ويؤمن بأنه سيكون خير عوض عن أبيه . ونظر فرأى أنه لن يستطيع أحد أن يقترب من فيلوكتت الثائر المتألم الحامى الحفيظة غير هذا الطفل القدام ، الساذج الشجاعة . فاقترح أن يسير هو إليه فى جزيرة سركوس ، وأن يخبره بنبأ وفاة أبيه ، ثم يطلب إليه أن يصاحبه إلى جزيرة « لمنوس » ، حيث فيلوكتت الذى لم يكن بد من إحضاره لكى تتحقق نبوءة العراف .

وصل أوليس إلى سركوس ، وهناك وجد نيوبتولم ، فأخذ يصطنع كل الحيل ليقنعه بما يريد . من ذلك أنه أعطاه أسلحة أخيل أبيه . ونحن نذكر أن اليونان كانوا قد آثروا أوليس — لدهائه — بتلك الأسلحة دون « أياس » الذى جن لهذه الإهانة وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، مما زاد فى مصاعب الجيش اليونانى وقد أخذ يفقد خيرة أبطاله الواحد بعد الآخر ، فهوّن ذلك على أوليس كل تضحية فى سبيل النصر ، بله النجاة . ومن حيله الأخرى لإغراء نيوبتولم أن حرك فيه كبرياء الطفل ، ولوّح له برايات المجد . قال : « إن طروادة ستسقط على يديك إذا استطعت أن تحضر فيلوكتت ومعه أسلحة هرقل التى ورثها عند موت ذلك البطل الشهير ، فيلوكتت الذى قضت إرادة الآلهة أن يكون موت باريس قاتل أبيك على يديه ، وهو الذى سيساعدك على دخول طروادة » .

ولم يزل أوليس بنيوبتولم حتى أقنعه بالسير معه إلى لمنوس . وهنا تبدأ مسرحية سوفوكليس ، فقد وصل هذا الداهية الخبيث إلى الجزيرة ومعه طفلنا الشهم ، وجاء دور العمل ، فرأينا أوليس الماكر الجبان يظل فى الخلف ليدفع نيوبتولم إلى المخاطرة ، وهو يعلم أن فيلوكتت

رجل أنزلت به الخيانة أشد المحن ، فعرفت نفســه المرارة ، وقد قضى بتلك الجزيرة — التى يأبى الشاعر إلا أن يجعل منها أرضاً جدباء موحشة — عشر سنين وذكريات مجده الذى ضاع ، ووطنه الذى حرم منه تلح على قلبــه فيثور ويتحرق للانتقام ؛ ثم إنه يملك قوساً وأسلحة لا تزال حتى اليوم خالدة الشهرة . والذى لا شك فيه أنه كان يحقد على كل اليونان ، وينتظر يوماً يستطيع فيه أن يُسيل دماءهم جزاء وفاقاً لغدرهم به . ومع ذلك فلننظر بأى خبث يدفع أوليس طفلنا إلى الهلاك :

« يجب أن تخلب لب فيلوكتت بقول خادع . عند ما يسألك من أنت ومن أين أتيت ، قل له إنك ابن أخيل . وهذا حق لا مواربة فيه ! تظاهر أنك عائد إلى وطنك بعد أن تركت أسطول اليونان موضع بغضك العميق ! أنت الذى استدرجوك بأوضع التوسلات عند ما لم يكن لهم غنى عنك لأخذ طروادة ، ثم لم يروك أهلا لأن ترث أسلحة أخيل فأعطوها لأوليس ، مع أنك أحق بها من كل إنسان ! وهنا تستطيع أن تشبعنى سباباً . وأنت إذ تفعل ذلك لن تسىء إلىّ فى شىء ، فى حين أنك لو اتخذت سبيلا آخر لسببت لليونان كافة أقسى المحن . ثم إنك لن تستطيع هدم سياج طروادة ما لم تستول على ما يملك هذا الرجل من قوس وأسهم .

ولو أننى ذهبت بنفسى لحديثه لما كان فى ذلك شىء من الاطمئنان أو ضمان السلامة ، بينما تستطيع أنت ذلك دون أية مجازفة . ولو أنه أحس بوجودى وقوسه بيده لضعتُ ولضعتَ معى كرفيق سفرى . يجب عليك أن تحتال لسرقة سلاحه » .

ويطرق « نيوبتولم » ، ويحس أوليس بما ثار فى نفسه ، فيبادره بقوله المعسول الذى ينفث السم : « لست أجهل يا ولدى أن طبعك لا يسمح لك بأن تفوه بكلمات خادعة ، أو أن تأتى بأعمال ملتوية ، ومع ذلك ما أحلى أن نفوز بالنصر ! الجرأة إذن الجرأة ! حتى نفوز بما نبغى . وبعد ذلك لدينا متسع لنكون أمناء صادقين . عليك الآن أن تضحى بصدقك وأمانتك مدى جزء صغير من يومنا هذا ، وبعد ذلك لك أن تكون أبد السنين أشرف الرجال » .

وهذا موضع الانحلال . داء عضال كم نخر فى عظام الإنسانية منذ أقدم العصور ، إلى أن جاء ميكافلى ، المفكر الإيطالى المعروف ، فأقامه مذهباً معبراً عنــه فى كتابه « الأمير » بجملته المسفة : « الغاية تبرر الوسائل » . وتلك نغمات لم نسمعها من أوليس الإلياذة ، بل ولا من أوليس الأودسا . ولكنها بوادر الفساد التى أخذت تنتشر فى القرن الخامس عند ما ظهرت الفلسفة وامتدت بسفسطتها إلى الأخلاق التقليدية ، تلقى الشك فى قيمها ، وتلتمس للخروج عليها تأويل باطلة .

ورفض نيوپتولم عرض أوليس . رفضه لأنه ابن أخيل . ولقد كان أبوه يفضل الموت على أن يفكر فى شيء ويفعل غيره . نيوپتولم شاب كريم الطبع نبيل الخلق ، فكيف يستطيع أن يكذب ويغدر وينافق فى جبن ؟! وهل هناك غاية مهما جلت أو نبلت تستطيع أن تبرر العيوب الخلقية ؟ ومع ذلك لا ييأس أوليس من إغرائه :

« وأنا أيضاً — يا ابن البطل المغوار — عندما كنت شابا كنت أطول ذراعا من لسان . وأما اليوم وقد حنكتنى التجارب فقد أصبحت أعتقد أن الأحياء يسيطر عليهم اللسان أكثر مما يسيطر الذراع » .

وهذه سفسطة جورجياس بعينها . ويصيح نيوپتولم مغضبا من دعوة أوليس له إلى الكذب . ولكن هذا الأخير يجيبه فى برود : « إنه ليس فى الكذب عار ما دام فيه منجاة لنا ، بل ما دام فيه نفع لنا » !!

ولا غرابة فى ذلك ، فأوليس لم يعد يدعو « پالاس » الإلهة النبيلة عندما يحزبه أمر ، بل هرمس إله التجار واللصوص والمتفقة . لقد تنكر أوليس لآلهته القدماء ومعه الشعب اليونانى كله ، وهو طبعاً يرفض ما يصفه به أعداؤه من انحطاط ، ويحاول أن يرفع كذبه إلى مستوى الفلسفة فيجعل منه مذهباً نظرياً . ألم يقل عند ما سمع سباب فيلوكتت له : « باستطاعتى أن أرد عليه رداً طويلا ، ولكن الوقت لا يسمح لى بذلك اليوم . وأما الآن فليس لدى إلا شيء واحد أجيب به ، وهو : أننى كما يقتضى كل ظرف . فحيث تطلب الاستقامة والعدل لا ترى أعدل منى ولا أقوم ؛ ومع ذلك فقد أملت على طبيعتى شهوة الطموح إلى النصر دائماً » . وهنا يلحق سوفوكليس بالمؤرخ توسيديد عند ما يصف لنا أخلاق اليونان إبان الحرب البلپونيزية .

ولقد كان الأمر يهون لو أن الفساد لم ينته بأن يمتد إلى نيوپتولم نفسه ؛ فأوليس لم يزل به يغريه بالمجد والنصر حتى سخره لما أراد . وذوو النظر يجمعون على أن الصفة التى وقعت فى نفس الطفل عند تملق أوليس له لم تكن الصفة التقليدية : « أيها الشاب الجميل الخير » بل : «أيها الشاب الحكيم الخير» ، وفى استبدال أوليس للفظة «الجميل» بلفظة «الحكيم» ما يلخص تطور الروح اليونانية كلها ، فهم لم يعودوا يقدرون جمال الجسم وقوته وشجاعته تقديرهم للذكاء والدهاء والمكر التى أصبحوا يسمونها حكمة .

وهكذا نرى نيوپتولم يسير إلى فيلوكتت ويخدعه بالكذب ، فيدعى أنه سيعود إلى سيركوس ، وأنه لا يعرف محدثه ، ولا سبب محنته ، كما يتظاهر بأنه هو الآخر فريسة لظلم

اليونان ، وهو يسرف فى ذم أوليس وغيره من الأبطال ويتهمهم بالسرقة والخيانة : سرقة أسلحة أبيه — مع أن أوليس كان قد أعادها إليه — ثم خيانة بعضهم بعضاً . وهكذا نرى ابن أخيل نفسه يقلب الحقائق ، ولكنه أحد إغريقى القرن الخامس ، ولكن أستاذه هو أوليس .

وانتهى به الأمر إلى أخذ الأسلحة من فيلوكتت ، وقاد الرجل المسكين إلى الشاطىء ليبحروا جميعاً . وهنا عاودت نيوبتولم بقية من نبل طبعه الأصيل ، فاعترف بالحقيقة ظانا أن فيلوكتت سيعفو عما كان . ولكن فيلوكتت كان على الخلق القديم ، كان لا يزال صلب العناد قوى النفس ، وكأنى به يستشعر الحزن كلما ذكر تلك اللحظة المشئومة التى فتح فيها عينيه وهو ملق على الشاطىء ، فرأى السفن تختفى فى الأفق بعد أن خلفته منبوذاً لجراحه الدامية . نعم لقد مضى على ذلك عشر سنوات ، ولكن الألم لم يبرح ، والجرح لم يلتئم . فأى غرابة فى أن يثور عند ما يخبره نيوبتولم بهذه الخيانة الجديدة ! أى غرابة فى أن يصيح طالبا أسلحته ليقضى على نفسه ويقطع أوصاله غيظا ، إذ عاد فوقع فريسة هينة للغدر والاحتيال ، وقد أصبح لا يريد شفاء ولا مجدا ، بل يرى المجد والشفاء فى أن ينتقم لنفسه ، وأن يرى هلاك اليونان بعد عجزهم عن الاستيلاء على طروادة التى أفنت أبطالهم وأرتهم من المحن ألوانا عشر سنوات .

وحار أوليس ونيوبتولم فى الأمر ، وقد نفدت منهما الحيل ، ولم يبق إلا أن يطلبا عون الآلهة . وهذا ما كان ؛ فقد ترفق زيس فأرسل شبح هرقل إلى فيلوكتت ، يطلب إليه أن يسير إلى طروادة حيث يجد الشفاء ويصيب المجد بقتل باريس قاتل أخيل أكبر أبطال اليونان ، ثم بالمساهمة فى أخذ طروادة . وأطاع فيلوكتت وقد هدأت نفسه ، فودع لمنوس مقر محنته ، كما ودع البحر الصاخب من حوله أجمل الوداع ، ووصل إلى طروادة حيث تحققت نبوءات العراف وإرادة الآلهة . وبعد أن تم له ما أصاب من مجد عاد إلى وطنه فى رحلة لم تستغرق غير سنة واحدة . وأما أوليس فقد ظل يتخبط بالبحار عشر سنوات كما رأينا فى الأوذسا . عاد فيلوكتت إلى وطنه قبل أوليس بتسع سنوات ، ولعل فى ذلك بعض العوض عما أنزلت به الأقدار من محن .

أوليس لم يعد إذن كما عهدناه ، ومع ذلك فنحن لا نزال فى عصر سوفوكليس ، فما بالكم عند ما يتراخى الزمن قليلا إلى عصر أوريبيدس الذى يخيل إلينا أن بينه وبين سوفوكليس قروناً . ولكن الزمن لا يقاس بالسنين بل بما فيه من أحداث . ولقد كانت الحياة الفكرية

فى ذلك الحين مستمرة التقدم ، وبتقدمها أخذت الأخلاق تنحل ، حتى رأينا رجلا كألسبياد الزعيم الآتينى الشهير لا يتحرج أن ينضم إلى الأعداء ضد وطنه مرة ومرة ، ما دام يرى فى ذلك تحقيقاً لمطامعه المسرفة .

أوليس سوفكليس يمثل مرحلة فى تاريخ اليونان . وهو مهما كانت عيوبه لم يصل بعد إلى ما نراه فى تاريخهم المتأخر عندما ينتهى بهم الأمر إلى السقوط فى يد المقدونيين ثم الرومان ومن تبعهم ، إذ ظلوا مستعبدين ولم يستطيعوا استرداد استقلالهم إلا أخيراً فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولكن أوليس لم يفن بفنائهم ، بل ظل خالداً يوحى إلى الشعراء والكتاب شتى المعانى ، وذلك لأنه وليد العبقرية ، وهذه لا سلطان للزمن عليها .

(٤)

فى الآداب الحديثة

لم يمت أوليس بموت الشعب اليونانى وسقوطه فى قبضة الاستعمار قروناً طويلة . فأوليس كما قلنا من خلق العبقرية ، وهذه لا سلطان للبشر عليها بل ولا للزمن ، فقد عادت الإنسانية أيام البعث العلمى تنقب عن ذلك التراث الجليل الذى لم يكن من الممكن أن تطمس الأيام معالمه إلى غير رجعة .

عادت الإنسانية إلى تراث اليونان تعاود فيه البصر التماساً لوحى جديد ، وكان أوليس ممن استوقف الناظرين ، وذلك لما اجتمعت إليه من صفات وتركزت فيه من رموز . فهو لم يكن أنموذج الشعب الإغريقى فى مراحله التاريخية المختلفة فحسب ، بل أنموذجاً بشرياً فيه الكثير من نواحينا الإنسانية التى نمتلكها أو نود أن نمتلكها : فيه الحنين إلى الوطن واللهفة إلى العودة إليه مهما كان فى ذلك من مخاطرات ، فيه روح المغامرة التى تدفعنا إلى الضرب فى الأرض والبحار لنفيد تجارب ونثرى بما نشاهد من صور . فيه حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة التى لا تعدل بالفهم شيئاً ولا يردها عن ذلك شىء . فيه كل هذا وفوق هذا من المعانى التى ما زلنا نحرص عليها أو نقف دونها .

أوليس شخصية غنية . نظر فيها كل شاعر وكاتب فوجد ما يريد . فدانتى يأبى إلا أن يحدثنا عما صار إليه بطلنا من مصير وهو ينبئنا أنه قد لقيه فى « الجحيم » وتسقط حديثه فإذا به يقول : عند ما غادرت سيرسيه التى احتفظت بى مختبئاً أكثر من عام لم تستطع صورة

ولدى العزيز ولا رى بوالدى الشيخ بل ولا الحب الذى كان مصدر سعادة لبناوب . لم يستطع شىء من كل هذا أن يهزم فى نفسى اللهفة إلى معرفة العالم . لقد رأيت كل الشواطىء ، حتى إسبانيا ومراكش وجزيرة سردينيا وغيرها من الجزر التى يبللها البحر . لقد كنت أنا ورفاقى شيوخا مثقلين عندما وصلنا إلى ذلك المضيق الضيق الذى وضع هرقل عنده الحدود لينذر الرجال أن لا يعدوه . وكنت قد خلفت أشبيلية عن يمينى وكانت سبتا قد خلفتنى عن اليسار . عندئذ قلت : أيها الإخوان الذين وصلوا إلى المغرب خلال آلاف المخاطر ! اتبعوا الشمس ولا تحجموا عن النفاذ ، بما بقى لكم من حواس ، إلى ذلك العالم الذى لايسكنه أحد والذى تولى الشمس عنا لتضيئه . أذكروا من أنتم ، أذكروا أنكم لم تولدوا لتعيشوا كالدواب بل لتبحثوا عن الفضيلة والمعرفة . بهذه الأقوال الموجزة أثرت رفاقى ليستمروا فى طريقهم حتى لقد وجدت بعد ذلك مشقة فى أن أثنيهم . أدرنا مؤخر السفينة نحو الشرق واتخذنا من المجاديف أجنحة نطير بها فى جنون متجهين باستمرار نحو اليسار ، ووصلنا إلى حيث أصبحت أرى فى الليل نجوم القطب الآخر كلها . وأما قطبنا فكان من الهبوط بحيث لا يرتفع فوق أمواج البحر . وأشعل القمر قبسه خمس مرات وأطفأه خمس مرات منذ دخلنا إلى جوف البحر ، وإذا بجبل يظهر معتما لبعدنا عنه ، وإن لاح لى أعلى من كل ما رأيت من جبال ، ففرحنا ، ولكن فرحنا لم يلبث أن انقلب دموعاً ، إذ أتتنا « دوامة » من الأرض الجديدة صدمت مقدم السفينة ودارت بها مع الموج ثلاث دورات وفى الرابعة رفعت مؤخرها إلى أعلا وغرست مقدمها إلى أسفل ، وظللنا هكذا إلى أن ابتلعنا البحر » .

هذا هو المصير الذى تصوره دانتى لأوليس ، ودانتى من رجال البعث الذين لم يكونوا يعدلون بالمعرفة شيئاً . فلا غرابة إذن فى أن نراه ينتهى بأوليس إلى هذا الموت المجيد ، وقد هفت نفسه إلى استطلاع ما خلف مغرب الشمس من عوالم ، وعجزت كل روابطه بذويه عن أن تثنيه عن السير للبحث عن تلك المعرفة .

وأما الشاعر الفرنسى الرقيق دى بللى Du Bellay أحد كبار شعراء فرنسا فى القرن السادس عشر فلم ير فى أوليس إلا رمزاً لمن يسعده الحظ فيقوم برحلة جميلة يفيد منها تجارب وحكمة ثم يعود إلى أهله فرحاً راضياً . أوليس عنده حنين إلى الوطن . ولقد كان شاعرنا ملحقاً بالسلك السياسى بروما ، وهو من مقاطعة « أنجو » الجميلة بفرنسا ، ولهذه المقاطعة شهرة واسعة لا نعرف لها سبباً خاصاً اللهم إلا أن تكون أشعار دى بللى هى التى خلقت حولها ذلك الجو الشعرى الجميل . قال الشاعر وقد برحت به الغربة :

« سعيد من يقوم برحلة جميلة كأوليس ، أو كذلك الذى استولى على الجزة الذهبية (يقصد جازون) ، ثم يعود ليعيش بين أهله بقية حياته وقد امتلأ خبرة وحكمة .

وا أسفاه ! متى سأعود إلى رؤية مدفأة قريتنا الصغيرة ترسل دخانها . فى أى فصل سأعود إلى رؤية حديقة منزلنا المسكين الذى يعدل عندى مقاطعة بأكملها بل أكثر من ذلك المأوى الذى بناه أجدادى أحلى عندى من قصور الرومان الجسورة الجباه . أردواز سقوفنا المرهف أحلى من الرخام الصلب .

« لوارنا » — نهر الغال — أحلى من « التيبر » اللاتينى . « أليريه » الصغير أجمل من جبل « البلتان » وعذوبة « أنجو » أرق من هواء البحر » .

وفى انجلترا فى القرن التاسع عشر مثل أوليس عند الشاعر الذائع الصيت الفريد تنيسون روح المغامرة وراء البحار . وتلك صفة يشارك فيها الإنجليز الشعب اليونانى القديم . بأى ثبات يتحدث عن هذا البطل الذى لم يعد يطيق البقاء قابعا بعقرداره وقد ملها بعد العودة إليها .

قال الشاعر فى قصيدته الرائعة « أوليس » :

« فيم البقاء بتلك الديار الهامدة بين عارى الصخور الى جوار زوج عجوز . ملك عاطل يقيم عدلا موتوراً بين قوم جفاة لا هم لهم إلا حيازة المال وملء البطون والغط فى النوم . إنى غريب عنهم ولا بد لى من الرحيل .

لكم أمعنت فى المسرات وأمعنت فى الأحزان . أنفرد بها حيناً وأشرك من أحببت حيناً وقد استوى فى ذلك أرض ويم ما أرسيت إلى شاطىء أو أثرت زبداً تتغطى به عرائس اليم الباكية ظلمة البحار .

لقد أصبحت إسماً يذكر ، وجبت الآفاق بقلب نهم ، فرأيت الكثير وفهمت الكثير : مدناً آهلة وعادات وأجواء ومجالس وحكومات . رأيت نفسى وفهمت نفسى غير متخلفة وقد انعقد لها احترام الجميع .

لكم جرعت من نشوة المعارك إلى جوار أندادى بسهول طروادة ، حيث تقصف الرياح وتتردد الأصداء ، وقد خلفت بعضاً من نفسى بكل ما لقيت . لكنها الحياة ، قباب ممتدة نلمح خلالها بقاعاً فسيحة لم نجبها ، وآفاقها أبداً مترامية كلما حاولنا منها دنواً . ما أقبح أن نقف . ما أقبح أن ننتهى ، والسيف يصدئه الغمد ويجلوه الطعن ، وما الحياة بأنفاس نرددها . ما أقل أن تجتمع حياة إلى حياة ، فكيف بى وما لى غير واحدة نفدت فلم يبق لى منها إلا القليل ، ولكننى استنقذها من الصمت الأبدى ساعة فساعة فأثرى وأفيد جديداً . ما أقبح

أن تحتبس النفس أعواماً وقد هرمت تلهبها الرغبة فى التماس المعرفة كما يلتمس نجم يهوى خلف ما تمتد إليه عقول البشر . ها هو ولدى تليماك . سأترك له جزيرتى وصولجانى وقد حبوته محبتى ، وعهدى به بصيراً بالحكم ، قادراً على أن يروض بحكمته جماح هذا الشعب العنيف ، وأن يحمله بلا رفق على الفطنة إلى ما فيه الخير والنفع . وما به من عيب . وأنه لآخذ نفسه بالتزام واجبه ، وأنه لأعف من أن يعق فروض المحبة أو أن يتراخى فى تبجيل آلهتنا عندما تشتط بنا النوى . ليكن له هذا ، وليكن لى ما خلقت له .

ها هو المرفأ . ها هى السفن تنشر الرياح قلاعها . ها هى البحار الشاسعة المظلمة يعتم ضياؤها ، وأنتم رفاق اليم ! كم جهدتم وكم فكرتم إلى جوارى والابتسامة لا تغادر شفاهكم ، ثارت عاصفة أو أشرقت شمس ، تلقونها جميعاً بقلب طليق . لقد تقدمت بى وبكم السنون ، ولكن للكبير مجده وجده إلى أن يختتم الموت الحياة . وما تزال لدينا جلائل من الأمور تليق برجال مثلنا نازلوا الآلهة .

ها هى الأضواء تنبعث من أعلى الصخور ، وها هو النهار ينصرم وقد أخذ القمر يسمو بالأفق وأعماق البحار تئن متعددة الأنغام . هيا أيها الرفاق ، فما يزال لدينا متسع للبحث عن عوالم جديدة . ادفعوا السفن . استقروا بأمكنتكم والطموا المسابح الصاخبة . ولتكن غايتنا إلى ما خلف مهد الشمس ومسارب نجوم الغرب ، حتى يقضى الله فينا قضاءه ، فإما ابتلعتنا مهاوى اليم ، وإما أرسينا بجزر الخيرات ، حيث نرى بطلنا أخيل كما عهدناه . لئن كان قد فنى منا الكثير فقد بقى الكثير ، وما زلنا كما كنا ، وإن لم نعد فى تلك القوة التى اهتزت لها الأرض والسماء . ما زالت قلوبنا عامرة بالبطولة الصادقة المعدن . نعم لقد أضعفنا الزمن وإرادة القضاء ، ولكننا لا نزال أقوياء لنكدح ونجد ونجد ونأبى الخضوع » .

وهذا هو أوليس المكافح الصلب العود . يغامر رغم شيخوخته وكله ثقة وتحرق إلى المجهول ، فإما النصر والسيطرة على الوجود ، وإما الفناء وسط الجهاد . وتلك صفات نجدها عن الإنجليز الذين استطاعوا أن يثبتوا لصدمات الدهر .

وكرت السنون وإذا بنا نرى أوليس آخر فى القرن العشرين . هو أوليس الكاتب الإنجليزى المعاصر جيمس جويس James Joyce الذى أنفق جانباً كبيراً من حياته بباريس ، تلك المدينة الصاخبة المتعددة مظاهر النشاط الإنسانى ، ساميه وحقيره . ولقد نفذ جويس إلى كل ما يجرى فيها من مجد وإسفاف ، وود لو سجل خلاصة تجاربه العديدة فلم يجد غير أوليس رمزاً لتلك الحياة الحافلة ، فكتب ما يقرب من ثمانمائة صفحة يقص فيها مغامرات

بطله الذى لم يترك شيئاً إلا فعله ولا وسطاً إلا تغلغل فيه ، فهو رمز المعرفة الشاملة . تلك التى لا تعدل بالتجربة شيئاً ولا تردها عنها مبادىء خلق أو مواضعات اجتماعية . إن فى أوليس جويس ما لا يجرؤ المرء أن يعترف به حتى بينه وبين نفسه ، وتلك بلا ريب مقدرة قد تحمد للكاتب ، ولكننا فى الحق لا نكاد نطمئن إلى نفع نراه فيها أو ضرورة ملجئة إليها ، فهى لا تزيدنا معرفة إلا بالجانب المظلم من نواحى الإنسان ونحن فى حاجة إلى ضياء .

وفى الحق إننا لا ندرى كيف تطور أوليس حتى انتهى إلى جويس ، وإن يكن فى عشرات القرون التى عبرها ما قد يعيننا على الفهم وبخاصة إذا ذكرنا ذلك التطور الواضح الذى تطورته الأخلاق فى القرن العشرين .

والذى لا شك فيه هو أن أوليس اليونان لم يعد كما قلنا أنموذجا بشريا بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للعبارة عما فى نفسه من إحساس أو فى عقله من فكر ، ونحن مع ذلك ننظر فى كل ما خلق المحدثون فى هذا فلا نجد أن أحداً منهم قد أضاف إلى البطل قسمة جديدة ، وإنما هى سمات من الصورة التى رسمها له الإغريق القدماء وبخاصة هوميروس فجاءت كاملة منذ أن خلقت .

لقد رأينا أوليس فى الإلياذة يمثل الشجاعة والحكمة ، ورأيناه فى الأودسا وقد أخذت الحكمة تسيطر فى نفسه شيئاً فشيئاً على الشجاعة ، ورأيناه عند سوفكليس وقد صار خبثاً وذكاء مدمراً ، وكان هذا نذيراً بفنائه وفناء الشعب الذى يمثله .

ومرت القرون فعاد أوليس إلى الظهور ، وإذا بملامحه تعود فتتضح بفضل أقلام جديدة . أهو البعث ؟ أهو خلق جديد ؟ ذلك ما لا يعنينا الآن ؛ وإنما أردنا أن ندل بمثل ناطق على ما فى تراث اليونان من خصب وقدرة على الإيحاء . قدرة لا يمكن أن تنفد ، لأنها من قدرة الحياة التى أمسكت بها عبقريتهم فسجنتها فى صور ونماذج لن تفنى . وفى هذا ما يفسر حرص الدول الأوربية على الثقافات اليونانية واللاتينية واعتبارها الوسائل الأولى فى تربية الشباب وذلك على الرغم من أن معظم المؤلفات التى كتبت بهاتين اللغتين قد ترجمت إلى جميع اللغات الحية أكثر من مرة . ودراسة تلك اللغات فى ذاتها رياضة عقلية لا مثيل لها ، كما أن الكتب التى ألفت فيها يرجع جانب كبير من قيمتها إلى جمال صياغتها ، ومن الثابت أن أية ترجمة لا يمكن أن تحتفظ بهذا الجمال .

العبيــــط

(١)

مع ماري والأطفال

لقد قص ديستويفسكي الكاتب الروسي الشهير أحداثاً كثيرة وقعت لأمير روسي هو موتشكين Muïchkine الذي وصفه الكاتب لأمر ستراه فيما بعد بالعبط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « العبيط »(١) .

ونحن لا نريد اليوم أن ننزلق إلى مناقشات فلسفية حول العبط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر الدعاوى ، فيرى فى تصرفات هذا الرجل لا عبطاً فحسب ، بل واختلالا فى الإدراك ؛ ومنهم من لم يزل يسلط عقله على عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرته على الجزم عن يقين حتى أصبح يرى فى ضوئه ذاته شيئاً من الاضطراب يكاد يحيله ضوءاً كاذباً ، إن لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالعبط ، فلربما كان هو العبيط .

الأمير موتشكين فى السابعة والعشرين من عمره الآن ، فهو إذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح إلى معاشرة الأطفال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه إذا وُجِدَ معهم لا يدرى ماذا يقول لهم . وهذا أمر غريب يدعونا إلى أن نرى فى الرجل شذوذاً ؛ ونبحث فى نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشذوذ فلا نهتدى إلى شيء كثير ؛ فالرجل قد مات أبوه وهو فى سن مبكرة ، فتعهده صديق خيِّر من أصدقاء والده . وكل ما لاح عليه من أمارات غير عادية لا يعدو مرض التشنج العصبى . ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدى إلى العبط ، فقد كان ديستويفسكي نفسه مريضاً به ، ولقد مرض به أيضاً فلوبير الكاتب الفرنسي الكبير ، كما مرض به غيرهما ممن لا يجرؤ أحد من عقلائنا أن يصفهم بالعبط .

وفى الحق أننا لا نرى داعياً للبحث عن تعليل حكم لم نثق بعد من صحته ، فموتشكين لم يكن عبيطاً ، بل ربما كان فى وصفه بهذه الصفة أكبر سخرية استطاعها ديستويفسكي من عقلية البشر . يخيل إلينا أن هذا الكاتب العبقرى لم يكن يظن العبط بأميره ، بل بنا نحن .

---

(١) L'Idiot : Dostoïevsky : 2 vol. traduit Victor Dérely. Plon. Paris .

وها هى قصة هذا العبيط مع مارى والأطفال توضح سوء ظن المؤلف بالملايين الذين قرأوا روايته . ستقرؤها فلا تملك إلا أن تدهش لقدرة هذا العبيط على فهم جوانب الضعف فى النفس البشرية ، وإذا بك تثور على ما فى طبائع الناس من شر أصيل ، وقد أُخذت بنبل الرجل ونفاذ حسه .

من المعلوم أنه عندما اشتد بموتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصحته ، ولقد وجد المريض فى جو سويسرا مساعداً على الشفاء ، فأقام هناك أربع سنوات ، دفع مربيه فى السنتين الأوليين أجر علاجه وإقامته ؛ ثم مات هذا المحسن الكبير فلم يبق للأمير معيل ، ومع ذلك فقد أمسكه الطبيب الكريم سنتين أخريين ، ولكن العبيط ضاق بالإقامة وقد انقطع عنه كل مدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج ليلتمس له عملا يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قد بقيت منها أميرة هى الآن زوجة لچنرال بالجيش ، فقرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليها وإلى زوجها ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

نزل العبيط عند الچنرال إيبنتشين Épantchine ، واستطاع أن يحمل مضيفه على أن يقدمه إلى الأميرة . وغادر الچنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتناول وجبة الغذاء مع أسرته ، وظل الضيف مع الأميرة وبناتها الثلاث ، وتناولوا الغذاء سويا ، ثم جلسوا للحديث ؛ وأبى حب الاستطلاع الأصيل فى النساء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حياته فى الخارج ، وأربعتهن يحسبن به العبط ، إذ كان الچنرال قد بصّرهن بهذه الحقيقة قبل أن يغادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زعزع عند بعضهن هذا اليقين ، وقد كان من بينهن من تتمتع بملكة الحكم الشخصى .

قصة العبيط مع مارى والأطفال كانت من بين ماقص بطلنا فى ذلك اليوم ، فقد وقعت له أحداثها بالقرية السويسرية حيث كانت المصحة التى أقام بها .

قال : « فى أول الأمر لم يكن الأطفال يحبوننى . لقد رأونى كبيراً وقد كنت دائماً قليل (اللحلحة) ، ثم إنى أعلم أنى دميم ، وأخيراً باعد بينى وبينهم أننى كنت أجنبياً فى قريتهم . لقد كانوا فى البدء يتضاحكون منى ، بل أخذوا يرموننى بالحجارة عندما فاجأونى أقبّل مارى ، إننى لم أُقبلها غير مرة واحدة ... لا ، لاتضحكن ، فإن الحب لم يكن له دخل فى الموضوع . ولو أنكن رأيتن هذه المخلوقة البائسة بأنفسكن لأخذتكن بها الشفقة كما أخذتنى . كانت فتاة من القرية تسكن مع أمها كوخا صغيراً تضيئه نافذتان ، وكانت الأم العجوز تبيع أربطة الأحذية والخيط والتبغ والصابون ، وبإذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من

الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين . وكانت هذه التجارة تأتيها بقليل من النقود الصغيرة تعيش بها ؛ وكانت مريضة متورمة الأرجل ، مما اضطرها إلى أن تظل جالسة ؛ وكانت مارى فى العشرين من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنية ، وإن لم يكن مرض السل قد ظهر عندها ، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية فى المنازل ، حيث تقوم بالأعمال الخشنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحيوانات علفها .. وفى أحد الأيام أغواها قومسينجى فرنسى وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحد غرسها حيث انتهى به المسير ثم ولى ؛ فوجدت نفسها وحيدة بعرض الطريق ، فعادت إلى قريتها وهى تستجدى طول رحلتها ، ووصلت قذرة مهلهلة الأسمال ، ممزقة الحذاء تمزيقاً تاماً . لقد سارت ثمانية أيام : تنام فى العراء ، وتقاسى لذعة البرد ؛ لقد دميت قدماها ، وتغطت يداها بالقشف والشقوق . وهى حتى قبل ذلك لم تكن جميلة ، لم يكن لها غير عينين وديعتين تملؤهما الطيبة والبراءة . لقد كان صمتها خارقاً ، فقد اتفق مرة — قبل أن تحدث لها تلك الحادثة — أن أخذت تغنى فجأة ، وهى تعمل ، فأحدث هذا الغناء فيما أذكر دهشة عامة ، « لقد غنت مارى . . . آه . . . مارى تغنى ! » ، هكذا قال الناس وهم يضحكون ، وخجلت مارى منذ ذلك الحين ، فانطوت فى صمت عنيد . وكانوا يعاملونها عندئذ بشىء من العطف ، ولكنها عندما مرضت وأخذت أطرافها تدمى لم يظهر لها أحد أقل شفقة . ما أغلظ الناس فى مثل هذه الحالة ! بأى قسوة يحكمون على هذه الأشياء ؟ ! وكان أولهم فى ذلك الأم العجوز ، فقد تلقت بنتها فى غضب واحتقار . « الآن قد لوثت شرفى » ، هذا ما قالت ؛ ثم كانت أسبق الجميع فى تعريض ابنتها لسباب الجمهور . وعند ما علموا فى القرية بعودة مارى أسرعوا جميعاً شيوخاً وأطفالا ونساء وفتيات ليروها . لقد غزا السكان جميعاً كوخ العجوز ، وهناك كانت ترقد مارى على الأرض عند قدمى أمها باكية وهى تموت جوعاً ولا تغطيها غير الأسمال ، وبينما يتقاطر الزائرون كانت تحاول أن تختفى عن أبصارهم بأن تتخذ من شعرها المنتشر نقاباً يغطى وجهها ، ثم تطأطىء رأسها إلى الأرض . لقد التف الجمهور حولها فى دائرة وأخذوا ينظرون إليها كحشرة ؛ فالشيوخ يعنفونها تعنيفاً لا هوادة فيه ، والشبان يكشرون لها عن أنيابهم ، والنساء يكلن لها السباب ، وقد أظهرن من الاشمئزاز مثل ما يظهرن عندما يرين عنكبوتاً ، والأم جالسة فى حجرتها تشجعهم بالصوت والإشارة ، بدلا من أن ترد عن ابنتها شيئاً من عدوانهم . ولقد كانت فى ذلك الحين شديدة المرض ، فى حالة احتضار تقريباً . وفى الواقع لقد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحساسها

بقرب أجلها قد رفضت إلى آخر لحظة أن تتصافى مع ابنتها . إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة ، وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بغير غذاء تقريباً ؛ ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع مراراً قدميها المريضتين فى الماء الساخن ، فكانت مارى تغسلهما لها ، وتقدم إليها كل أنواع الرعاية ، فتقبلها العجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة . ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك فى استسلام .

وعند ما تعرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ماينزل بها من إهانات إذ كانت تعتبر نفسها أحط كائنات الأرض . ولم تعد العجوز تتناول غير اللبن ، فأخذ نساء القرية يفدن إليها ليتناوبن رعايتها وفقاً للعادات المرعية بالريف . وعندئذ أمسكوا إطلاقا عن إطعام مارى ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحداً منهم لم يقبل أن يعهد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل . لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريباً ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كامرأة ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، وأحياناً ، وفى النادر الذى لايذكر ، كانوا إذا أخذهم الخُمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخرية منها ، وكانت مارى تجمعها فى صمت . ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أسمالها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ أن تظهر بالقرية . ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحلو لهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين . وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هى نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشى عند خروجها من الحظيرة ولاتتركها طول النهار . ورأى الفلاح أنها تؤدى اليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها أحياناً بعضاً من فضلات غذائه : قليلا من الخبز والجبن . ولقد رأى فى عمله هذا طيبة كبيرة منه . وعند ما ماتت الأم لم يخجل القسيس أن يلعن مارى على مسمع من الجميع فى وسط الكنيسة ، وأما هى فقد كانت بأسمالها القذرة راكعة إلى جوار التابوت وهى تبكى ، وكان حب الاستطلاع قد أتى بكثير من الناس إلى الجنازة ؛ كانوا يريدون أن يروا كيف تبكى الفتاة ، وكيف تسير خلف التابوت . وكان القسيس — الذى لايزال شاباً — لايطمح إلا إلى أن يكون واعظاً كبيراً ، فاتجه إلى الجمهور ، وأشار إلى مارى ثم قال : « هاهى تلك التى سببت موت هذه السيدة الجليلة » ، (هذا غير صحيح ، فقد كانت العجوز مريضة منذ سنتين) ، « ها هى أمامكم وهى لاتجسر أن ترفع عينيها ، لأنها قد وسمت بأصبع الله ... ها هى عارية القدمين مغطاة بالأسمال ؛ مثلا يتعظ به كل أولئك اللائى قد يغريهن سوء

السلوك . . . ومن هى ؟ . . . إنها ابنتها . . . الخ » .

ولنتصور أن هذا الجبن قد سر جميع الحاضرين ؛ ولـكن . . . حدث عندئذ حدث . فقد أخذ الأطفال جانب البائسة ؛ وذلك لأنهم كانوا قد انضموا إلىّ وابتدأوا يحبون مارى ، وها هو تفصيل ما حدث :

لقد أردت أن أسدى إلى الفتاة بعض العون ؛ فقد كانت فى حاجة إلى النقود ، ولـكننى طول إقامتى بسويسرا لم أكن أملك درهماً واحداً تحت تصرفى . وكان عندى دبوس من الماس فبعته لأحد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للاتجار فى الملابس القديمة ؛ ولقد أعطانى ثمناً له ثمانية فرنكات ، مع أنه كان يساوى أربعين بلا ريب . ولزمن طويل لم أستطع أن أصل إلى حديث خاص مع مارى . وفى النهاية تقابلنا خارج القرية فى إحدى طرق الجبل خلف شجرة ، وهنالك أعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها أن تحرص عليها ، لأننى لن أستطيع فى المستقبل أن أمدها بعون آخر . ثم قبَّلتها قائلا : لا تظنى بى أى قصد سيء ، فإذا كنتُ قد قبَّلتك فليس ذلك لأنى مغرم بك ، ولـكن لأنك توحين إلىّ بشفقة عميقة ؛ وفى الواقع لقد رأيت فيك دائماً ومنذ البدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة .

لقد أردت فى حرارة أن أعزِّيها وأن أقنعها بأنها كانت على خطإ فى أن تعتبر نفسها دون الآخرين ، ولـكننى لم ألبث أن أدركت أنها لا تفهم قولى ، أدركت هذا من موقفها ، وذلك لأنها لم تفه بكلمة واحدة تقريباً ، بل ظلت طول الوقت واقفة أمامى مسدلة جفونها كشخص يثقله الخزى . وعند ما انتهيت قبَّلتْ يدى ، فأمسكت توًّا بيدها ، وأردتُ أن أقبِّلها ، ولـكنها سحبتها للحظتها . وفجأة لاحظنا الأطفال وقد اجتمعت هنالك جماعتهم ، ولقد عرفت فيما بعد أنهم كانوا يرصدون حركاتى منذ حين ، وأخذوا يضحكون ويصفرون ويضربون أيديهم يداً على يد . فأسرعت مارى إلى الهرب ؛ وفى نفس اليوم علمت القرية كلها بالخبر ، فازداد سوء الظن بمارى ، وتكالب الاعتداء ، بل لقد سمعت أنهم قد فكروا فى عقابها ، ولـكن بفضل من الله لم يحدث من ذلك شيء ؛ ومع هذا فإن الأطفال لم يتركوا لفريستهم راحة ، بل ضاعفوا من عداوتهم لها ، وأخذوا يطاردونها ويقذفونها بالطين . وكانت المسكينة عند ما تحس بهم فى أعقابها تجرى ، وهى المسلولة ، حتى تنقطع أنفاسها ، لـكى تفلت من أذاهم ، وهم يعْدُون من خلفها صائحين بالشتائم . ولقد حدث ذات يوم أن كدت أشتبك معهم . وفيما بعد أخذت أردهم إلى العقل ، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلما استطعت ذلك . ولقد كانوا يقفون أحياناً ويستمعون إلىّ ، ولـكنهم استمروا رغم ذلك فى إيذائهم لمارى .

وشرحت لهم كيف أنها بائسة ، فانتهوا بأن أمسكوا عن شتمها ، وأخذوا يمرون بها دون أن يقولوا لها شيئاً . وبالتدريج أخذت أتحادث معهم أحاديث طوالا ، ولم أكتم عنهم شيئاً ، بل قصصت عليهم كل شيء . وكانوا ينصتون إلىّ باهتمام ، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشفقة على الفتاة ، فأصبح الكثيرون منهم يحيونها تحية عابرة إذا مروا بها .

يخيل إلىّ أن ماری قد دهشت لهذا التغيير فى معاملتهم لها . ولقد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتا إليها شيئاً من طعامهما ، ثم حضرتا ليخبرانى بما فعلتا ؛ قالتا : إن مارى قد بكت ، وإنهما قد أصبحتا الآن يحبانها كثيراً . ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا نحوى أيضا بمحبة فجائية ، فكانوا كثيراً ما يأتون إلىّ ويطلبون دائما أن أقص عليهم شيئا ، ولا بد أننى كنت أجيد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتى . ولقد أخذت نفسى بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشيء غير أن أحمل إليهم ما أجد فى الكتب . ولقد استمررت على هذه الحال طوال الثلاث سنوات التالية . وعند ما أخذ الطبيب وغيره من الناس يلوموننى لأننى أتحدث إلى الأطفال كأنهم رجال ناضجون ، ولا أكتم عنهم شيئاً ، أجبت بأنه من العار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنعوا الأطفال من أن يعرفوا دائماً ما يريدون هم أن يظلوا جاهلين به ؛ بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيالهم ، بينما هم لن يتعرضوا معى لهذا الخطر ، وما على كل منا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولته ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هذا الرأى لم يقنع أحداً . . .

لقد كانت قبلتى لمارى قبل وفاة أمها بخمسة عشر يوماً ، وعند ما ألقى القسيس موعظته كان جميع الأطفال فى جانبى ، فأخبرتهم بالهجوم المخزى الذى سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هذا الهجوم بما يستحق من ألفاظ ، فثاروا جميعاً ، وبلغ الغضب بالكثيرين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقد أفهمتهم أنهم مخطئون فى تصرفهم هذا ؛ ومع ذلك فقد ذاع فى القرية أننى كنت المحرض لهم على هذا العمل . ومنذ ذلك اليوم اتهمنى الجميع بإفساد أخلاق تلاميذ المدارس . واكتشف الجميع بعد ذلك أن هؤلاء الأطفال يحبون مارى ، فسبب هذا الاكتشاف قلقاً بالغاً ، ولكن الفتاة كانت سعيدة . وحاول الآباء عبثاً أن يحظروا على أطفالهم مخالطتها ؛ ولكنهم كانوا يذهبون سراً للقائها ، حيث ترعى البقر فى مكان بعيد عما يقرب من نصف فرسخ عن القرية . وكانوا يحملون لها الهدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صدورهم ويقبلوها قائلين : مارى ! إنى أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم . ولا شك أن سعادة

كهذه كانت خليقة أن تذهب بصواب مارى ، فهى لم تكن تتصور هذا حتى فى الأحلام .
ولقد أحست بمزيج من الفرح والاضطراب . وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرصون على الذهاب إليها ليخبروها أنى أحبها ، وأننى أتحدث عنها كثيراً . وقالوا لها : لقد قص علينا قصتك ، والآن نحن نحبك ونرثى لك ، وسنستمر كذلك دائماً . ثم يسرعون إلىّ بأوجههم الصغيرة المرحة ليخبرونى فى اهتمام شديد أنهم قد رأوا مارى ، وأنها ترسل إلىّ تحياتها .

وفى المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهنالك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقاً تاماً ، وشجر السرو يحيطه من جميع النواحى . فى ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال فى المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتى سراً ؛ وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا سروراً كبيراً فى حبى لمارى ، وهذه هى المسألة الوحيدة التى كذبتهم فيها طول إقامتى بينهم . لقد تركتهم يعتقدون أننى مغرم بمارى ، وإن كنت لم أشعر نحوها بغير الشفقة ، ولكننى عندما رأيت أنهم ينسبون إلىّ إحساساً آخر ، وأن هذه الفكرة تسرهم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قد كشفوا دخيلة نفسى . أى طيبة لطيفة فى هذه القلوب الصغيرة ! ولأكتف فى ذلك بمثل واحد : فقد عز عليهم أن يروا صديقهم ليون يحب مارى ، ومارى رثة الثياب ، بل ويعوزها الحذاء ؛ تصوَّرن أنهم حصلوا لها على حذاء وجورب وملابس داخلية ، بل وبعض الثياب . كيف ؟ وبأى حيل عبقرية نجحوا فى الحصول على كل هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكن المدرسة كلها قد اشتركت فى هذا العمل . وعندما سألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيد ضحكة مرحة ؛ وقد أخذت البنات الصغيرات يضربن أيديهن يداً فوق يد ويقبلننى . وأحياناً كنت أذهب لرؤية مارى خفية .

ثم اشتد بها المرض ، فأصبحت تقريباً عاجزة عن المشى ؛ وأخيراً انقطعت عن العمل بالمزرعة انقطاعاً تاماً ، ولكنها استمرت تقود المواشى إلى الحقل كل صباح . هنالك كانت تستند إلى صخرة عمودية على الأرض ، وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقر إلى الحظيرة . وأنهكها السل ، وانقبضت أنفاسها ؛ فكانت تظل يومها كله فى حالة تشبه النوم ، مغلقة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحباً كالجثة الميتة ، والعرق يبلل جبينها وعارضيها . كنت أجدها دائماً فى هذه الحالة ، ولم أكن آتى إلا لبرهة قصيرة ، لأننى أيضاً لم أكن أريد أن أرى . وبمجرد ظهورى كانت مارى تنتفض فتفتح عينيها وتسرع إلى تقبيل يدى ، وكنت أتركها تفعل ذلك لأنها كانت تجد فيها سعادتها . وطول مدة زيارتى كانت ترتعد وتسكب الدموع ، وأحياناً كانت تتكلم ، ولكن حديثها

كان فى الحقيقة من الصعب فهمه . لقد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالها ولهفتها ؛ وأحياناً كان الأطفال يقبلون معى ، وفى مثل هـذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفاجئنى أحد وأنا أتحدث مع مارى ، وكان « دور الحراس » هـذا يسرهم كثيراً . وبعد عودتنا كانت مارى تعود إلى وحدتها ، فتظل من جديد بلا حراك ، مغمضة عينيها ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، ربما كانت تحلم بشىء .

وفى ذات صباح لم تستطع الخروج كالعادة لتقود القطيع إلى المرعى ، وبقيت فى منزلها الصغير الخالى ، ولم يلبث الأطفال أن علموا بذلك ، فأتوا كلهم تقريباً لزيارتها عدة مرات فى ذلك اليوم وهى طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحـد . ولمدة يومين كان الأطفال وحدهم هم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تمريضها ؛ ولـكنه عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن مارى تحتضر أتت الفلاحات العجائز كل واحدة بدورها للقيام بجوارها ، وقد لاح فى القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة ، فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم فى أن يدنوا منها ، ولم يعودوا ينهرونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل . وكانت المريضة دائماً فى حالة حشرجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها مخيف ؛ وكانت النسـاء العجائز يمنعن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولـكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحياناً لا يبقون هنـاك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير مارى العزيزة ! وأما هى فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتعش ، وللحظتها كانت تصم أذنيها عن ملاحظات ممرضـاتها ، فترفع نفسها فى مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار ، شكراً لهم . واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولـكنها لم تعد تأكل شيئاً ، وبفضلهم — أؤكد لـكن — ماتت سعيدة تقريباً ؛ بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفح على نحو ما ، وذلك لأنهـا حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية . لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : مارى ! إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلا ؛ ففى اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لى أنها تعرفنى ، ولقد صافحتها للمرة الأخيرة . كم كانت تلك اليد عارية عن كل لحم ! وفى الصبـاح المبكر أتوا فجأة ليخبرونى أن مارى قد ماتت ؛ وفى هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجاً منها ؛ وفى الـكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التى سبها وهى حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم حب الاستطلاع . وعند رفع الجسـد

أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولـكنه لما كانت قوتهم لا تـكفى لذلك فإن رغبتهم لم تجب . وساروا جميعاً فى الجنازة باكين . ومنذ ذلك الحين وهم يبجلون قبر مارى ، فنى كل عام يزينونه بالأزهار ، كما أنهم زرعوا حوله أشجار الورد .

(٢)

العبيط فى الحياة الاجتماعية

رأينا الأمير موتشكين — عبيط ديستوفسكى — يصاحب الأطفـال ويفضلهم على الـكبار ، ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه . فقد تضافر مع أصدقائه فى رحمة فتاة بائسة . نعم إن الفتاة كانت قد سقطت سقطة أخلاقية لم يكن بد للهيئة الاجتماعية من أن تثور لها . ونحن ندع جانباً منبع تلك الثورة . ههنا غريزة تناهض ما فى ملـكة التفـكير من تدمير لحياة الفرد وتقويض لحياة الجماعة إذا أطلقنا لتلك الملـكة عنان التبرير المضلل . ثم انظر ألم تكفر الفتاة عن إثمها آلم التكفير ؟ ألم تقبل كل ما أنزل بها من تنكيل بنفس صاغرة باخعة ؟ وعندما ينزل القضاء أوَ ما ترى رحمة الله لا بد مرسلة هديها إلى من تختار من أرواح تحمل إلى البائسين نسمة من تلك الرحمة ؟ ومن يدرينا لعل الأطفال والعبطاء هم تلك الأرواح المختارة .

نستطيع إذن أن نتردد فى الحـكم على موتشكين بالعبط لمصادقته الأطفال ومسحه دموع مارى ؛ بل قد نجرؤ فنرى أن الهيئة الاجتماعية التى تصف الأمير بهذه الصفة هى على الأقل العبيطة إن لم تكن الغليظة الحمقاء . وما الهيئـة الاجتماعية إلا نحن — العاديون من الناس — الذين تتحكم فيهم المواضعات فتجعل منهم أحياناً وحوشاً لا تعى ما تفعل .

وها نحن اليوم نواجه العبيط فى الحياة الاجتماعية ، ها نحن نغادر أدب النفس إلى أدب الجماعة . نغادر وحى الضمير إلى عادات المجتمع . ولا تحسبن أننا ننتقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين . فنحن فى الحق أكثر استعباداً للعرف منا للخلق . وذلك لأمر بيّن هو أننا جميعاً — إلا من عصم ربى — أشد حرصاً على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا . وإذا تعارض ظاهر لنا بباطن كم ممن ترى حولك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبى إلى بترسبورج ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد انقرضت ولم يبق منها غير سيدة واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يفعل وهو الوحيد المنقطع .

«كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحا عندما دق الأمير الجرس ببيت الجنرال ، وهو فى الدور الثانى . مسكن فى حدود البساطة التى تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية . وفتح الباب خادم فى بذلة الحشم . وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذى نظر إليه هو وحقيبة ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة . وفى النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه فى حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة الانتظار ثم انسحب تاركا الضيف بين يدى خادم آخر . رجل فى الأربعين من عمره يرتدى بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين . وكان فى ملامحه المهمومة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته .

قال للضيف : تفضل . أدخل الصالون برهة ودع حقيبتك هنا . قال هذا وهو يجلس فى مقعد ضخم برزانة مصطنعة ونظرته المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذى لم يتخل عن متاعه المتواضع ، وأخذ كرسياً وجلس إلى جواره قائلا : سأنتظر هنا — إذا سمحت — فى صحبتك . ماذا أفعل هنالك وحيداً ؟

—ولكنك ، ما دمت قد أتيت لزيارة ، لا تستطيع أن تبقى فى هذه الغرفة . إنك تريد أن تحادث الجنرال نفسه . أليس كذلك ؟ . وفى الواقع إن الخادم لم يكن يخطر بباله أن يُدخل زائراً كهذا على الجنرال ؛ ولذلك كرر سؤاله الأخير . فأجاب الأمير : نعم إن لدى مسألة . . . — أنا لا أسألك عن شىء . فعملى هو أن أعلن قدومك فقط ، ولكننى كما أخبرتك مضطر إلى أن أرى السكرتير أولا .

لقد أخذ الخادم يزداد ريبة . فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العاديين . والجنرال — لا ريب — لم تكن مقابلاته قاصرة على الوجهاء بل كان يأتيه أيضاً أفراد من كافة الطبقات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعرف ذلك جيداً ولديه أوامر بأن لا يتشدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه فى هذه الحالة بالذات لم يجرؤ أن يتحمل المسئولية ورأى أن خير حل هو أن يستعين بالسكرتير .

وأخيراً سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكرهاً : أحقا أنك . . . أتيت من الخارج ؟ ولقد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقى ، وهو : أحقاً أنك الأمير موتشكين ؟ وأجاب الأمير ؟ نعم ، إننى قادم من المحطة مباشرة . ولقد أردتَ فيما أعتقد أن تسألنى هل أنا حقيقة الأمير موتشكين ، ولكن اللياقة منعتك من توجيه هذا السؤال . « هه ! ... » هكذا تمتم الخادم مدهوشاً .

— أوكد لك أننى لا أكذبك ، وأنك لن تتحمل بسببى أية مسئولية . وإذا كنت ترانى فى هذا الزى حاملا هذه الحقيبة الصغيرة فليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة . فحالتى الآن ليست على ما يرام .

— هه ؟ . . . فى الحقيقة ليس هذا ما يخيفنى . إننى هنا لكى أعلن الزائرين . وبعد هنيهة سيخرج السكرتير . وإذا كنت . . . هل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتاج لتطلب مساعدة .

— آه ! لا . من هذه الناحية كن مطمئناً كل الاطمئنان . إننى لم آت من أجل هذا .

— معذرة . لقد خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحد الضباط ، ولكنك سترى السكرتير قادماً . . . سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمناً طويلا ، فإنى أسألك أن تسمح لى بالتدخين فى جهة ما ، فلدى البيبة والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يصدق أذنيه : بالتدخين ! ؟ . . . بالتدخين ! ؟ . . . أبداً . إنك لا تستطيع أن تدخن هنا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هذا ببالك . آه ! هذا شىء عجيب !

أوه ! إننى لم أقصد التدخين فى هذه الغرفة ، فأنا أعلم جيداً أنه غير مسموح به ، وإنما أردت أن أرجوك لتدلنى على مكان أشعل فيه بيبتى . وذلك لأننى معتاد التدخين ، وها قد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هناك مثلا يقول : فى الدير الأجنبى . . .

وغمغم الخادم مكرهاً : ولكن كيف أعلن قدومك وأنت فى هذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنا ، بل فى الصالون . وببقائك فى هذه الغرفة ستعرضنى للتقريع ، ثم أضاف ، وهو يلقى بنظرة جانبية إلى الحقيبة الصغيرة التى كانت لا تزال بيد الأمير ، وقد شغلت الخادم طول الوقت . . . ولكنك تنوى أن تقيم عندنا . أليس كذلك ؟

— لا . هذا لم يخطر ببالى . وحتى لو اقترحوا علىّ ذلك لن أقبل البقاء . وغايتى الوحيدة من هذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل . ولا شىء أكثر من ذلك .

ولاح هذا الجواب للخادم الظنين داعياً إلى الريبة فصاح مندهشاً : إيه ! ! أن تتعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لمسألة ما .

— ربما أكون قد بالغت عند ما تحدثت عن « مسألة » . ومع ذلك فليكن مجيئى إلى هنا ، إذا أردت ، لمسألة ، بمعنى أننى أريد أن آخذ نصيحة . وإن كنت أود قبل كل شىء أن أتقدم إلى الجنرال ايبنتشين ، وذلك لأن زوجته من أسرة موتشكين ، أسرتى . وهى وأنا آخر عضوين فيها .

ولقد بالغت الكلمات الأخيرة من قلق الخادم فصاح ذاهلا : وإذن فأنت من الأقرباء أيضاً ؟ ! !

— تقريباً . لا شك أن هذه القرابة قائمة ، ولكنها بعيدة إلى حد أن تستطيع اعتبارها منعدمة . وعند ما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجة الجنرال ، ولكنها لم ترد . ومع ذلك فقد رأيت عند عودتى أن من الواجب تذكيرها بى . ولقد استطردت إلى كل هذه التفاصيل لكى أبدد شكوكك ، وذلك لأننى أراك دائم القلق . أعلن قدوم الأمير موتشكين وبمجرد أن يسمعوا اسمى سيعرفون سبب زيارتى . وعندئذ سيستقبلوننى أو يرفضون استقبالى . فإن فعلوا كان خيراً وإن رفضوا ربما كان أخير . وإن كنت أعتقد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ، فالسيدة لا شك تود أن ترى الممثل الوحيد الباقى من أسرتها . وأنا أعلم أنها تعتز بأصلها اعتزازاً كبيراً .

وكان الأمير كلما ازداد تبسطاً فى حديثه واسترسالا بريئاً ازداد إساءة إلى نفسه فى نظر الخادم . فهذا الحديث الذى لا غبار عليه إذا جرى بين أناس من طبقة اجتماعية واحدة ، لم يكن الخادم ليستطيع أن يفهم إلا أنه نابٍ عن موضعه نبواً شديداً عند ما يدور بين زائر وخادم . ولما كان الخدم أقل غباوة مما يظن أسيادهم عادة فإن خادمنا قد افترض أحد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذاً أتى يستجدى الجنرال صدقه ، وإما أن يكون بكل بساطة رجلا مخاولا . وذلك لأن أميراً نبيهاً لا يمكن أن يبقى فى هذه الغرفة الجانبية ولا أن يقص أموره على خادم . وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ » .

وأنا أعفى القارىء من بقية الحوار وأطمئنه إلى أن الأمير موتشكين قد انتهى بالدخول والتعرف إلى الجنرال وزوجته وأبنائهما ، بل كانت له حادثة غرام مع إحدى بنات الجنرال ، والسكرتير طبعاً هو الذى أدخله .

والآن ماذا يرى القارىء ؟ أهو عبيط حقاً ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيها غير الصدق . قد تقول ولكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب . فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ،

وهو أخيراً لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغى أن يقال لكل إنسان ، وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة . قد تقول هذا وخيراً من كل هذا وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هى الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية قد خربت نفوسنا . لقد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا كلها نفاقاً متصلا واتخذت من هذا النفاق قانوناً صارماً يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى ، فأصبحنا جميعاً نتساءل عن سر عبط هذا الأمير العجيب بدلا من أن نتساءل عن سر فسادنا نحن خدماً وسادة .

(٣)

العبيط والاعدام

من المعلوم أن ديستوفسكى خالق « العبيط » قد حكم عليه بالإعدام هو وعشرة من رفاقه الذين كانوا يميلون إلى الحرية المدنية والعدل الاجتماعى فى عهد القيصر نيقولا الأول . وبينما هم فى السجن أيقظهم الحراس فى الصباح المبكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم فى ساحة الإعدام حيث يتلى عليهم الحكم ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبى الأعين وفصائل الجند من أمامهم لإطلاق الرصاص وديستوفسكى ذاهل ينتظر دوره . ومرت بالرجل دقائق ستقرأ أصداءها عما قريب . وفى اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفا القيصر عن المتهمين واستبدل بالحكم السجن أربعة أعوام فى سيبيريا ثم النفى أعواماً أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة .

وإذا ذكرنا طبيعة ديستوفسكى المرضية وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هذه المحنة الخاطفة قد تركت فى نفسه أعمق الآثار . ولقد خلفت بها مثل وقع السيف المسموم ما إن تنكأه حتى ينزف .

ومن عجب أن يجرى الكاتب على لسان العبيط أنفذ ما أوحت إليه تلك اللحظات من إحساس . ولكن ألم نقل من قبل أن الأمير موتشكين لم يكن من العبط بحيث نظن ؟ لا . موتشكين ليس بعبيط . ولديستوفسكى أن يسخر من العقول كما يشاء . استمع إلى عبيطنا يحلل ما فى الحكم بالإعدام من فظاعة « تصور مثلا رجلا يعذب . جسمه مغطى بالجراح . إن الألم الجسمى لن يلبث أن يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه لتصبح إلى أن يموت عذابه الوحيد . ولكن أقسى أنواع العذاب وأعظمها ليس ما تولده الجراح وإنما هو اليقين من أنك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ثم بعد برهة واحدة ستطير

روحك من جسدك وأنك لن تعود إنساناً وأن كل هذا شيء مؤكد . هذا اليقين هو أشنع العذاب ... ليس هناك أى تناسب بين الإعدام وبين القتل الذى تكفر عنه تلك العقوبة . فأحدهما أفظع من الآخر فظاعة لا نهاية لها . فالرجل الذى يذبحه اللصوص أو ينحرونه بالليل، فى غابة ، أو على أى نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل فى أن ينجو بالحياة . ولقد رأينا أناساً ، بنحورهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويعدون ويتضرعون . وأما هنا فهذه البقية من الأمل التى تلطف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منها حرماناً تاماً . هناك حكم . واليقين من أنك لن تفلت هو فى ذاته العذاب الذى ليس فى العالم ما هو أفظع منه . ضع جندياً أمام فوهة مدفع فى معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجندى الحكم عليه بالإعدام تراه إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخذ فى البكاء . من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هذا دون أن تخر فى الجنون ؟ لِمَ هذه القسوة التى لا فائدة فيها ؟ ربما كان هناك إنسان قُرئ عليه الحكم بإعدامه ثم ترك برهة فريسة للرعب ليقال له بعد ذلك . إذهب ! فقد عفى عنك . آه ! هذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه . لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب الأليم . لا . إنه لا يجوز أن نسمح بأن يؤخذ كائن بشرى بعذاب كهذا ؟ » .

يحدثنا العبيط عن رجل مرت به تلك المحنة فاستطاع أن يقص أحاسيسه . ولكن ديستوفسكى كان أبعد خيالاً وأغنى نفساً من أن يقف عند ما ابتلى . لقد عاد فى موضع آخر فحدثنا بلسان العبيط أيضاً عن تنفيذ الحكم بالإعدام فعلا وسار به إلى آخر مراحله على نحو لا نظن أن أحداً قد داناه فيه .

« كان السجين يقدر أن الإجراءات العادية ستراعى ، ولذلك اعتقد أن أمامه على الأقل ثمانية أيام . ولكن لأمر ما اختصرت المدة . فى الساعة الخامسة صباحاً كان نائماً وكنا فى أواخر أكتوبر ، ولذلك فقد كان الجو فى تلك الساعة لا يزال بارداً والنهار لم يشرق بعد . دخل مدير السجن ومعه أحد الحراس ، فى غير جلبة ، ووضع يده على كتف السجين فنهض جالساً وسأل وقد رأى الضوء : ماذا حدث ؟

— اليوم بين التاسعة والعاشرة ستنفذ العقوبة .

ولم يستطع السجين الذى كان النوم لا يزال بعينيه أن يصدق هذا الخبر ، فقد كان يزعم أن أمر التنفيذ لن يصل إلا بعد ثمانية أيام ، ولكنه عند ما كمل صحوه أمسك عن المناقشة ولزم الصمت . هذه هى التفاصيل التى ذكروها . ثم قال بعد ذلك : فليكن ! بغتة . . . على

هذا النحو ؟ ! إنه لأمر مؤلم ! . ثم لزم الصمت من جديد ولم يرد أن يفوه بكلمة . ونحن نعلم كيف تمر الثلاث أو الأربع ساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونبيذ وقهوة (آه ! يا لها من سخرية قاسية ! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر ، فهم يعتقدون فى سذاجة أنهم بتصرفهم هذا يأتون عملا إنسانياً) . ثم عملية الغسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هى هذه العملية بالنسبة للمحكوم عليه بالإعدام) . وأخيراً يحملونه فى عربة ويقودونه إلى المقصلة . ولا شك أنه — فيما أعتقد — كان يتخيل أثناء نقله أنه لا يزال أمامه فى الحياة وقت لا نهاية له . «لا تزال أمامى ثلاثة شوارع أعيشها . إنه زمن طويل ، عند ما أصل إلى نهاية هذا الشارع ، سيظل أمامى شارع آخر أتابعه ، ثم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز — وسيمر وقت آخر قبل أن نصل إلى هذا المخبز» . وحول العربة جمهور صاخب . عشرة آلاف رأس . عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليه أن يحتمل هل هذا ، وبنوع خاص هذه الفكرة : هاهم أولاء عشرة آلاف ، ولكنهم لن يعدموا أحداً منهم بل أنا الذى سأموت . هذا عن المقدمات . سلم يقود إلى المقصلة ، أمام هذا السلم أخذ الرجل فى البكاء ، وكان رجلا قويا ذا خلق شديد . قالوا إنه كان مجرما كبيراً . والقسيس الذى ركب إلى جواره فى العربة لم يتركه برهة واحدة ، وكان يحادثه باستمرار ، ولكننى أظن أن المسكين لم يكن يستمع إليه ؛ ربما يكون قد حاول أن يصغى ولكنه بعد الكلمة الثالثة لم يعد يفهم شيئا . وفى النهاية أخذ يصعد السلم والقيود التى تغل قدميه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة . وأمسك القسيس — الذى كان بلا ريب رجلا ذكيا — عن عظاته مكتفيا بأن يقدم إليه باستمرار الصليب ليقبله .

لقد كان المجرم شاحباً عند أسفل السلم ، وأما الآن وقد وصل إلى المقصلة فإن وجهه صار أبيض كالصحيفة ، لاشك أن أرجله أخذت تتداعى تحته وأن قلبه أخذ فى الغثيان . وكأن شيئاً قد خنقه فانتشر فى جسمه إحساس بالخدر . هذه ظاهرة يولدها الرعب فى تلك اللحظات المروعة التى يظل فيها العقل كاملا ولكنه يفقد كل ماله من سيطرة . إذا كان هلاك مثلا محققا وكنت فى منزل سينهار فوقك فإنك تشعر فجأة برغبة لاتقهر فى أن تجلس وتغمض عينيك وتنتظر . ليكن مايكون ... ... ورآه القسيس فى هذه الحالة من الضعف فأدنى من شفتيه — فى صمت وحركة سريعة — الصليب ، صليب لاتينى من الفضة . وكرر ذلك عدة مرات ، وعند ما أحس به الرجل لاح أنه قد عاد إلى نفسه لعدة ثوان ففتح عينيه ومشى .

لقد كان يقبل الصليب بنهم وهو فى لهفة قلقة كالمسافر الذى يخشى أن ينسى شيئا سيحتاج إليه

فى رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفة دينية كانت بعيدة عن ضميره . تلك كانت حاله إلى أن شد على اللوح ... ... وإنه لمن الغريب أن الإغماء لايحدث فى هذه الثوانى الأخيرة إلا نادراً . وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحياة غزيرة ، وتعمل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنها آلة تسير . يخيل إلى أن ألوانا من الأفكار تطن عندئذ فى الجمجمة . أشباح من الأفكار قد تكون مضحكة وهى لاشك فى غير موضعها مثل : آه ! هذا المتفرج بجبهته « حسنة » . الجلاد ببذلته زرار صدىء . ومع ذلك تعرف كل شىء وتذكر كل شىء . وهناك مسألة لايمكن أن ننساها وهى أنك لاتستطيع الأغماء . وحول هذه المسألة يدور كل شىء . ولتتصور أن هذه الحالة تستمر حتى آخر ربع ثانية . وعند ما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ثم فجأة تسمع السكين تنزلق فوقها ؟؟ ! لاشك أنها تُسمع . ولو أننى كنت شخصياً ممددا على الخشبة لأرهفت أذنى ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننا لا يمكن ألا نسمعه . ولتتصوروا أننا لانزال إلى اليوم نود أن نعرف : هل الرأس لاتدرك — فى الثانية الأولى بعد قطعها — أنها قد انفصلت عن الجسم ؟ » .

لست أدرى أصدق العبيط فى قصصه أم لم يصدق ، فنحن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتاً قد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوما عليه بالإعدام قد وصف لحظاته الأخيرة ، بما فى ذلك برهة قطع الرأس والثانية التى تليها ، ولكنى أستطيع أن أتخيل أوضح الخيال مايحدثنى به هذا الرجل العجيب . تأمل قليلا تلك الرأس التى تحتفظ بحياة غزيرة ومع ذلك لاتفكر إلا فى « حسنة » بجبهة متفرج ، أو زرار ببذلة الجلاد . أو ماتحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا مايخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحمى اليأس أشبه . إن فى تفاهة مايدور بها لوحياً يرعب الخيال . ثم أى مهارة فى فن هذا العبيط . كم من تفاصيل صغيرة تغزو النفس فى تدرج ماكر ، وكم من حيل يصطنعها ليبلغ منا مايريد . وحيله بعد من صميم حياتنا القريبة . لهفته فى تقبيل الصليب هى لهفتنا جميعاً عند مانخشى أن ننسى شيئاً سنحتاج إليه فى سفر ، وشعوره شعور رجل حم به القضاء وأخذ البيت ينهار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيه وينتظر إرادة الله . ثم صوت السكين . بأى حرص يريد الكاتب أن نقف عند هذه البرهة أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا . لقد خشى أن نمر بها سراعا ، فأوقفنا لنناقشها . هل سيُسمع انزلاقها ، وهل المسكين سيصغى لصوتها . وبأى دهاء وضع الكاتب نفسه فى هذا الموضع ليخبرنا أنه لابد منصت عندئذ لذلك الصوت المروع ولا بد مدركه . وما فعله الكاتب هناك أمل ضمنى فى أن يفعله غيره . وهذه هى

سذاجة أهل الفن الماكرة الساحرة وأخيراً هل أنا بحاجة إلى أن أدل القارىء على مافى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانية التى تلى قطعها أنها انفصلت عن الجسم) من رهبة تقشعر لها الجلود .

وبعد فقد اقتتل علماء القانون حول عقوبة الأعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فمنهم المؤيد ، ومنهم المناهض ، ولكنى لا أذكر أن أحدا منهم قد فطن إلى معنى العدالة النفسية التى صورها ديستوفسكى هذا التصوير الرائع . إن فى تحليله لعدم التناسب بين القتل والأعدام لحقا لا يدفع . فهذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حية عذاب لامثيل لفظاعته. ثم تلك اللهفة الحائرة التى أخذ عليها اليأس كل مسلك ، فتراها تعد مابقى لها فى الحياة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفناء ، أو ما ترى فيها أشنع العذاب؟! وإذا صدق مايقول هذا الكاتب العظيم أو مايكون من العدل أن نقدر هذه العقوبة بوقعها النفسى وتكافؤ هذا الوقع مع ما ارتكب من جرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بما نتوقع من صونها لحياة الجماعة .

(٤)

العبيط والنساء

رأينا العبيط فى عدة مواقف ، رأيناه مع مارى والأطفال ، ورأيناه مع خادم وسط الحياة الاجتماعية ، واستمعنا إليه يتحدث عن عقوبة الإعدام ويصف تنفيذ تلك العقوبة الشنيعة ، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أنه كان رجلا عاطفياً تقوده مشاعره أكثر مما يقوده عقله ؛ فهو يحنو على مارى ويصادق الأطفال لا حرصا على مبادىء أخلاق يؤمن بها بل مجاراة لدافع قلبى ، ودوافع القلب قل أن تتفق مع مواضعات الحياة الاجتماعية . وهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحياة ، فلسفة شعورية أيضا لأنها لا تتلقى شيئا من الخارج ومن ثم لا تنصت إلى عرف ولا تفطن إلى لياقة ، ولهذا نراه لا يرى عيبا فى أن يجالس الخادم وأن يعترف إليه بأموره الخاصة إيمانا منه بأن الناس سواء وأنه لن يضيره فى شىء أن يقص على ذلك الخادم ما يريد ، وهو لا يعتقد أن هناك ما يستحق الكتمان ولا يقيس الأمور بنتائجها الخارجية ولا يدرك النفس البشرية كما صاغتها أوضاع الحياة بل يراها دائما فى طبيعتها الفطرية حتى لنحسبه عاجزاً عن أن يقدر ما قد يصيبه من ضرر عندما يأخذ الناس بهذا النوع من المعاملة ، وإن كان من الذكاء بحيث يدرك الحقيقة النفسية لمن يخاطبه ويفض غلافها دون

أن يأبه لهذه الحقيقة أو يقيم وزنا لما قد يصــدر عنها من نتائج ضارة به . وهو أخيراً حار الخيال واسعه حتى لتراه يتصور من التفاصيل المروعة ما نعجب كيف يخطر لخيال بشرى ، وفى وصفه للاعدام وإبرازه لهواجس من نفذ فيه ذلك الحكم من الدقة والاستقصاء ما يشهد بأنه قد بلغ من الحساسية حداً يقرب من المرض .

كل هذه مواقف تساعدنا على تخطيط صورة العبيط كما تصوره ديستوفسكى ، ولــكن الصورة لا يمكن أن تــكمل ما لم نعرض لعلاقته بالنساء ، وموقفه منهن ، فذلك محك عظيم الخطر فى حياة الرجال .

ولقد أحب العبيط فتاتين ، أحبهما معا ، وكان حبه عفيفا متقدا ، أشبه ما يكون بحب الفروسية . ولقد لعبت طبيعة الفتاتين فى هذا الحب الدور الحاسم . كانت إحداهما : نستازيا امرأة عنيفة عنيدة مجروحة الـكبرياء ثائرة على أخلاق الرجال . وكانت الأخرى أجلاييه بنت الجنرال اپنتشين فتاة مترفعة فى غطرسة شديدة الثقة بنفسها واحتقار من عداها .

ولقد بلغ من سذاجة هذا العبيط أن ظن أن فى استطاعته أن يوفق بين الفتاتين وأن يحمل كلا منهما على محبة الأخرى أو مصــافاتها على الأقل . ولقد جرى بينه وبين أحــد الشخصيات الثانوية فى الرواية حوار يكشف عن تفكيره أوضح الـكشف .

سأله محدثه وقد هم بالزواج من نستازيا : تريد أن تتزوج من نستازيا مع أنك تؤكد لأجلاييه أنك تحبها ؟ — آه ! نعم نعم أحبها . — آه ، إذن أنت تحب الاثنين معاً ؟ — نعم أحبهما — يالله ! فـكر قليلا أيها الأمير ، فـكر فيما تقول — آه بدون أجلاييه ، إننى . . . . لا بد لى من رؤيتها . . . . إننى . سأموت نائماً . لقد خيل إلى وأنا نائم فى الليلة الماضية أننى أحتضر . آه ، ليت أجلاييه تعلم كل شىء . آه لو علمت . . . . يجب أن تعلم كل شىء . هذا هو المهم . ولماذا لا نعلم كل شىء عن الغير عندما يكون ذلك الغير جانيا . هنا شىء لا أستطيع تفسيره . إننى لا أجد اللفظ المعبر . . . . . ولـكن أجلاييه ستفهمنى ، آه ! لقد آمنت دائماً بأن أجلاييه ستفهمنى . — أيها الأمير إنها لن تفهم شيئاً . لقد أحبتك أجلاييه كما تحب المرأة الرجل لا الفـكرة المجردة . أو ما تظن أيها الأمير المسكين أنك على الأرجح لا تحب هذه ولا تلك ؟

لقد كانت نستازيا يتيمة تلقاها أحد الأثرياء وهى فى الخامسة من عمرها ونشأها بضياعه ، حتى إذا بلغت الثانية عشرة وبدت عليها ملامح الخفة والذكاء والجمال تعهد الرجل تربيتها بدور العلم ، وبعد أن أتمت دراستها اتخذ منها عشيقة له ، ولـكن العشق لم يدم طويلا إذ فـكر

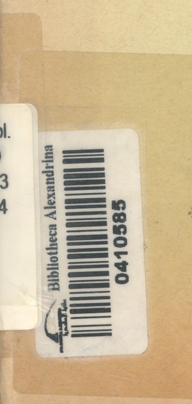
فى الزواج من غيرها وعندئذ أظهرت الفتاة من الحزم وقوة العزم ما حير العقول ، إذ أتت إلى بطرسبرج حيث أخبرت عشيقها أنها تمانع فى زواجه وإن لم تشعر نحوه بغير التقزز والاحتقار . ولم ير العشيق مخرجاً غير أن يحتال فيزوجها من سكرتير صديقه الجنرال إبنتشين ، ونستازيا تسخر من محاولته . وهى موضع رغبة الكثيرين من الأثرياء حتى لقد أتاها ليلة أحد هؤلاء المترفين العربيدين حاملا آلاف الجنيهات وكان العبيط حاضراً وعرض العربيد ماله ولكن العبيط حرص أن يتلف عليه أمره فعرض على نستازيا الزواج منه . ولكن نستازيا أخذت المال وألقت به إلى نار المدفأة والتفتت إلى سكرتير الأمير خطيبها المزعوم ، وقد كان حاضراً هو أيضاً ، وطلبت إليه أن يستنقذ المال من النار ، وهو لا ريب لم يدفعه إليها غير ما وعده به مربيها وعشيقها من ثراء . ولكن الخطيب يرفض أن يمد يده إلى هذا المال ، وإن انتهى به الأمر ففطن إلى ما فى موقف نستازيا منه من سخرية فعدل عن خطبته . وتعلقت الفتاة بالعبيط لسذاجته وشذوذ أطواره ، تلك السذاجة وذلك الشذوذ اللذان لا يخلوان من شهامة حقيقية ، وكان شعورها نحوه مركباً عجيباً من دوافع القلب وغرائز الحياة . لقد وجدت فيه شيئاً جديداً فى الوسط الذى تعيش بينه — تصرفاته تلقائية ، وحركات نفسه لا يدخلها تقدير ولا حساب ، وفى سذاجته من السحر ما يغرى نفساً يقظة كثيرة الحنايا كنفسها المرة العميقة ، لقد كان بينهما من التجاذب مثل ما بين الضياء والظلمة .

وأما أجلاييه بنت الجنرال فقد تغير موقفها منه ، فبعد أن كانت لا تستمع إليه إلا ساخرة متعالية ، لم تلبث صراحته وبساطة نفسه أن حطمت فى نفسها الكبرياء ، فإذا بها تتعلق به وترى سعادتها فى أن تقوم على رعايته . ولعلها وجدت فى تلك الرعاية ما يشبع الكبرياء القديم . وهذه حقيقة قد تفسرها غريزة الأمومة فى النساء من جهة ، ونزعة الكبرياء من جهة أخرى . وبقدر ما فى نفس تلك الفتاة من تعالٍ كان ألمها من أن تنافسها نستازيا . واكتوى موتشكين بنار الاثنين يعذبنه مر العذاب . وهو المؤمن بأنه لا محل لهذه العداوة . وكان يوم التقت فيه الفتاتان بحضوره ، وإذا بالبغض الذى طال كبتهما له ينفجر . وأخذ الرجل ما يشبه الذهول ، فضرع إلى أجلاييه أن تصافى نستازيا : « هذا لا يمكن ... أولا ترين إلى أى حد بلغ بها الشقاء ؟ » ولكنه لم يكد يلفظ تلك الكلمات حتى ألزمته الصمت نظرات أجلاييه المروعة . لقد رأى فى عينيها ألماً وبغضاً لا حد لهما ، وكان الوقت قد فات ، فأجلاييه لم تحتمل برهة التردد التى مرت به فصاحت صيحة غيظ ثم اتجهت إلى الباب مسرعة .

وعدا العبيط من خلفها ، ولكن نستازيا أمسكته محدقة فيه بوجهها القطب الشاحب

وانفرجت شفتاها الزرقاوان بقولها « أريد إذن أن تتبعها » ثم سقطت بين ذراعيه مغشياً عليها . فحملها إلى غرفتها ووضعها فى مقعد ووقف أمامها كالمتحجر . وخف أحد من فى البيت يبلل وجهها بالماء . وبعد هنيهة فتحت عينيها ولكنها لم تدرك شيئاً إلى أن أفاقت ، فنظرت حولها ثم أرسلت صرخة وعدت نحو موتشكين وهى تصيح : « أنت لى ! أنت لى ! لقد ولت تلك الفتاة المتكبرة ! ها ها ها . عجباً أنا التى كنت سأتركك لها ، لماذا ؟ لأى سبب ؟ إننى مجنونة . مجنونة . » ولكى تنتقم نستازيا من منافستها استبقت الأمير بعزلها واعتزمت الزواج منه ، ولكنها فى يوم الزواج هربت مع ذلك الثرى الذى أحرقت ماله ، وتنتهى المأساة بما يفزع ، فقد قتل ثرينا الفتاة ، واستفحل بمونشكين مرضه فأصيب بالغبط المسرف . ولقد كان فى المنظر الأخير من هذه المأساة ما يرعب الخيال ويلازمه ، فقد أمضى العبيط ومنافسه الثرى الليل قائمين على جثة القتيلة مضرجة بالدماء ، وكان بينهما حوار شاق طويل اجتمع فيه الحب إلى البغض فى مزيج مركب من الشعور الإنسانى الذى لن نسبر غوره .

هذا هو موقف العبيط من الفتاتين . وموضع النظر هو إيمانه إيماناً ساذجاً مؤثراً بأنه يستطيع أن يحب الفتاتين وأن يحملهما على التصافى إن لم يستطع حملهما على المحبة ، وفى هذا الإيمان ما يماشى فلسفته العامة التى تسلم بأن ما تستشعره النفس يجب أن يكون حقيقة واقعة وأن يقبله الجميع مادام صادقاً تلقائياً ؛ وهو لا يدرك ما فى نفوس الغير من صعوبات يجب أن يحسب لها حسابها . ولعله كان أصدق حساً من الفتاتين فأجلاييه لم يحتمل كبرياؤها ما لمحته من تردده بينها وبين منافستها فضحت بالحب فى سبيل الكبرياء . ونستازيا نفس غامضة لم تلبث بعد أن تحقق لها النصر ووجدت الرضى — إذ هزمت بنت الجنرال — أن عادت إلى صحوها فهربت فى يوم الزواج . ونحن فى الحق لا نستطيع إلا أن نفضل الشعور المباشر على الشعور الملتوى . لقد أحب العبيط الفتاتين لنفسهما ، وإذا كانت هناك مشاعر أخرى قد اختلطت بذلك الحب ومهدت له فهى أقرب للإيثار والشهامة منها للأثرة المتنكرة . فنستازيا كان يريد أن يستخلصها من مخالب السوء ، وأجلاييه كان فيها من توثب الذكاء وقوة الشخصية وجمال الروح ما يغرى بالحب . ومن هنا ترانا نتساءل كما تساءلنا من قبل : أحقاً كان موتشكين من الغفلة بحيث يستحق أن يوصف بالعبط أم هى الحياة الاجتماعية لم تكتف بأن أفسدت بمواضعاتها معاملاتنا الخارجية بل امتدت إلى داخل النفوس حيث ألبست مشاعرنا الطبيعية أثواباً من التنكر لا تلبث أن تتبدد فتكون خيبة الآمال .


Bibliotheca Alexandrina
0410585